

صَوْرَمِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ

(١)

أَرْضُ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ

أَمِين دُوَيْدَار



دار المعارف

obeikandi.com

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هُ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَأَحْلِلْ
عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وإن من خير الكتب وأجلها قدرًا هذا الكتاب الذى تهديه «دار المعارف» إلى شباب الجيل المسلم الذين تتعطش نفوسهم الحائرة إلى معرفة المثل العليا، التى تتطلع إليها أرواحهم، لتكون نبراسًا ينير لهم طريق الخير.

ولن نجد أصدق من هذه المثل التى تقرؤها فى سيرة سيد المرسلين الذى عاش حياته يعلم الناس، ويرشدهم إلى طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة.

فما أطيب الحديث عنك يا سيدى يا رسول الله، وما أجمل التأمل فى سيرتك العطرة، وما أحوج الشباب والشيخ إلى نور

هديك الوضاء، وإلى روحك الطاهرة التي نستمد منها السداد والقوة، لتفتح أمامنا أبواب الأمل والرجاء.

وبعد :

فهذه صورة صادقة. بين يديك أيها القارئ العزيز لسيد البشرية، وإمام المجاهدين، الذي لم يشنه عن دعوته العظيمة ما لقي من الأذى والضرر، في سبيل نشر دعوة الحق والخير والسلام، حتى أتم الله نعمته على البشرية.

عزيزي القارئ: سنوالى اللقاء بك فى الحديث عن هذه السيرة العطرة حتى الجزء الرابع من هذه السلسلة.

[دار المعارف]

إهداء

ولدى العزيز سامي

تعهدتك بالقصة في بكور طفولتك، كما تعهدت أختك من قبل، وتدرجتُ بك فيها كلما تدرجتُ في الإدراك والفهم، وكنت أبغى بذلك أن أعلمك - عن طريق القصة - كل ما أريد لك؛ وما كنت أريد إلا أن تكون إنساناً كاملاً، يدرك أن له في الحياة رسالة أسمى من الطعام والشراب، و من اللهو والمتاع؛ فما الطعام والشراب واللذائذ والشهوات إلا مُتعة الحيوان. أما الإنسان الذي كرمه الله ووضعه فيه أسراره، فإن رسالته أن يعمُر الأرض بالحب والخير، والعدل والصلاح، وأن يكون المثل الأعلى دائماً هو الهدف الذي يرمى إليه في كل شيء.

لذلك حاولت أن أرسم لك هذا المثل عن طريق القصة، لأنها أحب الطرق إلى نفسك وأقربها إلى طبيعتك، وبذلت جهدي أن أصوره لك في الصورة التي تعشقها وتصبو إليها. وكانت غايتي التي أرمي إليها أن تكون ولداً صالحاً، وأن يكون

المثل الأعلى هدفك الذى تعمل له وتسعى إليه فى حياتك.
وكننت قد ادخرت لك سيرة الرسول الكريم، محمد بن
عبدالله -صلى الله عليه وسلم- أزوّدك بمعانيها العالوية، حين
يَشِبُّ شبابُك ويستوى عودك. ولكن الله -تعالت حكمتُه- أراد
أن يشاركك إلى جواره، وأن ينقلك من دار الفناء إلى دار
البقاء، وأنت صحيفة بيضاء لم تلوثْ بإثم، فوقفت حيران
لا أدرى: هل انتهت مُهمَّتى عند هذا الحد، أو لا يزال من
واجبى أن أتعهد أترابك من الفتيان والفتيات، بما كنت أريد أن
أتعهدك به؟

يُخَيَّلُ إِلَى -يأبئى- أن مهمتى لاتزال قائمة؛ فما كنت
أبغى من تهذيبك بالمثل الصالحة، إلا أن تكون مثلا صالحا بين
أترابك، يروون فيك التمودج الحى للفتى الصالح، الذى يسمو
بهمته على الشهوات الباطلة، والأعراض الزائلة، ويدرك أن هذه
الحياة مزرعة لما بعدها؛ فلا يُطغيه المال مهما كثر، ولا يستعبده
الجمال مهما قتن، ولا يخذعه المنصب مهما علا، ولا يلهيه متاع
الدنيا عن نعيم الآخرة، ولا يشغله الشيطان عن مراقبة الله،
الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

فهاأنذا - إذن - أستأنف السير من جديد، محاولا أن أسير
مع أترابك على النهج الذى كنت أسير عليه معك؛ وهذه سيرة

الرسول الكريم أقدمها لهم، في الأسلوب الذي تعودت أن أبسط لك به كل شيء.. . وقد جعلت جهدي في تبسيط هذه السيرة الفاضلة، هدية مني إلى روحك الطاهرة.

فاسأل الله يابني - وأنت في منازل الرضوان منه - أن يوفقني إلى إتمامها على النحو الذي يرضاه لرسوله، وأن يتقبلها مني عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتجاوز بها عن سيئاتي، ويجعلها رُجحاً في ميزان حسناتي!!

٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٢ هـ
١٠ من مايو سنة ١٩٥٣ م

الطرية

والدك

أمين دويدار

obeikandi.com

تمهيد

هذه صفحات من سيرة الرسول الكريم، محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - أردت أن أتحديث فيها إلى الشباب من أبنائنا، ونحن في مُستهلّ نهضة جديدة، لعلّ أستطيع أن أساهم بها في تقويمهم وحسن توجيههم، وفي بنائهم على أساس من الأخلاق والمثلّ الفاضلة، التي وضعها الإسلام لأبنائه، ورسمها الرسول نماذج حية للناس في أقواله وأفعاله.

وقد حرصت جهدي على أن تكون هذه الصفحات صورًا صادقة من حياة الرسول الكريم، تملأ النفس بما فيها من صدق ووضوح، وتملأ القلب بما فيها من قوة وحياة؛ وأن أسوق الحقائق التاريخية في أسلوب قصصي سهل، يلائم مستوى الشباب ويستهوى قلوبهم، ويقف بهم على مواقف العظمة الحقّة في حياته، صلى الله عليه وسلم، لتكون لهم قدوةً يقتدون بها في حياتهم، فيشبهون رجالًا صالحين، تسعد الحياة بهم ويسعدون بها، كما سعدت بمن كان قبلهم من أبناء المسلمين الأولين.

إن في الشباب ميلا غريزيا إلى القصة، يدفعه إلى التهام كل ما يقدم إليه عن طريقها. وقد رأيت الذين لا يعلمون يستغلون في الشباب هذا الميل، فيقدمون له ما يشاءون من هو الحديث عن طريق القصة، في ألوان جاذبة وصور خادعة. وقد أسرفوا في ذلك أيما إسراف، واستغلوا ميول الشباب أسوأ استغلال، ففسدوا له في هذه الألوان ماشاءوا وشاءت لهم أغراضهم من سموم، حتى استطاعوا أن يَحَلُّوا في الشباب عناصر القوة، وأن يصرفوه عن الجدد إلى اللهو، وعن القراءة النافعة المغذية، إلى القراءة الهشَّة العابرة، لمجرد التسلية وشغل الفراغ؛ واندفع الشباب وراءهم في غير وعى، غير مدرك ما هنالك من خطر عليه وعلى مستقبله. وللشباب في ذلك عذره، فإن تجار اللهو قد حرصوا على أن يقدموه إليه في أبهى صورته، وأخضع مظاهره، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا؛ فقد رأينا الشباب يلتهم التهامًا كل ما تقدمه له تلك الثقافة الرخيصة، ويندفع اندفاعًا إلى تقليد هذه المثل الهابطة، غير مبالي بما وراء ذلك من عاقبة. وما زال هؤلاء يفتنون الشباب بالألوان من الفتنة، ويخدعونهم بأنواع من الخداع، حتى فتنوه عن دينه وخلقه، وعن تقاليد آبائه وأجداده، وحتى سلخوه من قوميته وبيئته، وتركوه مَسِيحًا مشوهًا، لا هو شرقي ولا هو غربي، ولا هو مسلم ولا هو غير مسلم.

وإن في تاريخنا الإسلامي من المثل الكريمة، ما لو أحسن توجيه الشباب إليه لأق بالمعجزات. وقد رأيت الذين كتبوا في تاريخنا - إلا قليلا - قد أغفلوا مستوى الشباب وميولهم، فلم يقدموا لهم من هذا الزاد ما يلائم مداركهم؛ فمنهم من جنح إلى المنهج العلمي الذي لا صير للشباب عليه، ومنهم من جنح إلى الخيال وتسهل بالأسلوب، حتى جعله إلى مستوى الطفولة أقرب.

وقد كانت لي قبل ذلك محاولات في كتابة القصة السهلة، ساهمت بها زمناً في خلعة الطفولة، فرأيت الكثير من إخواني يقولون لي: لِمَ لا تكتب للشباب كما كتبت للطفولة؟ وجعلوا - كلما جدت مناسبة - يهتمونني بالتقصير فيما يجب على نحو الشباب؟ حتى رأيت أخصاً منهم ذات يوم وقد أعدت لي مكاناً في مجلته، لأتحدث منه إلى الشباب في تاريخ الإسلام ورجاله، وطلب إلي أن أرسم لهم - في أسلوب يناسبهم - صوراً تصور بطولة هؤلاء الرجال وعظمة أخلاقهم، وتلفتهم إلى المبادئ السامية التي بنى الإسلام عليها نفوسهم، فسادوا بها العالم، وملثوا بها الأرض عدلاً وحكمة؛ فلم أجد بدءاً من الإذعان.

وبدأت أكتب هذه الصفحات في سيرة الرسول الكريم؛ فهو ﷺ أحسن قدوة تُقتدى، وأهدى دليل يُتبع، وفي سيرته صور

شقى من الكمال ينبغي أن يُلقننا الآباء للأبناء، بل هو المثل الأعلى للكمال الإنساني، في كل ماتسع له طاقة الإنسان.. أدبه ربه فأحسن تأديبه، وجعله نموذجاً حياً للشخصية القوية، التي تستطيع بقوة إيمانها أن تصلح ما أفسد الدهر، «فقد استطاع ﷺ في حياته أن يغيّر طباع قومه وأفكارهم. وأن يقوم المعوج من أخلاقهم، وأن يدفعهم بقوة في طريق المثل الأعلى، ويرفعهم إلى مستوى من الحياة أسمى وأزكى؛ ولم يلجأ في سبيله إلى الوسائل التي يعجز عنها طوق البشر، بل تذرّع بجميع الوسائل الشريفة، مما هو في متناول الناس جميعاً؛ فكانت حياته درساً عملياً للذين يشقون طريقهم بقوة إيمانهم، على رغم ما يحيط بهم من الصعاب، وما يعترض طريقهم من العقبات»*

وقد جعلت منهجى في كتابة هذه الصفحات أن تكون الحقيقة التاريخية هي الأساس، وأن أحاول عرض هذه الحقيقة في الأسلوب الذى يستهوى الشباب ويستميله، وفي الصورة التي تجعل المشاهد أمامه صورة حية شاخصة، كأنه يراها رأى العين، ويدركها بكل مشاعره في حقيقتها الواقعة.

ولست أزعج من بلغت من ذلك ما أريد، وإنما هو منهج وضعتة لنفسي، وحاولت جهدى أن أسير عليه. فإذا كنت قد

* المثل الأعلى للأنبياء بتصرف.

أصبت الغرض الذى رميت إليه، فذلك فضل الله وحسن توفيقه؛ فهو الذى استعنته فأعانتى، واستهديته فهدانى. وإن كنت قد حذت عن الطريق وكَبُوتَ دون الغاية، فحسبى أنى كنت صادق النية فيما أخذت به نفسى من هذا القصد؛ فإنما الأعمال بالنيات، وقد تكون نية المرء خيراً من علمه، ﴿والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.



وبعد - أيها الأبناء - فلإن أقدم إليكم هذه الصفحات من سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا أضرع إلى الله أن يُلين لها قلوبكم، ويصلح بها نفوسكم، ويجعل لكم فيها زاداً من التقوى يحفظكم من غرور الشباب، ويهديكم إلى طريق الصواب.. ﴿فَإِنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

وقبل أن أمضى بكم فى سيرة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أقف بكم قليلاً، لأحدثكم عن البيئة التى وُلد بها ونشأ فيها، وعن طبيعة أهلها ونظام حياتهم، وعن بعض الحوادث المهمة التى حدثت قبل ميلاده، وكان لها صلة وثيقة بسيرته وتاريخه.

بلاد العرب

فقد ولد - صلى الله عليه وسلم - في «مكة»، ومكة - كما تعلمون- في بلاد الحجاز، وبلاد الحجاز في بلاد العرب؛ وبلاد العرب صحراء واسعة، قليلة الماء قليلة الإنبات، أكثرها صخور ورمال، وجبال وتلال؛ وأكثر سكانها قبائل متفرقة، يعيشون في الخيام، وينتقلون من مكان إلى مكان، متتبعين مساقط المطر ومنابت العشب، يرعون فيها أنعامهم التي يعتمدون عليها في حياتهم.

أما المدن في هذه البلاد فقليلة جدًا، ومعظم أهلها يعيشون على التجارة، يسيرون بها في قوافل من الإبل، نحو الشمال في الصيف، ونحو الجنوب في الشتاء، عابرين بها مسالك الصحراء البعيدة، متعرضين لسطو الأعراب من البدو، في الذهاب وفي الإياب.

البيت الحرام

ومكة من أشهر المدن في بلاد العرب، بل في بلاد الدنيا جميعًا؛ لأن فيها «الكعبة»، بيت الله الحرام، أول بيت بُني في الأرض لعبادة الله وحده.. وكانت البيوت قبله تُبنى لعبادة

الأصنام، أولعبادة غيرها من الشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والأشجار والأنهار، والحيوان والطيور، وما إلى ذلك من كل ما يَرُوع النفوس بعظمته، أو يملك القلوب بمنفعته.

وهو أول بيت وُضع للناس ليطوفوا به، وَيُحْجُوا إليه من مشارق الأرض ومغاربها؛ وأول بيت حَرَّمَ الله فيه القتال والخصام والجدال، وحرم من أجله مكة كلها، وسماها «البلد الأمين».

ثم هو قبلة المسلمين جميعاً، يتجهون إليه في صلاتهم، مهما تباعدت بلادهم واختلفت أقطارهم.. فضله الله على سائر المساجد، وحرم دخوله على المشركين، وجعله حَرَمًا آمناً، لا يلدأ إليه خائف إلا آمناً، ولا يدخله داخل إلا أحس بأنه من حماية الله في حصن حصين.

من أجل هذا أحبه أهل مكة، وعظموه وقدسوه، وعاشوا في حماه آمنين على أنفسهم وأموالهم؛ تغدو قوافلهم وتروح في الصحراء آمنة مطمئنة، لا يتعرض لها الأعراب كما يتعرضون لسواها؛ بل ربما نصبوا أنفسهم حُرَّاساً عليها، حتى يصلوا بها إلى مآمنها، لأنها قوافل أهل الحرم، الذي قدسه الله وعظمه، وجعله مباركاً وهدى للعالمين.

obeikandi.com

أرض الحرم

إبراهيم وسارة

كان «إبراهيم» - عليه السلام - عبدًا قانتًا لله، مخلصًا في عبادته، حريصًا على طاعته، مسارعًا إلى رضاه. وكان له زوجة سالحة تسمى «سارة»؛ وكان يحبها وتمجبه، ويخلص لها ويخلص له.

قضى إبراهيم وزوجه عمرًا طويلًا ولم يُرزقا ولدًا، حتى كبر إبراهيم وصار شيخًا هرمًا، وشاخت سارة وجاوزت سن الولادة. وكان إبراهيم يرجو أن يكون له ولد يؤنس في حياته، ويعينه في شيخوخته؛ وكانت زوجته سارة ترجو مثل ما يرجو.

وكانت لسارة جارية تسمى «هاجر»، جاءت بها من مصر واتخذتها خادمًا لها؛ فوهبتها لإبراهيم وقالت له: إن كبرت يا إبراهيم، وصرت عجوزًا فانية، وانقطع أملى أن يكون لى ولد بعد هذه السن؛ وهذه جارىتى هاجر قد وهبتها لك، عسى أن يرزقك الله منها ولدًا تقرُّ به عينك..

ودخل إبراهيم بهاجر، فرزق منها ولدًا سماه «إسماعيل».

إسماعيل وهاجر

فرح إبراهيم فرحًا عظيمًا بولده إسماعيل، وفرحت به أمه هاجر، وأخذت تحس مكانها في البيت، وتشعر أنها لم تعد خادمة كما كانت؛ بل أصبحت أمًا تفخر بولدها، وتعتز به كما تعتز الأمهات.. وأحسّت سارة أن خادمتها قد تغيرت لها، وغدت تعتز بمكانها في الأسرة؛ وأحست كذلك أن إبراهيم يزداد فرحه بإسماعيل يومًا بعد يوم، وأن عنايته كذلك تزداد بأمه هاجر؛ فأخذتها الغيرة، وحزّ في نفسها أن يكون لخادمتها ولد وليس لها ولد.

وكان إبراهيم حريصًا أشد الحرص على رضا سارة، لأنها شريكة حياته، ورفيقة صباه وشيخوخته. فلما أحس أن الغيرة قد أخذت تداخلها من جاريتها هاجر، أراد أن يفرق بينهما؛ فأخذ هاجر وابنها إسماعيل، وانطلق بهما يسيح في أرض الله.. وما زال يتنقل من مكان إلى مكان، ومن أرض إلى أرض، حتى حط رحاله بهما في أرض «مكة».

وكانت أرض مكة في ذلك الحين أرضًا موحشة، خالية من الناس والزرع والماء؛ ولكن الله أوحى إلى إبراهيم، أن يترك ابنه إسماعيل وأمّه هاجر في هذه الأرض؛ فاستجاب إبراهيم لأمر

ربه، وتركها في هذا المكان القفر، وترك معها جرابًا فيه قليل من التمر، وسقاء فيه قليل من الماء، ثم قفل راجعًا إلى زوجته سارة، في أرض فلسطين.

في أرض مكة

فلما هم أن ينصرف تعلقت به هاجر، وقالت له: إلى أين يا إبراهيم؟ أتركنا في هذه الأرض الخلاء، لا طعام لنا ولا شراب، ولا أنيس ولا مغيث؟ فتأثر إبراهيم وغلبته عيناه، فلم يستطع أن ينظر إليها، وانطلق يمشي في طريقه.

لكن هاجر لم تتركه، وظلت متعلقة به تصيح: إلى أين يا إبراهيم؟ إلى أين يا إبراهيم؟.. وظل إبراهيم منطلقًا في طريقه، لا يلتفت إليها ولا إلى ولده. فلما رأت أنه لا يجيبها ولا يلتفت إليها، سألته قائلة: الله أمرك بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن فهو لن يتخلى عنا، ولن يضيعنا.. وانكفأت راجعة إلى صغيرها.

أما إبراهيم فقد ظل مندفعًا في طريقه لا يلبس على شيء، حتى وصل إلى مُنْعَطَف الطريق؛ وهناك جاشت نفسه بعاطفة الرحمة لهذين الضعيفين: طفله إسماعيل وجارته هاجر؛ فألقى عليها نظرة دامعة، ثم رفع يديه إلى السماء ضارعًا، وهتف

يدعو الله قائلا : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ^(١)، وارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ! ﴿٢٠﴾^(٢) ثم انثنى في طريقه وقد اطمأن قلبه، وسكنت نفسه، وزالت مخاوفه، وأيقن أن الله الذى لاتنام عينه، سيرعاهما برعايته، ويحوطهما بعنايته.

وهكذا سار إبراهيم إلى فلسطين، وهو مطمئن إلى رعاية الله لطفله وجارته.

حيرة هاجر

أما هاجر فقد عادت إلى ولدها، تضمه إلى صدرها، وتغمره بحنانها، مستسلمة لأمر الله، مؤمنة بأن الله معها، وأنه ماساقهما إلى هذا المكان القفر إلا لحكمة يعلمها وأمر يدبره. وما هى إلا لحظة حتى كففت دموعها، وابتسمت لطفلها؛ ونظرت إلى جراب التمر فأخذت منه حَفْنَةً، وجعلت تأكل منها في هدوء واطمئنان؛ ثم مدت فيها إلى سقاء الماء فأخذت منه جُرْعَةً؛ ثم

(١) تأسر بهم وتعطف عليهم.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

قالت : « الحمد لله الذى أطعمنى فأشبعنى ، وسقانى فأروانى !
وما زالت هاجر تأكل من ذلك التمر، وتشرب من ذلك
الماء، حتى فرغ التمر والماء وأصبحت ولاطعام عندها ولاشراب.

على أنها مع ذلك لم تجزع ولم تياس، وظلت صابرة على
الجوع والعطش، وهى فى كل لحظة تنتظر فرج الله ورحمته..

وطال بها الانتظار، وتمادى بها الصبر، واشتد بها الجوع
والظماً... ولكن، كيف يتسنى لهذا الطفل الضعيف أن يصبر؟

لقد أخذ الطفل يتلوى من الألم، ويئن أنيناً يفطر القلب،
وأمه تنظر إليه حائرة، لاتدرى ماذا تفعل...

وما زال الطفل يئن ويبكى، ونفسه تهافت، وصوته
يتخافت، حتى كادت نفسه تفيض...

هنالك لم تستطع أمه صبراً، ولم تُطق أن تنظر إلى وليدها
وهو على هذه الحال؛ فانطلقت تجرى هاهنا وهاهنا، لعلها تجد
أحدًا يسعفها بشربة ماء. وكان «الصفا» أقرب جبل إليها،
فصعدت عليه، وتطلعت حوالها فلم تر أحدًا؛ فنزلت مُهرول إلى
بطن الوادى حتى وصلت إلى «المروة»، فصعدت فوقه وتطلعت
فلم تر أحدًا؛ فعادت تجرى إلى الصفا، ثم إلى المروة، ثم

إلى الصفا، ثم إلى المروة، حتى أتمت سبعة أشواط، وهي تجرى
مكروية ملهوفة..

مجدة السماء

فلما انتهت إلى المروة في الشوط السابع، سمعت صوتاً يرن
في أذنيها، فتسمعت وأنصتت، فسمعت الصوت مرة أخرى؛
فصاحت قائلة: يا صاحب الصوت، أغثنا إن كان عندك
عَوْثٌ!.. ثم التفتت تنظر إلى الطفل، فإذا هو يفحص برجله
من العطش، وإذا جبريل يناديها: مَنْ أنت؟ قالت: أنا هاجر،
أم ولد إبراهيم. قال: فإلى من وكلكما في هذا المكان القفر؟
قالت: وكلنا إلى الله. قال: وكلكما - إذن - إلى الرؤف
الرحيم.

وحينذاك فحص الغلام الأرض بأصبعه، فإذا الماء ينبثق من
بين أصابعه متدفقاً فوراً.

فكبرت هاجر، وانكبت على الماء تحوشه بيديها وهي تقول:
«زَمْ.. زَمْ.. زَمْ..» «زَمْ.. زَمْ..»، وجعلت تغرف منه في
سقائها، وهو يفور ويفور، ويسيح على ماحوله من الرمال
والصخور.

وهكذا سقت هاجر رضيعتها، وأزوت ظمأها، وسجدت لله

شكرًا على ما أدركها به من الغوث والرحمة. أما الملك فقد ودع هاجر وطفلها، بعد أن ألقى في رُوعها أن الله معها، وأنه سيشمها ويشمل طفلها بخير كثير.

* * *

وجعلت هاجر تتطلع إلى الملك وهو مخلق في السماء، حتى اختفى عنها.. فلما غاب عن ناظرها أحست بالوحشة، وودت لو أنه بقى معها فلم يفارقها، وتطلعت نفسها إلى الأنس في هذه الوحدة الموحشة، وتمنت لو أن الله ساق إليها جماعة من الناس، يزيلون عنها وحشة العزلة والانفراد.

في ذلك الوقت كانت قبيلة من قبائل العرب، تسمى قبيلة «جرهم» تسير عبر الصحراء، متجهة إلى الشمال؛ فرأوا طائرًا يخلق فوق «زمزم»، حيث تقيم هاجر وابنها إسماعيل؛ فقال قائلهم: لاشك أن ها هنا ماءً قريبًا، فإن الطيور لا تحلق إلا حيث يكون الماء.. فأرسلوا واردهم ليبحث عن ذلك الماء. فما زال يبحث حتى اهتدى إلى مكان النبع، فانقلب إلى أصحابه فرحًا يصيح بالبشرى، فأقبلوا مسرعين يتسابقون إلى الماء. فلما رأوا عنده هاجر، أدركوا أنها صاحبة الماء؛ فاستأذنها في النزول عند مائها، فأذنت لهم، فنزلوا.

وهكذا نزلت قبيلة جرهم عند ماء زمزم، فأنست بهم هاجر

وأنسوا بها، وطابت لهم الحياة في هذا المكان فأقاموا.. وشب
إسماعيل بينهم، واختلط بهم وبأولادهم، فتعلم منهم لغة العرب.
ونشأ يتكلمها كما يتكلمونها..

فلما كبر إسماعيل وبلغ مبلغ الرجال، تزوج من قبيلة
جرهم، وصار له من بعد ذلك بنون وبنات؛ وتوطدت صلة
إسماعيل بالعرب، حتى غدا كواحد منهم.

وبارك الله في ذرية إسماعيل، فأخذت تتناسل في هذه البقعة
المباركة، وتتوالد فيها جيلا بعد جيل، حتى وُلد منها محمد
رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

بناء البيت

إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة

كان إبراهيم - عليه السلام - يتردد بين الحين والحين على أرض الحجاز، ليطمئن على ولده إسماعيل. فلما استقر إسماعيل في مكة، وصار رجلاً ذا أسرة وعيال، أوحى الله إلى إبراهيم أن يبني بيتاً لعبادته عند ماء زمزم، بمعاونة ولده إسماعيل؛ فتوجه من فوره إلى أرض الحجاز، فوجد إسماعيل جالساً بجوار زمزم، يبرى نبالاً له ليصطاد بها؛ وكان إسماعيل شاباً قوياً مفرماً بالصيد.

فلما رأى إسماعيل أباه قام إليه فرحان، يعانقه عنق الشوق، ويبادلُه قُبْلَ الحنان. فلما فرغا من تحيات اللقاء، واطمأن كل منهما على حال صاحبه، قال إبراهيم لابنه إسماعيل: إن الله عهد إلينا أن نبني له بيتاً في هذا المكان. قال إسماعيل: وأنا إن شاء الله مُعِينُكَ ومُؤَاوِزُكَ على بناء هذا البيت. فسّر إبراهيم وقال: نِعَمُ المَعِينُ أنت على أمر الله يا بني..!

وقام إبراهيم وإسماعيل يتعاونان على بناء البت : إبراهيم يبني وإسماعيل يحمل الأحجار ويناوله؛ حتى إذا ارتفع البناء عن قامته إبراهيم، وصار أعلى من أن تناله يده، جاء إسماعيل بحجر كبير، فجعله مقاماً لأبيه؛ فوقف عليه إبراهيم، وجعل يبني ويدور به حول الجدار، منتقلا من مكان إلى مكان، حتى أتم بناء البيت. فلما تم البيت وارتفعت قواعده، توجه إبراهيم وإسماعيل إلى الله يدعوان :

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرْنَا مَنْسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (١)

إبراهيم يدعو إلى الحج

وقد تقبل الله منهما، واستجاب دعاءهما، فجعل هذا البيت كعبة للناس، يحجون إليه من فجاج الأرض، وأوحى إلى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج إليه. قال إبراهيم : وما عسى أن يبلغ صوتك إذا أنا أذنت يارب؟ فقال له ربه : إنما عليك الأذان

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ - ١٢٩.

وعليها البلاغ.. فارتقى إبراهيم جبلا عاليًا، وجعل ينادى بأعلى صوته: «يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج إلى بيته فحجُّوا».. فجعل صوته يدوي في الأفاق، فيسمعه كل من أراد الله له أن يحج، فيقول: «لبيك اللهم لبيك»!

وأقبل الناس على البيت طائعين، يلبون النداء، ويحيون الدعاء؛ ففرح إبراهيم فرحًا عظيمًا، حين رأى الناس يقبلون من كل حذب، ويجتمعون حول البيت أجناسًا واللوانًا. فتمنى لو أن هذا المكان القفر، قد صار بلدًا عامرًا بالخير أهلاً بالسكن، يأنس الناس إليه وبالفونه، ويعيشون فيه إخوانًا، يحب بعضهم بعضًا، ويأمن بعضهم بعضًا؛ فتوجه إلى الله يدعوه بقلب خالص: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا، وارزُقْ أهله من الثمراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ!»^(١).

فأوحى الله إلى إبراهيم: أني جعلت هذا البيت حرمًا آمنًا، يُحِبِّي إليه ثمرات كل شيء؛ وجعلت مكة بلدًا حرامًا، لا يحل فيها القتال، ولا يُصَاد طيرها ولا حيوانها، ولا يُقَطع شجرها ولا يُحْتَلَى خُلاها^(٢)؛ وجعلت أشهر الحج أشهرًا حُرَّمًا، لا رَفَثَ فيها^(٣) ولا فسوق، ولا خصام ولا جدال.. وأرسل الله إلى إبراهيم

(١) سورة البقرة الآية ١٢٦.

(٢) لا يُحْتَلَى خُلاها: لا يمش ما به من عشب.

(٣) الرفث: فحش القول.

ملكًا من السماء، فعلمه مناسك الحج؛ فجعل إبراهيم يعلمها للناس، كما تعلمها عن الملك، وكما تعلمها الملك عن الله سبحانه.

الحجاج يأتون من كل فج

من ذلك الحين، صار هذا البيت مَثَابَةً للناس^(١) وأمنًا؛ يأتون إليه من مشارق الأرض ومغاربها، مُشاةً وركبَانًا، ويجتمعون في ساحاته إخوانًا سَوَاسِيَةً؛ قد تركوا وراءهم مظاهر الجاه والمال، وتجردوا من زينة الحياة الدنيا، ولبسوا من الثياب أبسطها مظهرًا، وأكثرها تشابهاً، وأقلها كلفةً، لافرق في ذلك بين غني وفقير، وعظيم وحقير؛ وجاءوا عبادًا مخلصين لله، يهملون له ويكبرون، ويشكرونه على أن هيا لهم هذا الحرم الآمن، في هذا البلد الآمن، في هذه الأشهر الآمنة، ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾^(٢)؛ فيهدى الأغنياء من الهدى^(٣) مسایشاءون، ويأكل الفقراء من اللحم مايشتهون، ويقبل الجميع على الله بقلوب

(١) مَثَابَةٌ : مجتمعًا لهم .

(٢) سورة الحج الآية ٢٨ .

(٣) الهدى : ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، لينذع هنالك ويفرق لحمه على الفقراء .

خاشعة، وعيون دامعة، يتوبون إليه ويستغفرونه، ويرجون رحمته
ويخافون عذابه.

فإذا انتهت هذه الأيام المباركة، عادوا إلى ديارهم وقد
غُسلت ذنوبهم، ومُحيت سيئاتهم، فرجعوا أطهارًا أبرارًا كما
ولدتهم أمهاتهم.

من أجل ذلك صار هذا البيت مَهْوَى الأفتدة، وقبله
الأنظار، وصارت القبائل من الأعراب تنهافت على الإقامة
حوله، وتتسابق إلى السكن في رحابه، حتى امتلأت بهم مكة،
وعِمَرت بهم ساحاتها، وصار خُدّام هذا البيت فيها أرفع الناس
منزلة، وأعلاهم مقامًا.

سدانة البيت

كانت خدمة البيت شرفاً عظيماً

كان خدام البيت يُسمَّون «السدنة»، وكانت سدانة البيت شرفاً عظيماً، لا يناله إلا الأكفاء من الأشراف والسادة؛ وكانت القبيلة التي تُسند إليها سدانة البيت، هي سيدة القبائل وأشرفها وأعلاها؛ وكان سدنة البيت هم حكام مكة وأولو الأمر فيها، وهم الذين يملكون مفاتيح الكعبة، ويتولون زعامة الحج وقيادة الناس في أداء مناسكه.

من أجل ذلك كانت القبائل التي نزلت بمكة، تتنافس تنافساً شديداً في الوصول إلى سدانة البيت، وتحاول كل قبيلة أن تستأثر دون غيرها بهذا الشرف العظيم؛ وكان الصراع من أجل ذلك دائماً بين القبائل، فكل قبيلة تغلب يكون لأشرافها وحدهم حق السدانة؛ فلا تزال كذلك حتى تغلبها عليه قبيلة أخرى.

وكان بنو إسماعيل بن إبراهيم - عليها السلام - هم الذين تولوا سدانة البيت بعد أبيهم، وما زالوا يقومون بها حتى غلبهم

عليها أخوالهم من قبيلة «جُرْهُم» فانتزعوها منهم؛ واستمرت السدانة في جرهم حيناً من الدهر، حتى غيروا وبدلوا في شعائر الحج، وطَفَّؤا وَيَغَوُّا على الناس، وأفسدوا في أرض الحرم، فسلط الله عليهم قبيلة أخرى تسمى «خزاعة» فغلبوهم على سدانة البيت، وتولوا دونهم أمر مكة. فلما رأت قبيلة جرهم أنها غلبت على أمرها، عمدوا إلى كل ما أهدى إلى الكعبة من نفائس، فألقوها في بئر زمزم، ثم ردموا البئر فطمسوها وأخفوا معالمها، ثم خرجوا من مكة مهاجرين في الأرض.

واستمرت خزاعة دهرًا طويلاً وهي تقوم على سدانة البيت، وتتولى شؤون الحكم في مكة، حتى انتقلت منها إلى قبيلة «قُرَيْش». وكانت قريش أشرف القبائل في مكة، وأعلها نسباً، لأنها من ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليها السلام. وكان أول من تولى ذلك من قريش، قُصَيُّ بن كلاب، أحد أجداد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

قصي بن كلاب

ويقولون: إن قصياً كان قد مات أبوه وهو صغير، فتزوجت أمه رجلاً آخر يسمى «رَبِيعَةَ بن حَرَام»؛ وكان ربيعة من قبيلة تسمى «قُضَاعَةَ»، وكانت قضاةً تسكن عند حدود الشام،

فَنَقَلَ رِبِيعَةُ زَوْجَتَهُ إِلَى بِلَادِهِ، فَأَخَذَتْ مَعَهَا وَلَدَهَا قِصَى بِنَ كِلَابِ. وَظَلَّ قِصَى يَعْيشُ مَعَ زَوْجِ أُمِّهِ وَهُوَ يَظُنُّ أَبَاهُ، حَتَّى كَبُرَ وَصَارَ شَابًا وَكَانَ جَلْدًا^(١) قَوِيًّا شَدِيدَ الشَّبهِ بِأَبِيهِ؛ يَمْتَازُ بِطَوَلِهِ الْفَارِعِ، وَعَضَلَهُ الْمَفْتُولُ، وَشَعْرَهُ الْخَشَنَ الْكَثِيفَ، الَّذِي يَمَلَأُ صَدْرَهُ وَذِرَاعِيَهُ وَسَاقِيَهُ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ قِصَى يَبَارِي رَفِيقًا لَهُ مِنْ قِضَاعَةَ فِي رَمَى السِّهَامِ، فَغَلَبَهُ قِصَى، فَاغْتَاظَ الْقِضَاعِيُّ وَسَبَّ قِصَى وَعِيرَهُ، وَقَالَ لَهُ: أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَرْحَلَ عِنَّا أَيُّهَا الْغَرِيبُ؟ أَذْهَبَ إِلَى قَوْمِكَ فَاعْرِفْ مِنْ أَبِيكَ..! فَاتَّزَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَأْتِيرًا شَدِيدًا فِي نَفْسِ قِصَى، فَذَهَبَ مِنْ فُورِهِ إِلَى أُمِّهِ فَسَأَلَهَا: مَنْ أَبِي؟ قَالَتْ: أَبِيكَ رِبِيعَةَ بِنَ حَرَامٍ. قَالَ: لَا، لَيْسَ رِبِيعَةُ أَبِي! قَالَتْ: وَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّ رِبِيعَةَ لَيْسَ أَبِيكَ؟ فَحَكَى لَهَا قِصَى مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَفِيقِهِ الْقِضَاعِيِّ.

فَحَزَنْتَ لِذَلِكَ حَزْنًا شَدِيدًا، وَقَالَتْ لَهُ وَهِيَ تَغَالِبُ دَمُوعَهَا: أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَكْرَمٍ مِنْهُ أَبَا، وَأَعْلَى نَسَبًا، وَأَشْرَفَ مَنَزَلًا! أَبِيكَ كِلَابِ بِنَ مُرَّةَ بِنَ كَعْبِ بِنَ لُؤَيِّ بِنَ غَالِبِ بِنَ فَهْرِ بِنَ مَالِكِ بِنَ النَّضْرِ بِنَ كِنَانَةَ الْقُرَشِيِّ، وَنَسَبُكَ يَنْتَهِي إِلَى

(١) جَلْدًا: صَلْبًا.

إسماعيل بن إبراهيم، وقومك بمكة عند البيت الحرام، وأخوك هنالك زهرة بن كلاب سيد في قومه..! قال قصي: فوالله لا أقيم ها هنا أبداً، ولا أرضي لنفسي أن أكون نزيلاً على غير أهلي!

وخرج قصي مع الحجاج من قضاة يبغى أرض مكة. فلما وصل إليها ذهب إلى أخيه زهرة بن كلاب، وكان قد كبر وذهب بصره؛ فحياه قصي، فرد عليه التحية ثم سأله: من أنت؟ قال قصي: أنا أخوك قصي بن كلاب. فدهش زهرة وقال: إن قصياً هنالك مع أمه، يرعى إبل قضاة في أرض الشام..! فتأثر قصي وغلبته عيناه، فقال وهو مختنق بدموعه: كان ذلك وهو طفل صغير لا يدرك؛ أما الآن فقد عقل وميز وعرف ما كان به جاهلاً، وأدرك ما كان عنه غافلاً!

فابتسم زهرة ابتسامة المرتاب، وقال: إني لأعرف فيك صوت كلاب بن مرة، ولكني أريد أن أتبين؛ أذن مني.. فدنا منه قصي، فجعل يتحسس يديه، ويتلمس مواضع الشعر في صدره ويديه ورجليه. فلما تبينت له سمات النسب^(١) في أخيه، صلح في فرح واغترباط: أنت والله أخى..! أنت قصي

(١) السمات: علامات القرابة.

ابن كلاب..! لقد عرفت فيك الصوت والشبه..! وجعل
يضمه إلى صدره ويقبله.

قصي يجمع أطراف الشرف

وعاش قصي بمكة، وامتاز فيها بمخلقه وعقله ومروءته، فعلا
شأنه بين الرجال، وعظم شرفه، وذاع صيته.. وكان شريف
مكة وسادن البيت في ذلك الحين رجلٌ من خزاعة، يسمى
«حُلَيْل بن حُبَيْشَة»، وكان له ابنة تسمى «حُجَيَّة» فخطبها إليه
قصي، فزوجه إياها.

وعرف حُلَيْلٌ قصي بن كلاب، فأعجب برجولته وخلقه،
وأحبه حبًّا شديدًا، وأنزله من نفسه منزلة ولده. فلما حضر^(١)
حليل، أوصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة إلى قصي بن
كلاب، وبذلك انتقلت السدانة والولاية من قبيلة خزاعة إلى
قبيلة قريش. فمازالت بها حتى بعث الله فيها رسوله محمدًا
بأهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله.

(١) حضر: حضره الموت.

دار الندوة

ولما تولى قصى أمر مكة، جمع فيها ما تفرق من بطون قريش، وقسم لهم فيها منازلهم، فزل بعضهم في بطح مكة^(١) وسهولها، ونزل بعضهم في ظواهرها وأعالها. وبنى إلى جوار البيت داراً واسعة، سماها «دار الندوة»، وجعلها نادياً له ولقومه، يجتمعون بها في مسراتهم وأحزانهم؛ ويتبادلون الرأي في شئونهم وأحوالهم، ويتشاورون في أمور الحرب والسلام، والصلح والخصام، والزواج والطلاق، والسفر والإقامة؛ وقيمون فيها الولائم والحفلات، ويرمون العقود والمعاهدات.. لما كان يحدث من أمر في قريش إلا ودارُ الندوة مكانه، وقصى هو صاحب الرأي والمشورة فيه؛ إذ كانوا جميعاً يُجْلُونه ويحبونه، ويتيمنون^(٢) برأيه في الأمور كلها.

رفادة الحجاج وسقايتهم

ورأى قصى أن حجاج بيت الله يأتون إليه من بلادهم البعيدة، وأقطارهم النائية، بعد سفر طويل مُرهق، كلت فيه

(١) بطح مكة : أراضيها الواسعة.

(٢) يَتِيمُونَ : يتعاملون ويتشاورون.

دوابهم، وضمرت رواحلهم^(١)، وحفيت أقدامهم؛ فلا يصلون إلى البيت إلا شعثاً غُبْرًا^(٢)، أضناهم السفر، وأرهقهم السير، وآذاهم الجوع والعطش؛ ولا سيما الفقراء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون.

فجمع رجال قريش ووجوهها^(٣)، وقال لهم: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وأهل الحرم، قد خصكم الله بذلك وأكرمكم، وإنه يأتيكم في موسم الحج زُوار بيت الله، وحجاج حرمه، يعظمون شعائره، ويقدمون حُرُماته؛ فهم ضيوف الله وزوار بيته؛ وأحق الضيف بالكرامة ضيف الله، فأكرموا ضيوف الله، واجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج، حتى يصُدُّروا عنكم، ويعودوا إلى بلادهم وأهليهم».

فاستجابت قريش إلى نداء قصي، وتعاونوا على رفاة الحاج^(٤) وسقائهم، وفرض أهل كل بيت على أنفسهم قَدْرًا معلومًا من الطعام والشراب؛ الغنى بحسب قدرته، والفقير على قدر طاقته، يدفعونه جميعًا إلى قصي بن كلاب، فيصنع الطعام

(١) ضمرت: تعبت ركائبهم وهزلت من كثرة السير.

(٢) غُبْرًا: معفرين يتراب السفر ومتاعبه.

(٣) وجوهها: رؤساءها.

(٤) الرفاة: إطعام الحاج.

للناس أيام الحج، يُشرد لهم الخبز واللحم^(١)، ويقدم لهم السويق^(٢) والتمر، ويحمل لهم الماء في حياض من الجلد. فلا يزال الحجاج في كرم قريش وضيافتها، حتى تنتهى أيام الحج، ويصدّروا عن مكة عائدين إلى ديارهم.

وهكذا انتهت إلى قصى بن كلاب، كل مظاهر الشرف والرياسة، لا يدخل أحد الكعبة حتى يكون قصى هو الذى يفتحها له، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايته، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامه، ولا تعقد قريش لواء حرب^(٣) إلا بيده، ولا تقطع أمراً من أمورها إلا فى داره. فهو صاحب الحِجَابَةِ والسَّقَايَةِ والرِّقَادَةِ واللِّوَاءِ والندوة، وصاحب الأمر والنهى فى شئون الدين والدنيا بمكة؛ وكان أمره فيهم كالدين المتبع، لا يعملون بغيره فى حياته ولا بعد موته.

(١) يثرد: يقدم لهم الثريد وهو الفت.

(٢) السويق: حب مجروش، ويطبخ أحياناً باللبن وأحياناً بالعسل وأحياناً بالماء. ولعله

هو المسمى عند البدو الآن «بالدشيشة».

(٣) لواء الحرب: قيادتها.

كشـف زمزم

كانت السقاية مهمة شاقة

ظلت سقاية الحاج ورفادتهم في قريش سنةً معروفة وعادة مألوفة، منذ عهد قصي، يتوارثها أولاده وحفدته من بعده جيلاً بعد جيل، حتى وليها عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. وكانت الرقادة شيئاً هيناً سهلاً، إذ كانوا يتعاونون عليها ويتساندون فيها، فيقدم كل بيت ما يستطيع من الطعام.

أما السقاية فكان تدبيرها شيئاً عسيراً جثاً، يقاسى ولاة البيت في أمرها مصاعب ومشاق، نظراً لقلّة الماء في مكة وما حولها؛ فكانوا يطوفون بالعيون والآبار والينابيع، يجمعون منها الماء ويضعونه في حياض من الجلد، ويحملونها معهم إلى حيث يسيرون، حتى تنتهي أيام الحج.

فلما تولى عبد المطلب السقاية، أهمه أمرها همّاً عظيماً، ويات يقضى ليله ونهاره مفكراً في وسيلة سهلة، ييسر بها للحجاج سبيل الماء بلا عنت ولا مشقة، وكان قد سمع فيما سمع من

أقاصيص الرواة عن بئر زمزم، التي بناها جده إسماعيل
ابن إبراهيم، ثم طمسها جُرْهُم وأخفت معالمها، حين نزحت من
أرض الحرم، فتمنى لو قُدِّر له العثور على مكانها، ليكشف
عنها، ويعيدها سقاية للحجاج، كما كانت في عهد جده
إسماعيل، وظل مشغولاً بهذا الأمر ليله ونهاره.

رؤيا عبد المطلب

وفيا هو ذات ليلة يفكر في أمر السقاية وقد غلبه النوم،
رأى كأن هاتفًا في منامه يقول له : يا عبد المطلب، احفر
« طيبة ».. فسأل عبد المطلب : وما طيبة؟ فانصرف عنه الهاتف
ولم يجبه بشيء. فلما كانت الليلة الثانية، أقبل عليه ذلك الهاتف
كما أقبل في الليلة السابقة، وقال له : يا عبد المطلب، احفر
« برة ».. قال عبد المطلب : وما برة؟ فانصرف عنه الهاتف ولم
يجبه بشيء. فلما كانت الليلة الثالثة، عاد إليه الهاتف وقال له :
يا عبد المطلب، احفر « المضمونة ».. قال عبد المطلب :
وما المضمونة؟ فانصرف عنه كذلك ولم يجبه بشيء.

فشغل عبد المطلب شغلاً عظيماً بأمر هذا الهاتف، وجعل
يسأل نفسه عن معنى هذه الكلمات المبهمة، التي تلقى له في
النوم إلقاء، دون أن يفهم لها معنى أو يدرك لها حقيقة. فلما

كانت الليلة الرابعة أوى عبد المطلب إلى فراشه، وهو يخشى أن يزوره هذا الهاتف، فيلقى إليه بلغز جديد؛ فاستعاذ بالله، وتوجه إليه بنفس واجفة أن يكشف له عن سر هذا الهاتف، وأن يبين له حقيقة ما يرمى إليه إن كان هاتف خير، ويحفظه من شره إن كان شيطاناً.

ونام عبد المطلب وقد تحصن بحماية الله الذى لا يضر مع اسمه شيء؛ لما كادت عينه تستغرق فى النوم، حتى أقبل عليه الهاتف يقول: احفر «زمزم».. فتلملم عبد المطلب فى فراشه، وصاح بالهاتف غاضباً: وما زمزم؟ فلم يغضب الهاتف، ولم ينصرف عنه كما كان ينصرف فى كل مرة، بل نظر إليه مبتسماً، وظل يقول فى أناة وهدوء: «لا تنزع ولا تُذم^(١)»، تسقى الحجيج الأعظم؛ وهى بين الفَرث^(٢) والدم، عند نقرة الغراب الأعصم^(٣)...»

فهب عبد المطلب من نومه فرحان مستبشراً، وجعل يتلفت حواليه، كأنما يبحث عن ذلك الهاتف ليستريده من الشرح والإيضاح، فلم يجد غير نفسه، جالساً على سريريه حيث كان،

(١) تنزع: لا تفرغ من الماء الشهى.

(٢) الفَرث: ما يتخلف من كروش الذبائح.

(٣) الأعصم: الذى يكون فى ذراعيه أو فى إحداهما بياض وسائرهما أسود.

ووجد نور الصبح يملأ الحجره، وضوء الشمس يغمر الأفاق من حوله.

حفر زمزم

حينذاك نهض من فراشه عجلان، وانطلق نحو البيت ينظر ما هنالك، فإذا الغراب الأعصم قائم كعادته في مذبح الكعبة، ينش برجليه وينقر بمنقاره، حيث تذبح الأنعام التي تهدي إلى البيت، ويوزع لحمها على الفقراء والمساكين. وكان هذا الغراب يمتاز من غيره من الغربان، ببياض في إحدى رجليه؛ وكان قد ألفه الناس يأتي إلى هذا المكان، فيأكل مما تحلّفه الذبائح من فرث ودم.

فلما رآه عبد المطلب فرح واستبشر، وأيقن أن هذا الهاتف لم يكن شيطاناً، وأن هذه الرؤى لم تكن أضغاث أحلام، وانطلق من فوره إلى داره فأتى بفأس ومِكتل^(١)، واصطحب معه وحيد «الحارث»، وعاد مسرعاً إلى الكعبة، وأخذ يحفر حيث كان الغراب الأعصم ينقر وينش.

وجعل عبد المطلب يحفر بهمة ونشاط، لا يبالي بما يلفحه من وهج الشمس، ولا بما يتصبب على جبينه من العرق؛ بل

(١) المِكتل: ما يملأ بالتراب، وهو المعروف الآن بسهم «الغلق» و«المنطق».

هو ماض فيما قد دُعِيَ إليه، يضرب الفأس بقوة، ويملاً المکتل بالتراب، ثم يناوله ولده الحارث، فيحمله الحارث بين يديه، ويمضى به غير بعيد، ثم يَكْبَهُ ذات اليمين أو ذات الشمال. فلا يكاد الحارث يُفْرِغُ المکتل، حتى يتلقفه منه عبد المطلب فيملأه بالتراب ثم يرفعه إليه، وهو فيما بين ذلك يَرْتَجِزُ ويعنى :

لَاهُمْ^(١) قَدْ لَبَّيْتُ مَنْ دَعَانِ وَجِئْتُ سَعَى الْمَسْرَعِ الْعَجَلَانِ
تَبَّتْ الْيَقِينِ صَادِقِ الْإِيمَانِ يَتَّبَعْنِي الْحَارِثُ غَيْرِ وَاوَانِ^(٢)
جَذْلَانٌ لَمْ يَحْفَلْ بِمَا يُعَانِ^(٣) لَا هَمَّ فَلْتَصَدَّقْ لَنَا الْأَمَانِ
مَالِي بِمَا لَمْ تَرْضَهُ يَدَانِ^(٤)*

والحارث من ورائه يردد أنغامه وأراجيزه، والمکتل بينهما رائج غاد، والفأس صاعدة هابطة، وصوت عبد المطلب الغليظ ينتشر منبسطاً في الفضاء، فيأصاً بالنشاط والغبطة، ومن ورائه صوت ولده الحارث يتبعث لنا سهلاً، كأنه الصدى يأتي من البُعد البعيد.

(١) لاهم : اللهم.

(٢) غير واني : مسرعاً غير مطبوع.

(٣) فرحان لا يبالي بالتعب.

(٤) يعانى : لا أستطيع أن أغضب أو أخالف أمرك.

* على هامش السيرة.

نذر عبد المطلب

واستيقظت قريش على صوت الفأس يرن في الأرض القوية،
وعلى أناشيد عبد المطلب تتردد في الفضاء. فلما رأوه يحفر بين
يدي الكعبة، ثاروا عليه يريدون أن يمنعوه، وكاثروه بأبنائهم
ومواليهم. ولولا أنه سيد قريش، وأن له فيهم سناً ومنزلة، وأن
رجالاً تدخلوا فيما بينه وبينهم، لخالوا بينه وبين ما يريد.

وعز على عبد المطلب أن يكائره هؤلاء بأولادهم، وليس له
إلا ابنه الحارث، فاغرورقت عيناه بالدموع، وتمنى على الله أن
يَبِّ له عشرة من الولد، يقومون حوله ويمنعونه^(١)، ونذر أن
يذبح لله واحداً منهم، إذ هم بلغوا عشرة من العدد.

ورأى رجال قريش ما ألمَّ بعبد المطلب من الحزن، فتركوه
يحفر حيث كان؛ فما زال يحفر ثم يحفر، لا يكِل ولا يمل حتى
مضت ثلاثة أيام.

وكاد عبد المطلب أن يياس، وبدأ يساوره الشك في صدق
ما أنبأه به الهاتف، لولا أنه رفع الفأس ثم ضرب بها ضربة،
فأصابت شيئاً صلباً، فانتعش عبد المطلب، وأخذ يكشف عن

(١) يمنعونه : يحمونه ويدافعون عنه.

ذلك الشيء حتى تبينه، فإذا هو غزالان من ذهب، ودرع وأسياف وآلات حرب؛ فابتهجت نفسه، وعاوده الأمل من جديد، فعاد يحفر وهو أكثر همة ونشاطاً.

وما زال يرفع الفأس ويخفضها، وهو يُنشد ويغنى، حتى ضربت الفأس في حرف البئر الذي بناه إسماعيل.

هنالك كبر عبد المطلب، وصاح في فرح وابتهاج: هذا طوبى إسماعيل..! هذه بئر زمزم..! هذه سقاية الحجاج..! فعرفت قريش أنه أدرك الماء، فأقبلوا إليه مسرعين، يريدون أن يشاركوه في كل ما عثر عليه.

قال عبد المطلب: أما الذهب والسلاح فليس لي ولا لكم؛ إنما هو للكعبة التي أهدى إليها؛ وأما الماء فاجعلوا بيني وبينكم في شأنه حكماً، فإن حكم لكم به فهو ماؤكم، وإن حكم لي فهو مائي الذي دُعيت إلى استنباطه وكشفه، وخصّصت به من دونكم جميعاً.

قالوا: لقد أنصفتنا يا عبد المطلب، فنعم الرأي رأيك!

الاحتكام

وكان من عادة العرب في ذلك الزمان، أن يحتكموا إلى الكهان والعرّافين في شؤونهم المهمة، فاتفقوا على أن يذهبوا

جميعاً إلى «كاهنة بنى سعد»، وكانت تقيم عند حدود الشام؛ وخرجت قريش بعشرين رجلاً من بطونها^(١)، وخرج عبد المطلب بعشرين رجلاً من بنى عبد مناف. فلما قاربوا حدود الشام، نَفِدَ ما كان معهم من الماء، وضلوا في متاهة جرداء مقفرة؛ وكان القيظ شديداً والحر بالغاً، وضوء الشمس يسطع على الصخور فيجعلها كجمرات النار. فاضطُّروا إلى النزول حيث كانوا، وجعلوا يقبلون وجوه الرأى بينهم للخلاص من هذه المهلكة.

قال قائل منهم: يا قوم، إنه الموت لا محالة..! وأنا إذا واصلنا السير فسنهلك واحداً بعد واحد، وتذهب آثارنا بدداً^(٢) بهذه الصحراء. فلنقيم هنا حيث نزلنا، وليحفِرْ كل واحد منا قبره بيديه، فنمات منا دفناه في حفرتة؛ حتى إذا لم يبق منا غير واحد، كان ذهاب واحد بدداً خيراً من ذهابنا جميعاً، ولعل أهلنا أن يعثروا على قبورنا، إذا قَدَّرَ لهم أن يصلوا إلى مكاننا هذا.

فاستحسن القوم هذا الرأى وهموا يريدون أن يحفروا حفائرهم، لولا أن صالح فيهم عبد المطلب: يا قوم، والله

(١) البطون في أيام العرب تشبه العائلات في أيامنا.

(٢) بدداً: تتبعثر في كل ناحية.

ما هذا برأى..! وإنه لعجْزٌ منا أن نستسلم للموت وفينا بقية
من حياة..! إنما الرأى أن نهض من مكاننا هذا، وأن نواصل
السير ما بقيت فينا قوة؛ فلعل الله أن يبدل يأسنا أملاً،
ويشملنا برحمة من عنده، فنجد الماء في مكان آخر..!

ثم ركب ناقته وزجرها فهمت به قائمة؛ لكنها ما كادت
تستوى على قوائمها، حتى رأى عبد المطلب نبعاً ينبثق تحت
أقدامها، ويتفجر منه الماء سائغاً عذباً.

فكبر عبد المطلب، وصاح بالركب: أبشروا يا قوم فقد
سقانا الله..! فاندفع القوم إلى الماء يستقون، ويسقون جهلمهم
وركائبهم، وأحاطوا بعبد المطلب يتمسحون به ويباركونه،
ويقولون: قد - والله - حكم الله بيننا وبينك يا عبد المطلب!
إنكم يا آل عبد مناف لتحملون أنفساً زكية، وقلوباً طاهرة؛
وإنك يا عبد المطلب لأزكاهم نفساً، وأطهرهم قلباً، وأقربهم إلى
الخير، وأبعدهم عن الشر! وليس على الله من حرج أن يحوطك
بكرامته حيثما كنت!

ثم لوى القوم أعناق رواحلهم إلى مكة^(١) وهم يصيحون
بعبد المطلب: هيا إلى مكة يا سيد قریش؛ إن الذى سقاك

(١) لوى: وجهوها إلى مكة.

بهذه الفلاة^(١)، هو الذى سقاك زمزم؛ فوالله لا نخاصمك فيها
أبدًا.. وانقلبوا جميعًا عائدِينَ إلى ديارهم.

ومنذ ذلك اليوم، صارت زمزم حَقًّا خالصًا لآل
عبد المطلب، يسقون منها الحجيج ماء غَدَقًا^(٢).

(١) الفلاة: الصحراء.

(٢) غَدَقًا: كثيرًا.

فداء عبد الله

الوفاء بالندر

تحققت أمنية عبد المطلب بن هاشم، وبلغ بنوه عشرة رجال، فأيقن أنه قد آن له أن يفي بندره لله، ما دام الله قد أجاب دعائه وحقق رجاءه. فجمع أولاده حوله، وقال لهم: إني تمنيت على الله ذات يوم، أن يمنحني عشرة من الولد، يحمي بهم كظھري، ويشدّ بهم أزرى، ونذرت إن هو منحني هؤلاء العشرة، أن أذبح له واحدًا منهم، تقرّبًا إليه وشكرًا له على فضله. وها أنتم أولاء عشرة من أبنائي، تحوطونني من جميع نواحي، وتعلمون نفسي فخرًا، وتزيدون في اسمي ذكرًا. فهل آن لي أن أفي بندري لله الذي أقرّ بكم عيني؟ فقالوا جميعًا: نعم..! وقدم كل واحد نفسه ليكون هو القربان.

فاغتبط عبد المطلب أيمًا اغتباط، حين رأى أولاده يتسابقون إلى التضحية بأنفسهم في سبيل مرضاته، وألقى عليهم جميعًا نظرة

شاكراً، وقام من فوره فاصطحبهم إلى سادن الكعبة، ليُقرع بينهم بقِداحه^(١).

استنباء القداح

وكان من عادة العرب كلما هموا بأمر عظيم، أن يلجأوا إلى القِداح يستنبئونها قبل أن يُقدموا عليه، فما أشارت بفعله فعلوه، وما أشارت بتركه تركوه. وهى شىء أشبه بالقرعة التى نلجأ إليها فى أيامنا هذه. وكان لهذه القداح فى حياتهم أثر بالغ، إذ كانوا يؤمنون بها إيماناً شديداً، ويعتقدون أنها تعبر عما تريد آلهتهم. وكان العرب قد اتخذوا لهم أصناماً آلهة، يعبدونها من دون الله، وشاعت عبادتها بينهم، حتى كان لكل قبيلة صنم خاص بها، تقدّم له القرابين، وتذبح له الذبائح، وتستشيره فى كل شأن من شئونها.

فلما ذهب عبد المطلب إلى الكعبة، طلب إلى سادنها أن يدير القداح بين أبنائه العشرة، فأُيم خرج القِلح باسمه فهو الذبيح. فتقدم صاحب القداح فكتب أسماء البنين العشرة، ثم ضرب القداح، فخرج قِلح عبد الله.

(١) القداح: جمع (قِلح)، وهى عصى قصيرة مصقولة، بعضها مكتوب عليه وبعضها

غُفْل بلا كتابة.

مكانة عبد الله

وكان عبد الله أحب أبناء أبيه إليه، وآثرهم عنده، وكان له بين أهل مكة مَعَزَةٌ ومكانة؛ إذ كان يسمو على شبابها بمخلق هادئ، وعقل رزين، ولسان عذب الحديث، ووجه دائم البشاشة؛ وكان فوق ذلك عفاً نقيًا، بعيدًا عن كل ما يشين الشباب من نَزَقٍ^(١) وجهالة.

من أجل ذلك كان وقوع القداح عليه خطبًا جسيماً، أثار أهل مكة جميعًا على عبد المطلب؛ فتقدم إليه شيوخها وشبابها، ورجالها ونساؤها، يحاولون أن يثنوه عن رأيه في ذبح عبد الله؛ فباب عبد المطلب إلا أن يُوَفَى بنذره كما اختارت له الألهة.

وتقدم عبد المطلب إلى عبد الله يقوده إلى المذبح، وتقدم عبد الله إلى أبيه شجاعًا باسم الشجر؛ فأحاطت به نساء قريش، وتعلقت به أخت له تحول بينه وبين أبيه، وأخذت تستصرخ القوم ليمنعوا أخاها من الموت. وكان صراخها مؤثرًا وبكاؤها مثيرًا؛ فتقدم رجال من قريش يقولون: يا عبد المطلب، إنك بهذا تريد أن تَسَنَّ فينا سنة سيئة...! لقد علمت يا عبد المطلب

(١) النزق: الطيش.

أنك شيخنا ورئيسنا، فلو مضيت تذبح ولدك اليوم، فإنه سيتبعك رجال من قومك فيذبجون أبناءهم، تأسياً بك واقتداء بسنتك؛ فنصبح وقد غدا الذبح في أبنائنا سنة متبعة..! فبالله عليك يا عبد المطلب إلا عدلت عن هذا الرأي، فإن فيه فناءنا وذهاب قوتنا. فإن كان لابد لك من الوفاء بنذرك، فلنحتكم نحن وأنت إلى عرّافة يثرب؛ فما حكمت به فهو الحكم بيننا وبينك..!

فلان عبد المطلب أمام هذا القول، وأرجأ ذبح عبد الله حتى تحكم العرّافة بينه وبين رجال قومه؛ وغدا الجميع ممتطين^(١) رواحلهم، يُغْدون^(٢) السَّير في طريقهم إلى يثرب.

حكم العرّافة

فلما وصلوا إلى هنالك، عرضوا قضيتهم على العرّافة، فقالت لهم: أنظروني^(٣) ثلاثة أيام حتى أتبين وجه الصواب في قضيتكم. فلما كان بعد الثلاثة الأيام ذهبوا إليها، فقالت لهم: كم الدية^(٤) فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فائتوا بعشر

(١) ممتطين: راكبين.

(٢) يغدون: يسرعون.

(٣) أنظروني: امهلوني.

(٤) الدية: ما يدفع عوضاً عن القتيل.

من الإبل فقربوها، وقربوا صاحبكم، ثم اضربوا عليها وعليه القداح؛ فإن خرجت القداح عليها فاذبحوها، وإلا فزيدوا الإبل عشرًا، ثم اضربوا القداح عليها وعلى صاحبكم؛ فإن خرجت عليها فاذبحوها، وإلا فزيدوا الإبل عشرًا؛ وهكذا لا تزالون تزيدونها عشرًا بعد عشر، حتى تقع القداح على الإبل، فتي وقعت على الإبل، فاعلموا أن ريكم قد رضى بها فداء لصاحبكم.. فرجع القوم وقد رضيت نفوسهم بهذا الحكم، واطمأنت له قلوبهم.

فلما رجعوا إلى مكة جاءوا بعشر من الإبل، فضربوا عليها وعلى عبد الله بالقداح، فخرجت القداح على عبد الله؛ فزادوا الإبل عشرًا، ثم ضربوا القداح فخرجت على عبد الله، فزادوا الإبل عشرًا.. ثم ما زالوا يضربون بالقداح ويزيدون عشرًا بعد عشر، حتى بلغت الإبل مائة؛ ثم ضُربت القداح فخرجت على الإبل. فصاح القوم في ابتهاج: ها قد رضى ريك يا عبد المطلب!

ولكن عبد المطلب - فيما يقولون - أبى أن يطمئن حتى تضرب القداح ثلاث مرات؛ فضربت القداح ثلاثًا فخرجت على الإبل. فاطمأن عبد المطلب وأمر بالإبل فتُحرت جميعها، وتُركت طعامًا لأهل مكة، لا يُصدُّ عنها إنسان ولا حيوان ولا طير.

وكان فداء عبد الله عيدًا لأهل مكة، قَضَوْا فيه أيامًا حافلة بالطعام، مليئة بالسرور والبهجة، وكان عيدًا سابقًا شاملًا، نَعِم فيه كل حى بمكة حتى الطيرُ والحيوان والوحش.

وأراد عبد المطلب أن يستكمل بهجة هذا العيد بهاءه، فذهب من قَوْرِهِ إلى سيد بنى زُهْرَةَ، وَهَبَ بن عبد مناف، فخطب إليه ابنته «أمّنة» على ولده عبد الله.

رحلة القافلة

الصهر الكريم

كان بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وبيت وهب بن عبد مناف بن زُهرة، من أعلى البيوت في قريش، إذ كان عبد المطلب بن هاشم سيد بنى هاشم، وكان وهب ابن عبد مناف سيد بنى زهرة؛ وكان كلا البيتين مَوْسُوماً بالشرف والكرامة، والطهر والعفاف، ورعاية الدين والفضيلة. فكان زواج عبد الله بن عبد المطلب، من آمنة بنت وهب، زواجاً موفقاً ميموناً، اتَّخَذَ فِيهِ عِنَصْرٌ طَيْبٌ بِعِنَصْرِ طَيْبٍ، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم، وأصنهر بيت عريق في شرف الآباء وطهر الأمهات، إلى بيت يكافئه في الشرف والطهارة؛ فكان من الطبيعي أن تكون ثمرة هذا الصهر ثمرة طيبة مباركة، وأن يكون نسل هذا الزواج نسلًا طاهرًا كريمًا: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾^(١).

(١) سورة الأعراف الآية ٥٨.

كان كلا الزوجين سعيدًا بصاحبه، يبادلُه عواطف الحب والتقدير، وينظر إلى الحياة معه نظرة فياضة بالسعادة، ملؤها الأمل الحلو، والرجاء الباسم، والتطلع إلى المستقبل البعيد في طمأنينة وثقة. ولكن الله الذي يدبر شؤون الخلق على مقتضى حكمته، لم يشأ لهذين الزوجين أن يندفعا مع الآمال إلى بعيد، فقدر عليهما أن يفترقا إلى الأبد، وهما لا يزالان في ثياب العُرس.

رحلة الشتاء والصيف

وكان لقريش رحلتان للتجارة: رحلة في الشتاء إلى بلاد اليمن وما وراءها، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام وما يجاورها. وكانت القوافل في كلتا الرحلتين تقوم من مكة، محملةً بمنتجاتها من الصوف والشعر والوبر والجلود، وتعود محملة بمنتجات الشام والعراق ومصر واليمن وبلاد الحبش. وكان عبد المطلب يجب أن يأخذ أبناءه بالمران على أساليب التجارة، فكان يرسلهم واحدًا بعد واحد، في رحلة الشتاء والصيف. فلما كانت هذه الرحلة، وقع اختياره فيها على ابنه عبد الله.

كانت الرحلة في هذه المرة قاصدة إلى بلاد الشام، وكان الوقت صيفًا، والحر شديدًا، والسفر مُضنيًا؛ وكانت ظروف عبد

الله كلها تدعو إلى الإقامة، ولكن عبد الله لم يشأ أن يخالف أمر أبيه، واندفع مع القافلة في الصحراء المترامية الأطراف، متعرضاً لأخطارها ومشقاتها، وترك وراءه عروسه الحبيبة، تقاسى مرارة الفراق العاجل، والوحشة المباغثة، والوحدة التي جاءت مبكرة على غير انتظار.

وانطلقت القافلة في طريقها إلى الشام، تقطع الفيافي البعيدة، وتخوض الرمال الواسعة، وتصطلي وُقْدَةَ الشمس التي تُذيب الرءوس، وحرارة العطش التي تفتت الأكباد، وتعانى من قسوة الصحراء ما تعانى، حتى وصلت إلى أسواق الشام؛ فباع ما شاء الله لها أن تبيع، واشترت ما شاء الله لها أن تشتري، ثم قفلت راجعة من حيث جاءت، حتى وصلت في طريقها إلى مدينة «يَثْرِب».

وكان عبد الله قد مرض في أثناء الطريق، وأنهك قواه طولُ السير في الصحراء، فأوى إلى أخوال أبيه في المدينة، ليستجِمَ ويستريح، ويقم عندهم أياماً حتى يُبَلَّ من مرضه. أما القافلة فقد تركت رفيقها عبد الله عند أخواله، وواصلت سيرها إلى مكة، لتصل إليها في الموعد المعتاد.

عودة القافلة

وكان أهل مكة يحتفلون برجوع القافلة أيما احتفال؛ فتخرج جموع الشبان لترافق القافلة من بعيد، ويجتمع الكهول والشيخوخة في دار الندوة، يتنسمون الأخبار ليطمئنوا على أموالهم ومتاجرهم، وتستعد النساء في البيوت لاستقبال العائدين من الأبناء والأزواج والإخوة؛ ويصعد الأطفال على شرفات المنازل ورءوس الجبال، يتطلعون إلى العير المحملة بمجديد الثياب، ولذيذ الطعام والشراب، وهم يُمننون أنفسهم بيوم حافل بالمتعة واللذائذ؛ وتتهيا النفوس والقلوب للقاء الأحبة، بعد طول الفراق وكثرة الأشواق.

وكان آل عبد المطلب قد تهيئوا لهذا الأمر، كما تهيأ له غيرهم من الناس، فجلس عبد المطلب في دار الندوة مع الجالسين من رجال قريش، وخرج أبناؤه يستقبلون القافلة مع الخارجين من شباب مكة، وتسابق الأطفال إلى الشرفات العالية يتطلعون في فرح ونشوة، وجلست آمنة بنت وهب تنظر وتتشوّف، وقد أعدت بيتها وهيأت نفسها للقاء الحبيب الغائب. ودخلت القافلة مكة، يحيط بها جمع حاشد من الشباب، وهلل الأطفال وزغردت النساء، واندفع كل حبيب إلى حبيبه

يعانقه ويقبله، وأخذ عبد المطلب يدور بعينيه في القادمين يحاول أن يرى ولده عبد الله فلا يراه... أين عبد الله يا قوم..؟ قال قائلهم: لقد مرض عبد الله في الطريق، وتخلف عند أخواله في يثرب، ليستريح عندهم أياماً ثم يعود.

أين عبد الله؟

وفوجئ عبد المطلب بما لم يكن يتوقع، ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه، وأمر ولده الحارث بأن يذهب على الفور إلى يثرب، ليحمل إليه أخاه عبد الله! فما لبث الحارث أن أعد راحلته، وانطلق بها إلى يثرب مسرعاً... لكنه لم يكد يصل إلى هناك، حتى استقبله الناعمي على بابها، ينعى إليه أخاه عبد الله!

وعلم الحارث أن عبد الله قد مات، ودفن هنالك عند أخواله، فعاد إلى مكة كاسف البال مكلوم الفؤاد، فالتقى إلى أبيه بالنبا المشتوم؛ فاضطرب عبد المطلب له اضطراباً شديداً، وتحير كيف يُلقي هذا النبا الفاجع إلى آمنة بنت وهب. وأطرق برأسه إلى الأرض، ومكث برهة يفكر... ولكن، ماذا..؟ أليس كلنا ميّتين؟ إذن فلا بد مما ليس منه بد..!

موقف عصب

وقام الشيخ متحاملاً على نفسه، يمشى الهويناً في وُجوم
واكتئاب، ورجال قريش يحيطون به؛ حتى إذا وصل إلى بيت
آمنة، أخذ يتكلف الابتسام، ويتظاهر بالبشر، ثم وقف أمامها
حيران لا يدري كيف يبدأ ولا كيف ينتهي... ونظرت آمنة إلى
وجه الشيخ فأدركت كل شيء، وأرادت أن تنقذه من حيرته،
فتقدمت نحوه وهي تقول: أطال الله عمرك يا أبي...! فيك
العوض وفيك الرجاء كله...! ثم ارتمت في حضنه باكية.
فجعل الشيخ يضمها إلى صدره في حنان بالغ، ودموعه تنهل
من عينيه فياضة غالباً.

وأحسَّ عبد المطلب أن الحزن قد غلبه على أمره، وخرج به
عن وقاره، فانفلت مسرعاً إلى الكعبة، يشكو إلى الله بثُّه
وحزنه، وترك آمنة غريقة في دموعها وأشجانها، وحولها نساء
بني هاشم، يحاولن تعزيتها وتخفيف لوعتها.

مولد الرسول ﷺ

أحلام آمنة

لم يَسْتَبِدِّ الحزن بآمنة بنت وهب. ولم يُجِئ طويلاً على صدرها؛ فسرعان ما جلت عنها غَشِيَةُ الحزن التي أَلَّتْ بها، وأحست برُوح من السكينة يغشاها، فيملاً قلبها بالطمأنينة والرضا لما جرى به القضاء. وأخذت نفسها تتفتح للحياة من جديد، وعاودها المرح والنشاط كما لو لم يكن قد حدث شيء. بل إنها كانت تُحس بفيض غامر من السعادة يفيض عليها، فيجعل الدنيا أمامها أكثر بهجة مما كانت. وهذا ما كانت تعجب له أشد العجب، وتدافعه أشد المدافعة فلا تستطيع.

وأعجب ما كانت تعجب له آمنة، أن الهواتف كانت تتوارد على نفسها بأنها ليست وحيدة، وأن موت عبد الله لم يكن شراً يراد بها، وأن الغد القريب ينتظرها بخير كثير. وكانت إذا أوت إلى فراشها من الليل سبحت في جو من الأحلام السعيدة، وتراءت لها في النوم ألوان شتى من النور البهي، ترسم أمامها

أبدع المناظر؛ وأحاطت بها أطراف باسمه من الولدان والحوور،
تتغنى بأحسن الأغاني، وتُنشد أعذب الألحان؛ حتى إذا طلع
النهار واستيقظت أحست بفيض من النشاط والآنس يغمرها إلى
الليل.. فهي دائماً أبداً في غمرة من النشوة والرضا، لا تعرف
لها مصدرًا، ولا تدرى لها سببًا.

وفي إحدى الليالي أوت آمنة إلى فراشها كعادتها؛ فرأت
كأن طيفًا لطيفًا يدنو منها، ثم يهتف بها في همس: لقد حملتِ
يا آمنة، وعما قريب تكونين أمًا..!

بين الشك واليقين

وانتظرت آمنة أن تُحس ما تحسه الحوامل من أسباب
الضعف والوهن، ولكنها لم تجد في نفسها ضعفًا ولا وهنًا.
ومرت الأيام تَلَوَّ الأيام وآمنة تترقب أعراض هذا الحمل
فلا تجدها.. لقد كانت تغدو في كل يوم وهي أكثر نشاطًا منها
في اليوم الذي قبله، حتى لقد أنكرت ما أنبأها به الهاتف،
وظنت أنها أضغاث أحلام.

ولكن ذلك الهاتف كان حريصًا على ألا يترك للشك مجالًا
إلى نفسها، إذ كان يعاودها من حين إلى حين، فيلقى إليها في
كل مرة نبأ جديدًا.. فقد أنبأها ذات ليلة بأنها حملت بسيد

هذه الأمة، ومرة أنبأها بأنها ستكون أمًا لخير أهل الأرض،
ومرة أخرى أمرها بأن تسميه «عمدًا»...!

وغدت آمنة في حيرة، أتصدق ذلك أم تكذبه؟... من
أجل ذلك كانت تلجأ إلى الأذنين من صواحبها وذوات قرباها،
فتقضى إليهن ببعض أخبارها، وتستأنس بأرائهن في الحمل
وما يجذب من أعراضه وأحواله؛ وتنظر في حالها منه فيغلب
عليها الشك، ثم تذكر الهواتف والرؤى وما تراه في أحلامها من
البشائر والآيات، فيغلب عليها اليقين.

وما زالت كذلك بين الشك واليقين، حتى أحست بشائر
الحمل واستبان حقيقته. هنالك صدقت أن هذه الهواتف لم
تكن إلا هواتف صدق، وأن تحملها هذا لا بد أن يكون له
شأن؛ فكتمت أمرها عن صواحبها، وخافت على جنينها أن
تصيه عين حاسد.

نور يضيء المشرق والمغرب

وفي إحدى الليالي رأت فيما يرى النائم، كأن نورًا قد خرج
منها فأضاء ما بين المشرق والمغرب، حتى رأت على ضوئه قصور
«بُصرى» من أرض الشام.. وما زالت آمنة تتوالى عليها البشائر
والآيات، حتى أتمت شهور الحمل، وولدت رسول الله، صلى

الله عليه وسلم. وكان ذلك في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والعاشر من أغسطس سنة ٥٧٠، وهو العام الذي حدثت فيه حادثة الفيل: إذ جاء أبرهة وأصحابه ليلتموا الكعبة، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميمهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.

* * *

وَتُحَدِّثُ آمَنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ عَنْ نَفْسِهَا فَتَقُولُ: «لَقَدْ عَلِقْتُ بِهِ^(١) فَمَا وَجَدْتُ لَهُ مَشَقَّةَ حَتَّى وَضَعْتَهُ؛ فَلَمَّا فَصَلَ مِنِّي^(٢) خَرَجَ مَعَهُ نُورٌ أَضَاءَ لَهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ ثُمَّ وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ مَعْتَمِدًا عَلَى يَدَيْهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ».

وتقول زوجة أبي العاصي ممن حضرن ولادة أمينة: «لقد شهدت ولادة أمينة بنت وهب، ليلة ولدت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فما شيء أنظره في البيت إلا نور. ولقد رأيت النجوم تدنو ثم تدنو، حتى لقد خشيت أن يَقَعَنَّ عَلَيَّ».

ويحدث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن نفسه فيقول: «من كرامتي على الله أني وُلِدْتُ نَحْتُونًَا، وَلَمْ يَرِ سَوَاءٌ أَحَدٌ».

(١) علقت به: حملته.

(٢) فصل مني: ولد.

فرحة عبد المطلب

وأرسلت آمنة جاريتها إلى عبد المطلب، تخبره بأن قد ولد له غلام؛ فجاء مسرعًا ينظر.. فلما جاء حدثته آمنة بما كانت ترى منذ حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه. ففرح به عبد المطلب فرحًا شديدًا، ونظر إليه فأعجبه، ونزل من نفسه منزلة عظيمة؛ فجعل يقول: «لِيَكُونَنَّ لابني هذا شأن..!» ثم حمله بين يديه، وانطلق به إلى الكعبة، فقام يدعو ويشكر الله، عز وجل، ويقول:

«الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيبَ الأرداني»^(١)
أعيذه بالبيت ذي الأركان حتى أراه بالغَ البنيان»^(٢)

فلما كان اليوم السابع، وهو يوم العقيقة عند العرب، ذبح جَزُورًا^(٣) وأطعم المساكين والفقراء، ودعا رجالا من قريش فحضرُوا وطعموا، وهنَّأوا بالطفل السعيد، وتمنَّوا له رفعة الشأن وبركة العمر؛ فلما أكلوا قالوا: «يا عبد المطلب، أرايت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه»، ما سمَّيته؟ قال: سمَّيته

(١) الأردن: الثياب، وطهارة الأردن كناية عن البراءة من العيوب.

(٢) بالغ البنيان: مكمل الرجولة.

(٣) الجزور: الجمل أو الناقة.

«محمدًا». قالوا: فما رَغِبْتَ به عن أسماء أهل بيته؟ قال:
أردت أن يحمدَه الله في السماء، وأن يحمدَه خلقه في الأرض.

* * *

وكان أولَ من أرضع رسول الله نُؤَيَّبَةُ، جاريةُ عمه أبي
لهب؛ ومع أنها لم تُرضعه سوى أيام فقد ظل يحفظ لها هذا
الجميل، وما زال يكرمها ويُبْرِها حتى ماتت وهو بالمدينة، فلما
ماتت سأل عن ابنها مسروح - وكان أخًا له في الرضاعة -
ليصله مكانها، فعلم أنه مات قبلها.

الرَّضَاع

مراضع البادية

كان من عادة الأشراف من أهل مكة، أن يعيشوا بأطفالهم إلى البادية، يقضون فيها مدة الرضاع في حضانة المراضع من نساء البدو، بعيدين عن جو المدينة وهوائها الوَخمِ الثقيل؛ إذ كانوا يعتقدون أن جو البادية أصح، وأنقى وأحسن أثرًا في نمو الأطفال وزكائهم^(١).

وكانت المراضع من نساء البادية يأتين إلى مكة من آن إلى آن، يلتمسن الرُّضْع من الأطفال؛ وكانت الأمهات من نساء السادة يُلقين بأولادهن إلى هؤلاء المراضع، ويُقدِّن عليهن من الأجر والبر، بمقدار ما طُبعت عليه نفوسهن ونفوس أزواجهن من الكرم والسباحة.

وكانت المراضع يبيحن أول ما يبيحن عن ذوى الأبناء من أبناء الأغنياء والسادة، طمعًا فيما ينالهن من بر الأباء ونفحاتهم؛

(١) الزكاء : همو.

أما يتامى الأطفال - ولا سيما الفقراء منهم - فلم يكونوا في موضع الرغبة من هؤلاء المراضع.

وكان رسول الله ﷺ قد ولد يتيمًا، ليس له إلا جده عبد المطلب وأمة آمنة، فلم تكن حاله تلك مما يُغري به المراضع من نساء البادية. وكان قد وفد على مكة ركب من المراضع، من بادية بنى سعد بن بكر بن هَوازِن، يلتمسن الرضعاء من أطفال الأشراف والسادة من قريش، فعرضت عليهن آمنة رضيعها فكلهن زَهْدُن فيه، لأنه يتيم ليس له أب يطمئن في بَرّه.

حليمة

وكان من بينهن امرأة تسمى «حليمة بنت الحارث»، وكانت قد قَدِمَت مع زوجها وطفل لها رضيع، في حال تدل على شدة الفقر والجذب في بادية بنى سعد.. كانت حليمة بادية الضعف والهزال، وكان زوجها ظاهر البؤس والفاقة، وكان طفلها لا يكف عن الصراخ لحظة، من شدة ما به من الجوع. وكانت قد قَدِمَت على أتان لها قَمَراء^(١) مهزولة، لا تكاد تحملها قوائمها من الضعف؛ حتى لقد كانت حليمة وأتانها موضع

(١) أتان لمرأ: حمارة بيضاء.

السخرية من زميلاتها في الركب، لشدة ما كانت عليه من التعثر والرثيث^(١) في أثناء غُدُوهم إلى مكة. وكان زوجها قد قدم معها على ناقة ضامرة مُسنة، لا يَبِضُ ضرعها بقطرة من اللبن^(٢).

فلما حط الركب رحاله في أرض مكة، ذهبت حليلة كما ذهب غيرها إلى آمنة. فلما علمت بأن طفلها يتيم لا أب له ولا مال، زهدت فيه كما زهدت صواحبها، وقالت كما قلن: وما عسى أن يصنع لنا جده وأمه؟

وحصلت كل مُرضع منهن على رضيع لها من أبناء السادة؛ إلا حليلة، فإنها رجعت من دونهن بغير طفل.. قال لها زوجها: ما بالك يا حليلة قد عدت من دون صاحباتك صِفْرَ اليدين؟ قالت: لقد كان حظي اليوم نَكِيدًا؛ فما وجدت من الرضعاء سوى طفل يتيم قد مات أبوه، وليس له إلا جده وأمه، فزهدت فيه كما زهدت صواحي، وقلت: وما عسى أن يصنع لنا جده وأمه، وحالنا كما تعلم في هذه السنة الشديدة؟ لكنني والله مازلت مشفقة على هذا اليتيم مُدُّ رأيتنه، وما زالت نفسي تراودني أن أعود إليه فأخذه، حَدْبًا عليه وتعلقًا به، لا رغبة فيما يعود علينا بسببه من بر..!

(١) الرثيث: البطء.

(٢) ناقة مهزولة عجوز، جفت أئداؤها من اللبن.

قال لها زوجها: وما علينا إذا نحن أخذنا هذا اليتيم يا حليلة؟ فلأن ترجعي ومعك هذا اليتيم، خير من أن ترجعي دون صواحبك فارغة اليدين. قالت حليلة: إني والله به لعالقة^(١)، ولكنك تعلم شدة ما بنا من حاجة إلى المعونة والبر! قال زوجها: اذهبي إليه فخذيه، فلعل الله أن يجعل لنا فيه بركة..!

النسمة المباركة

فذهبت حليلة إلى آمنة فأخذته منها. فما هو إلا أن وضعت في حجرها وضمته إلى صدرها، حتى حَفَل ثديها وأقبلا عليه بما شاء من لبن، فوضع حتى شبع؛ ثم أخذت وليدها الآخر فوضعت على ثديها، فوضع كذلك حتى شبع. وهكذا رضع الطفلان حتى امتلأا شَبَعًا وِرْيًا، وكانت حليلة من قبل لا تجد في ثديها ما تسد به رمق وليدها المسكين.

وجلست حليلة تحكي لزوجها ما رأت، وهو يعجب لما تحدّثه به ويقول: لعل الله قد عطف على رضيعك يا حليلة، فاطعمه ببركة هذا اليتيم الذي عطف عليه..!

وكان الجوع قد اشتد به وبزوجته، وأرهقها العطش وشدة

(١) تعني أنها شديدة التعلق به والرغبة فيه.

الحر؛ فقام إلى ناقته يعتمر منها رشفة لبن يتبّلغان بها، فما راعه إلا ضرع الناقة حافلاً ممتلئاً؛ فما هو إلا أن يمسه بيده حتى يذُر منه اللبن ذراً غزيراً، فيشرب وتشرب زوجه حليلة، حتى يكاد الرّئى يخرج من أظفارهما.

هنالك صالح الزوجان فرحاً واغتراباً: لقد - والله - حصلنا على نسمة مباركة..! وأقبلا على الطفل يُشبعانه ضمّاً وتقبيلاً.

وقامت حليلة إلى أتانها فركبتها، وقام زوجها إلى ناقته فركبها، واندفعا في الطريق ليلحقا بالركب، وكان الركب قد خلفها وأمعن في السير إمعاناً شديداً. وكان عجباً من العجب أن هذه الأتان الهزيلة، التي كانت لا تكاد تحطو حتى تعثر، ولا تكاد تنهض حتى تقع، قد انطلقت الآن في طريقها كالسهم؛ فهي تطوى الأرض طياً، وتنهبها نهباً، ومن ورائها الناقة العجفاء^(١) تلاحقها ملاحقة شديدة، وتسوقها سوقاً عنيفاً.

فما هي إلا برهة يسيرة، حتى أدركت حليلة صواحبها في الركب، وزاحمتن بأتانها العرجاء حتى خلفتني وراءها، وهن يتضاحكن منها ويقلن لها: ارفق بنا يا ابنة أبي ذؤيب! أهذه أتانك العرجاء التي كنت تركيبينها في الغدو؟.. فتضحك حليلة

(١) العجفاء: الهزيلة.

وتقول: إنها والله هي..! فيقلن متعجبات: لا والله، إن لها
لشأنًا..!

بركة في كل شيء

وتقبل حليلة إلى بادية بنى سعد، وترى من بركة هذا اليتيم
ما لم يكن يخطر لها ببال: خير يدرّ عليها من كل ناحية،
وبركات تحلّ عندها في كل شيء.. هذه أغنامها تخرج إلى
المراعى المجذبة مع أغنام غيرها من الحى فتعود غنمها حافلات
الضروع ممتلئات البطون، وتعود أغنام سواها جياغًا ضامرات؛
حتى ليظن الناس أن غم حليلة ترعى في المكان الخصب، وأن
أغنامهم ترعى في المكان الجذب؛ فيعودون على رعيانهم باللوم
والتقريع، يقولون: لم لا ترعون حيث ترعى غم بنت أبي
ذؤب؟ فيقسم الرعيان أنهم لا يرعون إلا حيث ترعى غنميات
حليلة.

وهكذا ظلت حليلة عامين كاملين، وهى في كل يوم ترى
عجبا من بركة هذا اليتيم، حتى أتمت مدة رضاعه، وأصبحت
ولا بد لها أن تعود به إلى أمه. فجاءت به إليها وهى أشد
ما تكون رغبة في بقاءه معها.

فلما رآته آمنة سرّت به سرورًا عظيمًا، واغتبطت أيما اغتباط

حين رآته غلامًا جَفْرًا^(١) قد زكا وثما، حتى لكأنه ابن أربع وهو لم يجاوز الستين بعد. فبَرَّتْ حلِمة وأرضتها، وشكرت لها ما رأت من عنايتها وإخلاصها.

قالت حلِمة: لقد - والله - شَبَّ غلامك شابًا ما يَشِبُّه الغلمان، وإن لأخشى عليه وباء مكة؛ فهلا أذنت لنا أن نعود به مرة أخرى إلى البادية، حيث الهواء الصحو، والجو المنطلق، والفضاء الرحيب، حتى يتم تمامه ويشتد عُوده؟ قالت آمنة: لا عليك أن تفعل يا ظئر^(٢)، فهو طفلي وطفلك حيث كان.. فشكرت لها حلِمة، وعادت به إلى البادية، وهي لا تملك نفسها من الفرح والاعتباط.

(١) جَفْرًا: ناميًا رابيًا.

(٢) الظئر: المروض. ومعنى العبارة أنها موافقة على أن تعود به حلِمة إلى البادية.

البادية

العودة إلى البادية

رجعت حليلة برضيعها سعيدة مسرورة، ورجع رضيعها كذلك سعيداً مسروراً بعودته إلى البادية، فقد ألفت عيناه فضاءها الرحب، الذي لا تحده حدود ولا تقيدته قيود، وألفت نفسه حياة البساطة، التي تلائم طبيعة الأطفال بما فيها من حرية وانطلاق. فما كادت ظئرته حليلة تصل به إلى البادية، حتى انطلق فيها بملء حرته، يندرج مع الأطفال حيث يدرجون، ويمرح حيث يمرحون، على رمالها السهلة، وبطاحها الواسعة، وأرضها المنبسطة.

وأزحت له ظئرته العنان كما ترخيه لأولادها، فكان يخرج معهم إلى المراعى حيث ترعى الأغنام، وأخته «الشيء» تحضنه⁽¹⁾ وتراعيه؛ فتحمله أحياناً إذا اشتد الحر وطال الطريق، وترسله أحياناً فيدرج وراء الخراف والنعاج يحوشها بعصاه، وقدماه

(1) تحضنه: من الحضنة وهي رعاية الطفل والقيام بشئونه.

الصغيرتان تفوصان في الرمال السهلة الكثيفة، فيكبو فوقها ثم ينهض، ثم يكبو ثم ينهض.. حتى تدركه أخته الشياء، فتأخذه بين ذراعيها، وتضمه إلى صدرها، وتطبع على خديه قبل الخنجان الخالص، ثم تعود به إلى الظل، حيث يجلس الرعيان الصغار، في فيء^(١) شجرة من الأشجار القليلة، أو تل من التلال العالية، أو صخرة من الصخور البارزة، هارين من حرارة الشمس القاسية ووطأتها الشديدة.

رعيان الغنم

هنالك يجلسون جميعًا، غارقين في صنوف شتى من اللهو؛ يعملون أكوامًا من الرمال، أو يقيمون بيوتًا من الحجارة، أو يقومون بتمثيل بعض مظاهر الحياة في البادية، في بساطة لذيدة، وسذاجة بريئة، فلا يزالون كذلك حتى يُجسّوا ألم الجوع، فيصيحوا بإخوتهم وأخواتهم ليسعفوهم بالطعام. فرعان ما يُقبل الرعيان الكبار إليهم، يحملون الطعام في مناديلهم، فيفرشونها على الأرض، ويسطون عليها الطعام، ويستدير الجميع حولها حلقًا؛ ثم يقبلون على طعامهم هذا الخشن، فيلتهمونه التهامًا، في شهية مفتوحة، ونفس راغبة، فإذا ما انتهوا من ذلك استلقوا

(١) الفء: الظل.

على الرمال، واستسلموا للنوم، فكان الرعيان الصغار أسرعهم له استجابة، فما أسرع ما يُلقى بهم في أحضانه، ويطير بهم في جو من الأحلام السعيدة؛ فلا يزال يتقل بهم من عالم إلى عالم، حتى يوقظهم من الشمس، أو صوت الكلاب الحارسة، وهي تنبح أحد القادمين من الغادين أو الراحين.

حينذاك يُهبُّ الرعيان سراعًا، يتفقدون أغنامهم، فيرون بعضها لا يزال راقداً، وبعضها قد استدرجته طراوة المساء، فأخذ يسرح فيما حواليه، يلتقط ما عسى أن يجده من أعواد الحشيش والعشب، أو لحاء الشجر وفروعه وأوراقه.. حتى إذا امتدت الظلال، وهدأت وقدة الشمس، وهبت نسَمات المساء عليه باردة، أخذوا عصيم وصاحوا بأغنامهم فهبت من مراقدها، فيجولون بها جولة أو جولتين، ثم يعودون بها مع الغروب إلى الحى، فيلقاهم أهله بالبشر والسرور إن كانت شباعًا، وباللوم والتقريع إن كانت جياغًا.

ليالى البادية

ويُسط الليل رداءه على البادية، فيأوى كل إلى كِنه^(١)، ويجتمع ما تفرق من شمل القوم حول الطعام، فيتناولون عشاءهم

(١) الكن: المكن.

من لبن الأغنام أحياناً، ومن لحومها أحياناً، قانعين في أكثر الأحيان بلقيات من خبز الشعير، أو بشيء من حب الشعير الجاف يسفونه سقاً، ثم يسفونه بالماء في قناعة ورضاً.

فإذا ما انتهى العشاء، تحلق^(١) الرجال حول النيران يسْمرون، وتجمع الأطفال يلعبون ألعابهم الساذجة، في نور القمر الزاهي، أو في ضوء النجوم اللامعة؛ فأحياناً يمثلون غارة قوم على قوم، فتقوم بينهم معركة شديدة، ينتصر فيها فريق وينهزم فريق، وأحياناً يمثلون هجمة الذئب على الغنم، يقومون فيها بدور الكلاب والرعيان في مقاومة الذئب، حتى يفر الذئب هارباً؛ وأحياناً يتحلقون حول واحد منهم، أو حول واحد من قصاص الخي، يستمعون إلى حكاياته وأمثاله.

وهكذا تمر الأيام والليالي تباعاً، والبادية على حالها تلك، لا يكاد يتغير من حالها شيء، إلا ما يكون من تغير الجو في الفصول، من حر الصيف إلى برد الشتاء إلى اعتدال الربيع، وإلا ما يكون لذلك من أثر في رجال البادية ونسائها من نشاط أو فتور.

أما الأطفال فهم في شغل عن الحرب والبرد، بما هم فيه

(١) تحلق الرجال : استداروا.

من هو وعبت، وما هُمى لهم في فضاء البادية الرحيب من حرية وانطلاق. فهم أحرار طلقاءً دائماً في الليل والنهار، والنوم واليقظة، والغدو والروح، لا تُخضعهم لسلطانها تقاليد القبيلة ولا أحكام البادية ولا يُجَدُّ من نشاطهم تحكم الأبناء فيهم، ولا خوف الأمهات عليهم.

حرص حليمة على رضيعها

على أن حليمة كانت من دون النساء في هذه البادية، شديدة الرعاية لوليدها محمد، شديدة العناية به والخوف عليه؛ تخشى عليه الليل والنهار، وتخشى عليه الحر والبرد، وتخشى عليه الأحداث، وتخشى عليه كل شيء. . . كانت تحبه حباً شديداً، وكانت ترى من حاله أنه غلام ليس كالغلمان، وكانت ترى من تراجته ما يزيدا تعلقاً به وحرصاً عليه؛ وكانت تحس أن الناس جميعاً يحسدونها عليه، ويريدون أن يتخطفوه منها. لذلك كانت تلاحقه بعينها حيثما كان، وتحوطه من رعايتها وعنايتها بأكثر مما تحوط به أولادها.

أفزعاها الحر ذات يوم، فخرجت تطلبه في وقت الظهيرة والناس من حولها قائلون^(١). والبهيم^(٢) والأغنام قد أوت إلى

(١) قائلون: مستريحون في وقت القيلولة.

(٢) البهيم: صفار الغنم.

الظل، تستجير به من وهج الشمس، فوجدته مع أخته الشياة
مقبلاً على الحى؛ فجعلت تلوم ابنتها وتقول فى ألم وغيظ: فى
هذا الحر يا شياة..! فقالت أخته: لا تجزعى يا أمى، فوالله
ما وجد أخى حرًا.. لقد وجدت غامة تُظله حيثما ذهب، إذا
وقف وفتت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع.

حفظ الجميل

لقد ظل محمد يحفظ لها هذا الجميل دائماً؛ فما نسى يوماً
أنها ظُرةُ التى أرضعته من ثديها، وغذته بلبنها، وأن لها عليه
حقّ الأم على ولدها؛ بل لم ينس أن يحفظ هذا الجميل لقبيلتها
بنى سعد بن بكر بن هوازن، فظل دائماً يذكر أنه نشأ فى
باديتهم، وترى بين ظهرانيهم^(١)، وكان له منهم إخوة وأخوات،
وأباء وأمهات، وأهل وعشيرة.

حضرت إليه حليلة ذات يوم وهو يتجر فى مال خديجة،
فشكت إليه حالها وما تلاقيه من شدة العيش فى البادية، فكلم
لها خديجة، فمنحتها بعيراً وأربعين شاة، وردتها مكرمة إلى أهلها.
واستأذنت عليه مرة أخرى وهو رسول الله ﷺ، فأذن لها..

(١) بين ظهرانيهم: بينهم.

فلما دخلت عليه قام لها متهللاً يقول: «أمى! أمى!» ثم بسط لها رداءه وأجلسها عليه، ثم جعل يلاطفها، فس صدرها مساً رقيقاً، وهو يتسم لها ابتسامة الابن البار لأمه الحنون؛ كأنما يريد أن يشعرها بأنه لن ينسى لهذا الصدر ما غمره به من حنان، وما أفاض عليه من بر. ثم سألها عن حاجتها فقصى لها ما أرادت.

ولما انتصر، صلى الله عليه وسلم، على المشركين في غزوة حنين، وغنم كثيراً من أموالهم، وسبى كثيراً من نسائهم وذراريهم، أتى إليه وفد من قبيلة «هوازن»، يرجون أن يعفو عنهم، ويرد إليهم أموالهم وأولادهم ونساءهم. وكان فيهم عمه من الرضاعة، فاستشفعوا به إليه. فتقدم بين يديه يعلن خضوع القوم وإسلامهم، ويقول فيما يقول: «يا رسول الله، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك. وقد حضنك في حجورنا، وأرضعنك بثدينا.. لقد رأيتك مرضعاً لما رأيت مرضعاً خيراً منك، ورأيتك فطماً لما رأيت فطماً خيراً منك، ثم رأيتك شاباً لما رأيت شاباً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خلال الخير، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك.. فامن علينا، من الله عليك..!»

وكان النبي ﷺ قد جعل ينتظر قدومهم عليه حتى يشس من

قدومهم، فقسم بين المسلمين أمواهم وسباياهم؛ ولكنه مع ذلك لم يشأ أن يردهم خائبين، لأنهم أسلفوا إليه الجميل في صغره. فقال لهم: «لقد استأنيت بكم»^(١) حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبيَّ وجرت فيه السهَّان، فما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس.. فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا: نستشفع برسول الله إلى المسلمين، ونستشفع بالمسلمين إلى رسول الله.. فإن سأقول لكم: ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وسأطلب لكم إلى الناس».

فلما صلى الظهر الناس، قام وقد هوازن فقالوا كما علمهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرد عليهم ما كان له ولبنى عبد المطلب، وجعل يرغب الناس ويترضاهم حتى ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم. وضرب النبي بذلك أروع الأمثال في حفظ الجميل لمن أولى الجميل.

(١) استأنيت: انتظرت ومهلت.

شق الصدر

قلب حليلة

ظل محمد في بادية بنى سعد حتى بلغ أربع سنين، يحيا حياة الأعراب في البادية، ويتكلم لغتهم، ويلبس ملابسهم، ويشارك الأطفال في جدهم ولعبهم، وغدوهم ورواحهم، يغدو في الصباح مع إخوته حين يغدون بالغنم إلى مراعيها، ويروح معهم في المساء حين يعودون بها إلى حظائرها. وكانت ظنره حليلة لا تفتأ توصي به إخوته كلما خرج معهم، وتحذره أن يتهاونوا في رعايته وحفظه، أو يذهبوا به بعيدًا حتى ينقطعوا عن الحى.

كان قلب حليلة دائمًا ممتلئًا بالخوف عليه، وكانت نفسها مفرّعة جازعة، فهي لا تكف أبدًا عن مراقبته، ولا تفتّر عن السؤال عنه ساعة بعد ساعة، كأنما كانت تُحس أن شيئًا سيحدث له كلما غاب عنها. ولو استطاعت حليلة أن تحبسه في دارها مخافة الأحداث لفعلت، ولكنها لا تستطيع، لأن حياة

البادية لا تعرف القيود ولا الحدود؛ إنما هي حياة الحرية الواسعة والانطلاق الحر، تستمد طبيعتها من فضاء البادية الرخب، وجوها المنطلق، وآفاقها الفسيحة.

الحادث الخطير

وكان ما خافت حليلة أن يكون؛ فبينما هي ذات يوم في دارها مشغولة ببعض شأنها، إذ أقبل ولدها يشتد^(١) نحو الحى وهو يصيح: ذاك أخى القرشى قد قتل..! فخرجت حليلة تشتد ملهوفة، وهي تصيح بأعلى صوتها: «يا ضعيفاه..! يا وحيداه..! يا يتماه..! استضعفوك فقتلوك..!» حتى وصلت إليه، فوجدته قائماً مُتَقَعاً لونه، فصاحت به: «يا بنى، ألا أراك حياً بعد..!» وانكبت عليه تضمه إلى صدرها، وتغمره بحنانها، وهي لا تستطيع أن تمنع نفسها من البكاء.

الرسول ﷺ يصف الحادث

ويصف، صلى الله عليه وسلم، هذا الحادث لأصحابه فيقول: «... بينا أنا ذات يوم مُتَبِّدٌ من أهلى فى بطن واد،

(١) يشتد: يجرى.

مع أتراب^(١) لي من الصبيان، تتقاذف بيننا بالجللة^(٢)، إذ أتانا رَهْطٌ^(٣) ثلاثة، معهم طَسْتُ من ذهب مُلِي ثَلْجًا، فأخذوني من بين أصحابي. فخرج أصحابي هُرَابًا... مسرعين إلى الحى، يُؤذنونهم ويستصرخونهم^(٤) على القوم.

«فَعَمَدَ أَحَدُهُمْ فَأَضْجَعَنِي عَلَى الْأَرْضِ إِضْجَاعًا لَطِيفًا، ثُمَّ شَقَّ مَا بَيْنَ مَفْرَقِ صَدْرِي إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِي^(٥)، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَمْ أَجِدْ لِدَلِكِ مَسًّا؛ ثُمَّ أَخْرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي، ثُمَّ غَسَلَهَا بِذَلِكَ التَّلْجِ فَأَنْعَمَ غَسَلَهَا، ثُمَّ أَعَادَهَا مَكَانَهَا.

«ثُمَّ قَامَ الثَّانِي مِنْهُمْ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ: تَنَحَّ. فَنَحَاهُ عَنِّي؛ ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَوْفِي فَأَخْرَجَ قَلْبِي - وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ - فَصَدَعَهُ^(٦)، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُ مَضْغَةً سُودَاءَ فَرَمَى بِهَا؛ ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ^(٧) يَمْنَةً مِنْهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي يَدِهِ مِنْ نُورٍ يَحَارُّ النَّاطِرُونَ دُونَهُ، فَخَمَّ بِهِ قَلْبِي فَاْمْتَلَأَ نُورًا - وَذَلِكَ نُورُ النَّبِوَةِ وَالْحِكْمَةِ - ثُمَّ أَعَادَهُ مَكَانَهُ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ ذَلِكَ الْخَاتَمِ فِي قَلْبِي تَعْرًا.

ثُمَّ قَالَ الثَّلَاثُ لِصَاحِبِهِ: تَنَحَّ. فَتَنَحَّى عَنِّي؛ فَأَمَرَ يَدَهُ

(٥) العانة: ما تحت السرة.

(٦) صدعه: شقه.

(٧) قال بيده: أهوى بيده.

(١) أتراب: رفاق.

(٢) الجللة: البعر.

(٣) رهط: جماعة.

(٤) يؤذنونهم يستجلون بهم.

ما بين مَفْرَقِ صدرى إلى منتهى عانتى، فالتأم ذلك الشق بإذن الله. ثم أخذ بيدي فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً، ثم قال للأول الذى شق بطنى: زنه بعشرة من أمته. فوزنوني بهم فَرَجَحْتُهُمْ^(١). ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنوني بهم فَرَجَحْتُهُمْ. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنوني بهم فَرَجَحْتُهُمْ. فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم...

قال: «ثم ضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسى وما بين عيني، ثم قالوا: يا حبيب، لا تُرْعَ^(٢).. إنك لو تدرى ما يُراد بك من الخير لقرت عيناك..!»

قال: «فبيننا نحن كذلك إذا أنا بالحقى قد جاءوا بحذافيرهم، وإذا أمى - وهى ظئرى - أمام الحى، تهتف بأعلى صوتها وتقول: يا ضعيفاه...! فانكبوا على فقبلوا رأسى وما بين عيني، وقالوا: حبذا أنت من ضعيف..! ثم قالت ظئرى: يا وحيداه...! فانكبوا على فضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسى وما بين عيني، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد..! ما أنت بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنون من أهل الأرض..! ثم قالت ظئرى: يا يتباه استضعفت من بين

(١) رجحتهم: زدت عليهم.

(٢) لا ترع: لا تخف.

أصحابك فقتلت لضعفك..! فانكبوا على فضموني إلى
صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: حبذا أنت من
يتم..! ما أكرمك على! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير..!
فوصلوا بي إلى شفير الوادي..

«فلما بصرت بي أمي - وهي ظئري - قالت: يا بني،
ألا أراك حياً بعد..! فجاءت حتى انكبت على وضعتني إلى
صدرها. فوالذي نفسي بيده، إن لقي حجرها وقد ضمتني إليها،
وإن يدي في يد بعضهم. فجعلت أتلفت إليهم، وظننت أن
القوم يبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم.

«يقول بعض القوم: إن الغلام قد أصابه لمٌ^(١) أو طائف
من الجن، فانطلقوا به إلى كاهنتنا حتى ينظر إليه ويسداويه.
فقلت: يا هذا، ما بي شيء مما تذكر؛ إن إرادق سليمة
وفؤادي صحيح، ليس بي قلبٌ^(٢).. فقال أبي من الرضاع:
ألا ترون كلامه كلامٌ صحيح؟ إن لأرجو ألا يكون بابني
بأس..!

«فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن؛ فاحتملوني حتى
ذهبوا بي إليه. فلما قصوا عليه قصتي قال: اسكتوا حتى أسمع من

(١) لمٌ: جنون.

(٢) قلب: علة.

الغلام، فإنه أعلم بأمره منكم. فسألني فاقترضت عليه أمرى ما بين أوله وآخره. فلما سمع قولي وثب إلى وضمني إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب! يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلوه معه؛ فواللآت والعزى لئن تركتموه فأدرک، ليدلن دينكم، وليُسْفهن عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفن أمرکم، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط!

«فانترعتني ظئري من حجره، وقالت: لانت أعتة وأجن من ابني هذا، فاطلب لنفسك من يقتلك فإننا غير قاتليه..! ثم احتملوه فردوه إلى أهلي. فأصبحت مُفزعًا مما فعل بي، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى متهى عانتى كأنه الشراك^(١)».

مخاوف حليلة

كانت هذه الحادثة حدًا فاصلا بين رسول الله ﷺ والبادية، فقد أصبحت ظئره حليلة منذ ذلك اليوم واجفة القلب هالعة الفؤاد، لا تطمئن على فطيمها لحظة، ولا تدرى كيف يتسنى لها أن تحافظ عليه بعد ذلك، وقد رأت بعينها ما رأت، وسمعت بأذنيها ما سمعت. وزادها فرعًا وهلعًا قول ذلك الكاهن المجنون

(١) الشراك: السير من الجلد.

الذى كاد يفتك به، لولا أنها استطاعت أن تخلصه من يديه، وتنجو به هاربة إنها لا تأمن أن يعود إليه جنونه، فيفتك بالغلام حين يظفر به في أية فرصة؛ وإنما لتخشى عليه كذلك هؤلاء الرجال الأجانب، الذين انقضوا عليه في الوادى فكادوا يقتلونه.. إنها لا تدرى من أمرهم شيئاً، ولا تدرى لم اختاروه هو من دون أصحابه! هل استضعفوه لأنه يتم ليس له أب يحميه؟ أو كانوا يريدون أن يخطفوه ليبيعوه، فأحيط بهم فاستعصى عليهم؟ أو هم لصوص فتاكون سفاكون، لاهم لهم إلا إراقة الدماء وقتل الأنفس؟.. إن أخشى ما تخشاه أن يكونوا طلاب ثأر عند بنى عبد المطلب، فجاءوا إلى هذا الغلام يأخذونه بثأرهم، ويفجعون فيه أهله وعشيرته، وإنما لا تأمن أن يعودوا إليه مرة أخرى، فيقتلوه أو يخطفوه.

وهكذا ظلت حليلة نبياً للهواجس والظنون، حتى أصبحت المخاوف تتراعى لها في كل ناحية، وتمثل لها في كل شيء.. فجعلت هي وزوجها ينظران ويتدبران الأمر في شأن هذا الصبي... قال زوجها: إنى لأخشى أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فانطلق بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف.

قالت حليلة: فاحتملناه فلم تُرَع أمه إلا به.. فقلعنا به عليها، فقالت: ما رَدَّكما به يا ظئر وقد كنتما عليه حريصين؟

فقلنا: لا والله... إلا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذى علينا، وقلنا - نخشى الإلتلاف والأحداث - نرده إلى أهله. فقالت: ما ذاك بكما^(١) فاصدقانى شأنكما.. فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره.

قالت: «أخشيما عليه الشيطان؟ كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل! والله إنه لكائن لابنى هذا شأن. ألا أخبركما خبره؟ قلنا: بلى. قالت: حَمَلت به لما حملت حملاً قَطُّ أخفُّ منه، فأريت فى النوم حين حَمَلت به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام. ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء.. فدعاه عنكما».

(١) أى: ليس هذا هو السبب الذى دفعكما إلى رده.

وفاة آمنة

وحشة الغريب

عاد محمد إلى مكة، فعاد إلى الأرض التي نبتت فيها أصوله، وتعمقت فيها جذوره، وتفرعت فيها بطانته وأمله. فكان حربًا أن تَقَرَّ بذلك عينه، وتفتح له نفسه؛ ولكنه ظل فترة من الزمن يشعر بالنفور من ذلك الجو الجديد ويعيش فيه عيشة المستوحش الغريب.

نعم، كان كل شيء جديدًا عليه في ذلك الجو، إذ لم يكن قد ألف غير مناظر البادية، في امتداد أطرافها، وسعة آفاقها، وانبساط أراضيها؛ وفي صمتها البالغ، وهدوئها الشامل، وسكونها الدائم؛ وفي هذا العدد القليل من سكانها الذين يعرفهم ويعرفونه، ويألفهم ويألفونه؛ وفي هذه المساكن الساذجة، التي يتخذونها من الخيام تارة ومن أكنان الجبال تارة، يأوون إليها إذا آذاهم البرد أو أرهقهم الحر...

أما هذه القصور الشاهقة، وهذه الأبنية المتلاصقة؛ وأما

هذه الجموع المتراكمة، وهذه الأنفس المتزاحمة؛ وأما هذه الحدود وهذه القيود، فشيء جديد عليه، لم تألفه نفسه الحرة، ولم يستسغه فؤاده المنطلق؛ فكان من الطبيعي أن يستشعر الوحشة في هذا الجو الغريب، وألا يأنس إليه ويمتزج به إلا بعد لاي^(١).

من أجل ذلك ظل فترة طويلة وهو يعيش بنجيماله في جو البادية، يحن إلى حياتها السهلة ومعيشتها الساذجة، ويستشعر الحنان والحب في عطف ظئره حليلة، ورعاية أخته الشياء، ولا يتخيل الأناس والسعادة إلا في زمالة أتراب^(٢) البادية، ولا المرح واللذة إلا في اللعب معهم والحديث إليهم.

ولكن، أين هو الآن؟ إنه بين أهله وذويه، وفصيلته التي تؤويه... في حضن أمه الحبيبة، حيث الحنان الطبيعي الذي لا يماثله حنان، وحيث الحب الخالص الذي ينبعث فياضاً بلا حساب؛ وفي رعاية أهله وعشيرته، من الآباء والأمهات، والأعمام والعلمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات.. هو إذن في مكانه الطبيعي الذي لا ينبغي أن يكون إلا فيه.

(١) بعد مشقة ووقت.

(٢) الأتراب: الزملاء في السن.

الامتزاج بالوطن

وقد أحاطته هذه العشيرة بالعطف والرعاية، وغمرته من جميع نواحيه بالحنان البالغ، فلات كل ما كان يحسه من فراغ، وأنسته كل ما كان يجده من وحشة، لما أسرع ما استجاب لها واندمج فيها، وما أسرع ما استبدل أهلاً بأهل وأحباباً بأحباب. وبسطت عليه حياة مكة سلطانها، فصار مَكِيًّا كأهل مكة، وتبينت له فيها معالم لم يكن يراها، فظل يعرفها واحدة بعد واحدة حتى عرفها جميعاً.

هذه هي الكعبة، بيت الله الحرام، الذي يحج إليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها.. وهذه هي دار الندوة، مُجْتَمَع قريش ومُنتداهها، ومَعْقِد أفراحها وأتراحها وقضاياها.. وهذه رحلة الشتاء إلى الجنوب، وهذه رحلة الصيف إلى الشمال، تذهب فيها العير محملة بمحاصلات الحجاز، وتعود محملة بمحاصلات الشام والعراق واليمن وبلاد الحبش، فتحتفل لها قريش أيما احتفال... وهذه وفود الحاج تأتي إلى مكة في موسم الحج، فتمتلي بها الدور والقصور، وتغصن بها الطرق والرحاب، وتعمر الأسواق بالسلع والبضائع، وتنشط حركة البيع والشراء، والأخذ والعطاء.. وهذه، وهذه، وهذه... من مظاهر الحياة في مكة،

ما زال يعرفها ويألفها حتى امتزجت بها نفسه، واصطبغت بها حياته.

إلا الأصنام

لكن شيئاً واحداً لم تألفه نفسه، ولم يستطع أن يمتزج به أو يأنس إليه.. هو هذه الأحجار التي يعظمها أهل مكة، والتي يسمونها آلهة يعبدونها ويقدمون لها القرابين، وينحرون لها الذبائح، ويلجأون إليها فيما جَلَّ وهان من شئونهم... لقد نفرت نفسه منها نفوراً شديداً، فلم يشارك القوم في تعظيمها ولا في عبادتها، ولم يتقدم لها يوماً من الأيام راغباً ولا راهباً. وأخذ عقله الصغير يتفتح فيعجب من فعل هؤلاء القوم، ويسأل: كيف استساغوا لأنفسهم أن يستسلموا لهذه الحجارة وهم يصنعونها بأيديهم..! أهي التي تطعمهم إذا جاعوا، وتسقيهم إذا عطشوا، وتشفيهم إذا مرضوا؟.. أهي التي ترزقهم ما يُنعمون به من طيبات الرزق، وتكفيهم ما يحمل بهم من مصائب الدهر؟.. إن هي إلا حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر، ولا تنطق ولا تعي، ولا تملك من أمرها نفعا ولا ضرا. ولكن القوم يستسلمون لها، ويتأثرون بها تأثراً شديداً.

وأصر على ألا يشارك القوم فيما يفعلون لهذه الأحجار فهجر الأصنام وقَلاها^(١)، وخاصمها ونفر منها. ولم تكن سنه بحيث تَلَفَت إليه أنظار القوم، فظنوه طفلاً لم يبلغ بعد سن الإدراك والفهم.

محمد يزور يثرب

وحين بلغ السادسة من عمره، ذهبت به أمه إلى يثرب، ليزور أخواله بنى عَدِيَّ بن النجار؛ وصَحِبته في هذه الرحلة حاضته أم أيمن، وهى «بَرَكَة» الحبشية، جارية أبيه التى خلَّفها له مع ما خلف من ميراث قليل.

فلما نزل على أخواله أحسنوا وفادته وأكرموا مشواه، فأقام عندهم شهراً، جاب فيه رحاب المدينة، ورأى كثيراً من معالمها، وخالط كثيراً من أطفالها وأنس إليهم وأنسوا إليه. ولا شك أنه وجد فى أطفال المدينة هذه الرقة التى امتاز بها أهلها، فامتزجت نفسه بنفوسهم، وتوثقت بينه وبينهم صلوات الإخاء والحب.

وانطبعت فى ذهنه صورة حية للمدينة، ببساتينها وحدائقها، ونخيلها ومزارعها، ونبايعها الجارية، وآطامها^(٢) العالية، ومياهها

(١) قلاها : كرهها.

(٢) آطامها : قصرها. والواحد أطم.

العذبة، فلم يَنسها قط. وظلت هذه الصورة الجميلة مطبوعة في نفسه، حتى هاجر إليها وهو رسول الله؛ فكان يذكر لأصحابه كثيراً من معالمها، ويذكر معها كثيراً من أحداث الطفولة وذكرياتها، ومن أترابه الذين خالطهم وأنس إليهم في ذلك العهد البعيد.

نظر إلى أطمم بنى عدى بن النجار فعرفه، وقال: «كنت ألاعب أنيسة - جارية من الأنصار - على هذا الأطم؛ وكنت مع غلمان من أخوالى نظير طائراً يقع عليه...» ونظر إلى الدار التي نزل فيها، وهى دار النابغة، فقال: «ها هنا نزلت به أمى...» وفي هذه الدار قبر أبى، عبد الله بن عبد المطلب. وأحسنَت العَوم في بئر بنى عدى بن النجار.

وفي هذه الرحلة رأى محمد قبر أبيه. ولا شك أنه بكى حين رأى أمه تبكى عند هذا القبر. ولعل هذه أول مرة أحس فيها لُدغ الحزن في فؤاده؛ ولعلها كذلك أول مرة عرف فيها معنى اليم، حين رأى نساء بنى عدى يُواسينَ أمه ويُعزِنها في فِقد عبد الله، وعيونهن تذرِف الدمع، وأصواتهن يخفقها الكباء؛ وحين رأى الرجال يُحْصُونه بمزيد من العطف والرحمة.

إنها مظاهر تلفت الذهن الذكى وتدفعه إلى التساؤل. وما أكثر تساؤل الأطفال في مثل هذه الحالات، وما أرفف

إحساسهم وأرق عواطفهم...! وما أسرع إدراكهم للحقائق حين يحاول الكبار أن يُوهّوها عليهم، ظناً أنهم لا يدركون...! ثم ما أكثر ما يتبرع الأطفال بعضهم لبعض، بكشف ما خفي من هذه الأسرار، وما استتر من هذه الأخبار...!

الحادث الأليم

ثم رجعت به أمه عائدة إلى مكة. فلما قطعت به مسن الطريق نحو مرحلة، فاجأها الموت عند قرية «الأبواء»، فدفنت هنالك...! ورجع محمد وحيداً، تفيض عيناه بالدمع، ويمتلي قلبه بالأسى والحسرة...!

لا شك أن هذا الحادث لم يمر به مرّاً خاطفاً، بل ترك في نفسه أعمق الأثر وأقواه. نعم إنه كان لا يزال طفلاً، ولكنها هي أمه... أمه الحبيبة التي لم يكن له سواها بعد فقد أبيه، والتي كانت له منبع الرحمة والحنان والحب، والتي كان يجد في ظلها برد الراحة والسكينة، والتي كان يستطيع أن يبثها شكواه، مما يُلم به من ألم أو يناله من هم...! لقد كان طفلاً مُرهَف الإحساس، جياش العواطف، تغنيه اللمحة عن النظرة، وتغنيه النظرة عن الإشارة، وتغنيه الإشارة عن الكلمة، ويدرك من

بعيد ما لا يترك غيره من قريب.. فكان قلب أمه وحده، هو الذى يستطيع أن يتجاوب مع إحساسه المرهف. ودكاته اللامع.

إن هذه الحادثة لم تذهب من خياله قط، وكان لها فى نفسه أبعد الأثر وأبقى، فظل ذكرها حيًا فى فؤاده، وكان وهو رسول الله يذكرها، فتفيض نفسه بالرحمة والحنان، وتأخذ الرقة لها فيرجو أن يشملها الله برحمته، ويسأله المغفرة لها جزاء ما قدمت له من بر، وما أفاضت عليه من حنان؛ ولكن ﴿الله لا يَغْفِرُ﴾ أن يُشْرِكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء^(١)؛ فيأسى لذلك رسول الله، ويبكى حتى يبكى أصحابه.

عن عبد الله بن مسعود قال: «خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينظر فى المقابر، وخرجنا معه؛ فأمرنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها، فواجه طويلًا؛ ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً، فبكينا لبكاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا، فتلقاه عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، ما الذى أبكاك؟ لقد أبكنا وأفزعنا.. فجاء فجلس إلينا فقال: «أفزعكم بكائى؟» قلنا:

(١) سورة النساء الآية ٤٨.

نعم. قال : « إن القبر الذى رأيتموني أناجى، قبرُ آمنَةٍ بنتِ
وهب، وإنى استأذنت ربي فى زيارتها فأذن لى؛ واستأذنت ربي فى
الاستغفار لها فلم يأذن لى فيه.. فأخذنى ما يأخذ الولدَ للوالدة
من الرقة؛ فذلك الذى أبكاني! ».

يتيم عبد المطلب

رعاية اليتيم

رجع محمد من رحلته إلى يثرب يتيم الأبوين، قد فقد أمه كما فقد أباه، ولم يكن قد جاوز السادسة بعد، ولم يكن له مال موروث يستطيع أن يعيش منه؛ فكل ما تركه له أبوه خمسة جمال، وقطعة صغيرة من الغنم، وجاريتيه أم أيمن؛ تلك الفتاة الحبشية التي كانت تسمى «بركة»، والتي لم تكن قد تزوجت بعد ولا أنجبت ولدها أيمن.

ولكن الله عطف عليه قلب هذه الجارية، فحضنته^(١) ورعته، وكانت له أمًا مكان أمه؛ وقلب جدّه الشيخ عبد المطلب، فحبه وأحاطه، وكان له أبًا مكان أبيه. ونزل محمد من هذين القليلين الكريمين منزلة البؤنة الحقة، يجد لديهما من الإعزاز والإكرام، ومن الرعاية والعناية، ومن الإيثار والحب، فوق ما يجده الأبناء من آباؤهم وأمهاتهم.

(١) حضنته: قلعت بربيته وخلمته.

كان عبد المطلب سيد قريش، وكان لقريش تقاليدها في تربية أبنائها، وأخذهم منذ الطفولة باحترام الآباء وهيبتهم، والوقوف معهم على حدود الأدب والوقار؛ فلم يكن الولد يستطيع أن يجالس أباه إلا حين يبلغ سن الرجولة، وكانت مجالس الآباء خالصة لهم، لا يفشاها الأبناء ما داموا صغارا، فإذا بلغوا مبلغ الرجال جاز لهم أن يخاطبوا الآباء، وأن يشاركوهم في مجالسهم وأحاديثهم؛ لكن مع الأدب والوقار الكامل والاحتشام الذي لا يجعل لولد رأيا فوق رأى أبيه، ولا حكما بعد حكمه. وكان هذا أدبا سائدا في قريش، وتقليدا يشب عليه الصغار منذ يدركون ويعقلون.

وكان من عادة عبد المطلب بن هاشم أن يتخذ له مجلسا بجوار الكعبة، يتحدث فيه إلى رجال قريش ويتحدثون إليه، فكان يُقرش له فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالا له؛ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يأتي وهو غلام جفراً^(١)، حتى يجلس على فراش جده، فيأت أعمامه ليؤخروه عنه، فكان عبد المطلب يمنعهم إذا رأهم، ويقول: «دعوا

(١) غلام جفر: ظاهر الصحة والنمو.

ابنى، إنه ليؤنس ملكا..! ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يفعل.

وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخله عليه إذا خلا وإذا نام، ويرق له رقعة لم يرقها لولده؛ وكان لا يأكل طعاماً إلا قال: على بابى..! فيؤتى به إليه.

قلب عبد المطلب

وكان ينظر نحوه بعاطفتين: عاطفة الأبوة المشبوبة، التي كانت تملا قلبه حبا، وتملا نفسه حنانا ورقة؛ فهو ابن ولده عبد الله، أحب أبنائه إليه وآثرهم عنده، والذي كان موته ضربة قاصمة هوت عليه فآذته^(١)، وتركت في قلبه جرحا غائرا عميقا. لما هو أن ولد له محمد، حتى وجد فيه صورة ابنه عبد الله، فأفرغ عليه كل ما في قلبه من حب وحنان، حتى لم يكن يسميه إلا ابنه.

وكان مع هذه العاطفة عاطفة أخرى تزيد من فعلها وتذكياها، هي عاطفة الإعجاب والزهو بما كان يبدو عليه، صلى الله عليه وسلم، من آيات العناية الربانية؛ فقد كان كل شيء فيه يدل على أنه طفل لا كالأطفال، وأنه كائن له في مستقبله

(١) آذته: أرمته وحلته فوق ما يطيق من الألم.

شان أئى شان. وقد أحس عبد المطلب هذا وتنبأ به من أول يوم ولد فيه محمد، لما كان يتحدث عنه قَطُّ إلا بصيغة الإعرزاز والإعجاب، والثقة بالمستقبل العظيم الذى ينتظره.

سمو الطفولة

وتُجمع الروايات التاريخية على أن عبد المطلب كان حَفِيًّا^(١) بابنه محمد، وأنه كان يُوليه من العناية والرعاية مالا يُوليه أبناءه الذين من صُلْبِه، وكان يتفقدُه ويلاحظُه فى كل أحواله. وكأَنَّما كان يحس أن الأجل مقصر به عن بلوغ ما يرجوه من رعاية هذا الغلام المُعْجَب، فكان لا يترك فرصة تمر حتى يُوصي به كل من يثق به من أهله.

ومما كان يزيد عبد المطلب تعلقًا به وحرصًا عليه، ما كان يراه من إعجاب الناس به، ومما كان يبدو عليه من آيات السمو؛ فقد كان، صلى الله عليه وسلم، مثلًا يلفت الأنظار فى كمال أدبه، وفى سمو خلقه، وفى عُزوف نفسه عن اللهو الباطل، وفى تزهره عن التددن فيما يتدنن إليه الأطفال، من التهافت على الطعام والشراب، أو التطلع إلى ما يجلبه الآباء والأمهات. . لقد كان فى كل ذلك مثلًا يلفت الأنظار، ويدعو إلى الاهتمام بشأن

(١) حفيًا: باهى الاهتمام به

هذا الطفل الذى يسمو على الطفولة، ويتعالى على نوازعها
ومقتضياتها علواً كبيراً.

نعم، كان فى ذلك موضع العجب والاهتمام من كل من
يراه؛ فما كان محمد إلا طفلاً يتيمًا، قد نشأ فى قوم غلبت عليهم
الجهالة، وفشا فيهم الشرك، وأسرفوا على أنفسهم فى المتع
والملاذ، ﴿وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما
يُهلكنا إلا الدهر﴾^(١).. فكان من الطبيعى أن ينشأ كما ينشأ
الطفل المهمل، بعد أن فقد الأب الذى يُعنى بتأديبه وتهذيبه،
والأم التى تُعنى بتعليمه وتدريبه.

ولكن الله، تعالت حكمته، أراد له هذا اليم المبكر، ليكون
هو الذى يحوطه بعنايته ويكلؤه بعينه، ويكمله بما يرضى له من
الأخلاق والأداب؛ وليُسبغ عليه من آيات فضله ما يجعله آية
للناس، ونموذجاً حياً للبشر الكامل، الذى أدبه ربه فأحسن
تأديبه، وصنعه فأتقن صنعه، وأعدّه لما أراد به من الكرامة؛
و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾^(٢).

* * *

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤.

كان أمر هذا اليتيم موضع العجب حقاً، وكان محط الأنظار من كل من رآه؛ فكان ذلك مما زاد جدّه الشيخ تعلقاً به وحيطة له، واهتماماً بشأنه.

قال قوم من بني مُذَلِّج لعبدالمطلب: احتفظ به، فإننا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه. فقال عبدالمطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء.. فكان عبدالمطلب يحتفظ به، ويحرص أشد الحرص على أن يكون هو الذي يرعاه ويحوطه.

ومعنى هذا: أن هؤلاء القوم حين رأوا رسول الله ﷺ وهو لا يزال غلاماً حَدَثًا، لفت أنظارهم ما رأوا فيه من الآيات، وأدهشهم ما يجدون من حاله، وما يرون من عجائب صنع الله فيه؛ فأخذوا يتأملونه ويفحصونه، فرأوا أن قدمه أشبه شيء بقدم جده الأعلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والعرب كانوا ولا يزالون من أقدر الأمم على معرفة الأقدام وقيافة الأثر^(١).

وكما كانت هذه الظواهر والآيات تزيد عبد المطلب تعلقاً ببيته، كانت تزيده كذلك خوفاً عليه، فكان لا يَغْفُل عنه لحظة، ولا يَفْتَأ يتفقده كلما غاب عنه، ولا يهدأ له بال ولا يطمئن له قلب حتى يكون بجانبه.

(١) القيافة: تتبع الأثر وملاحظته والامتداده به.

قال عبدالمطلب لأم أيمن : يا بركة، لا تغفلى عن ابني، فإن وجدته مع غلمان قريباً من السُدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبيُّ هذه الأمة.

ويقول الرواة : إن حليلة قدمت به مكة وهو ابن خمس سنوات، فأضللها^(١) في الناس، فالتمسته فلم تجده؛ فأتت عبدالمطلب فأخبرته، فالتمسه عبدالمطلب فلم يجده، فقام عند الكعبة يدعو ويقول :

لا هُم، أَد رَاكِبِي مُحَمَّدَا أَدَّةٌ إِلَىٰ وَاصْطَنَعْتُ عِنْدِي يَدَا^(٢)
أنت الذي جعلته لي عُضُدَا أنت الذي سميتَه مُحَمَّدَا
ولعل هذه الحادثة قد حدثت في موسم الحج، حين تزدهم مكة بالناس، ويصعب السير في مسالكها على الصغير والكبير. وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح، فهي دليل على مبلغ المكانة التي كانت لمحمد في قلب جده عبدالمطلب.

تبادل العواطف

وكان من الطبيعي أن يبادلَه محمد هذه العاطفة، وأن يجبه أكثر مما يجب أحداً من أهله. فما أسرع انجذاب الطفل إلى من

(١) أضلها: تاه منها.

(٢) اللهم تفضل على برد ولدي محمد إلى.

يحنو عليه، وما أشد تعلقه به واندفاعه إليه.

ولما مات عبدالمطلب بن هاشم، أحس محمد ألم الفاجعة. وأدرك عظم المصيبة، وعرف أنه فقد القلب الكبير الذى يحنو عليه، وعدم الركن الشديد الذى يأوى إليه؛ فجعل يبكيه بكاء الحزين الحائر، الذى لا يدري متى يَقْرُ قرأه، ولا ماذا يكون مصيره.

قالت أم أيمن: «رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبدالمطلب» وسُئِل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أتذكر موت عبدالمطلب؟ قال: «نعم، أنا يومئذ ابن ثمان سنين».

في كفالة أبي طالب

اختيار أبي طالب

لم يشأ عبد المطلب أن يترك شأن يتيمة هَمَلًا بعد موته، وهو العزيز الأثير عنده؛ فما هو إلا أن أحس دُنُوَّ أجله حتى أرسل إلى ولده أبي طالب، فأوصاه بأن يضم محمدًا إليه ويجعله في كفالته. ولا بد أنه شدد على أبي طالب في هذه الوصية، وكرر عليه القول بأن يرعاه حق الرعاية، وأن يُؤليه من عنايته ما يؤليه أولاده؛ فهو ابن أخيه وشقيقه عبدالله بن عبدالمطلب، وهو فوق ذلك جوهرة نفيسة يجب الحرص عليها والعناية بها، حتى تبلغ الشأو الذي قدره الله لها.

ولم يكن أبوطالب يجهل من أمر محمد شيئًا، ولا كان في حاجة إلى أن يوصيه به أحد؛ فقد كان يشهد من آيات الله فيه ما كان يشهده أبوه عبد المطلب، وكان يحس من شأن مستقبله العظيم ما كان يحسه كل من يطلع على شئونه وأحواله. فما هو إلا أن دعاه عبد المطلب إلى كفالته، حتى استجاب

راضى النفس قريراً العين، على رغم ما كان عليه من قلة المال وكثرة العيال.

ولسنا ندرى لم اختار عبد المطلب أبا طالب من دون أبنائه، ليكون هو الذى يلى أمر يتيمه من بعده، مع أنه كان يعلم ما عليه أبو طالب من كثرة الولد وضيق ذات اليد.. لأنه كان شقيق عبد الله، فهو أقرب إخوته رَجماً إلى ابن أخيه وأقواهم به صلة؟ أم لما كان يرى فيه من عواطف الرحمة والحنان، ودوافع النخوة والمروءة؟ أم لهذا وذاك وغير هذا وذاك من الأمر؟

لقد كان لعبد المطلب عِدَّةٌ من الولد، كلهم إخوة لعبد الله، وكلهم أعمام لرسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وكان فيهم من هو أكثر مالا وأقل عيالا من أبي طالب، ومن هو أوسع منه سَعَةً وأرحب مكاناً ومن هو أقدرُّ أن يكون هو الكفيل إذا كان الغنى بالمال هو كل شيء.. ولكن عبد المطلب - فيما يبدو - كان يرمى إلى هدف بعيد؛ فلعله كان يرمى إلى أن تكون اليد التى تحوط محمدًا هى أقوى يد وأحناها^(١)، وأن يكون القلب الذى يرعاه هو أشجع قلب وأرحمه، فلم يكن يعنيه فى ذلك

(١) أحناها: أكثرها حنوًا.

الأمر كثرة المال ولا قلته، فما المال إلا عَرَضٌ^(١) يأتي ويزول، وعارية تذهب وتجيء، إنما كان يعنيه أن يجد القويَّ الأمين من أهله، ليكلِّ إليه أمر ذلك اليتيم الذي ملك عليه قلبه، والذي كان يتمنى لو امتد به الأجل فظل يرعاه ويصونه، حتى يبلغ به الشأو العظيم الذي ينتظره.

الركن الأمين

كان أبو طالب هو الركن الأمين الذي آثر عبد المطلب أن يُؤوِيَّ إليه يتيمة، وكان هو من دون إخوته جميعًا موضع الطمأنينة والثقة من نفسه؛ فأسلم إليه أمر محمد، ومات وهو مطمئن القلب إلى أنه قد أسلمه إلى اليد الحانية الأمانة، وإلى القلب الرؤوف الرحيم.

وكذلك برهن أبو طالب على أنه كان عند حسن الظن به، وأنه كان أهلاً لهذه الثقة التي أولاه^١ إيتاها أبوه عبد المطلب. فما هو إلا أن ضم إليه محمدًا حتى أقبل عليه يغمره بعطفه ورعايته، ويخلطه بنفسه وأهله، وأنزله بين بنيه منزلة الإكرام والإيثار، وسط عليه حمايته منذ كان صبيًا، حتى صار شابًا، ثم

(١) العرض: شيء لا دوام له ولا يبقى على حال.

صار رجلاً، ثم صار زوجاً له زوجة ونون.. وحين أكرمه الله برسالته، وعاداه من عاداه من أهله وقومه، وقف أبو طالب دونه يحول بينه وبين أعدائه، فلم يستطع أحد أن يناله بسوء؛ ولقى أبو طالب في سبيل ذلك ما لاقى من معاداة قومه، ومن عَنَتِهِمْ^(١) واضطهادهم، ولكنه صبر على كل ذلك صبر الكرام، ولم يشأ أن يُسلم ابن أخيه أو يُتخلى عنه لحظة.

وجعل أبو طالب يحفظ رسول الله ويحوطه، وَيَعْضُدُهُ^(٢) وينصره إلى أن مات. فلما مات بكى عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحزن لموته أشد الحزن، وجعل يستغفر الله له جزاء ما فَمِله به من بر، وما أحاط به دعوته من حماية. وما زال يستغفر له ويرجو له رحمة الله، حتى نُجِيَ عن ذلك.

عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: «أخبرت رسول الله، ﷺ، بموت أبي طالب، فبكى وقال: «اذهب فاغسله وكفنه ووارِه^(٣). غفر الله له ورحمه!.. قال علي: ففعلت ما قال، وجعل رسول الله يستغفر له أياماً، ولا يخرج من بيته، حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿مَا كَانَ

(١) العنت: ما يلاقيه الإنسان من المشقة.

(٢) يعضده: يسنده ويعينه.

(٣) واره: ادفنه.

للنبيِّ والذين آمنوا أن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ، ولو كانوا أولى قُرْبَى، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾».

وكم تمنى رسول الله لو أن الله هدى عمه أبا طالب إلى الإسلام وشرح به صدره، وأدخله في رحمته الواسعة التي كتبها لعباده المؤمنين، الذين آمنوا برسوله وعزَّروه^(١) ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. وكم ألح عليه رسول الله ﷺ في ذلك، وكم حاول - حتى وهو في نزع الموت - أن يظفر منه بكلمة الشهادة ولكن الله لم يشأ أن يَهْدِيَهُ إلى الإسلام، لحكمة يعلمها وأمر يدبره..

ويقول أهل العلم بالتأويل^(٢): إن الله أنزل على رسوله ﷺ في شأن أبي طالب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُمِ اعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٣)، لما رأى من همه به، وشدة حرصه على هدايته وإسلامه.



وليس عجباً أن يهتم رسول الله ﷺ بإسلام عمه هذا

(١) سورة التوبة الآية ١١٣.

(٢) عزروه: عظموه.

(٣) التأويل: التفسير.

(٤) سورة القصص الآية ٥٦.

الاهتمام وأن يحرص على هدايته هذا الحرص؛ فقد رياه صغيراً، وحماه كبيراً. ووقف دونه كالطُود^(١) العظيم، يحوطه بالحب والعناية، ويغمره بالعطف والرعاية، ولعله كان هو الحصن الأمين الذى آواه الله إليه ومن به عليه فى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى..﴾^(٢) فكان من الطبيعى أن يحفظ له رسول الله ﷺ فى نفسه هذا الجميل، وأن يُكنَّ له فى قلبه كل عواطف الشكر والرحمة والمحبة، وأن يبذل كل ما يستطيع من جهد ليقدم له كل ما يستطيع من خير ونعمة.. وليس فى هذه الدنيا كلها خير أعم ولا نعمة أتم من نعمة الإيمان، الذى به تم السعادة فى الدنيا والآخرة.

لقد كان رسول الله ﷺ مثلاً عالياً فى الوفاء وعرفان الجميل، وكان عمه أبو طالب مثلاً عالياً فى رعايته وإكرامه وبره، حتى لقد قيل: إنه كان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصَبَّ^(٣) به صباية لم يُصَبَّ مثلها بشيء قط.

وكان يلمس البركة تحل فى طعام أولاده، إذا أكل معهم

(١) الطود: الجبل العظيم.

(٢) سورة الضحى الآية ٦.

(٣) صب به: تعلق به وأحبه.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أراد أن يُغَدِّيمَ قال لهم: «كما أنتم حتى يحضر ابني». فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فكانوا يُفَضِّلون من طعامهم؛ فإن لم يكن معهم لم يشبعوا. فيقول أبو طالب: «إنك لمبارك..!»

النفس العالية

وكان، صلى الله عليه وسلم، عَزُوفًا على النفس، لا يتهافت على الطعام تهافتَ الأطفال، ولا يقبل عليه إقبالهم؛ فكان إذا اجتمع بأبناء عمه على الطعام، انكبوا عليه يتخاطفونه ويلتهمونه، ويجولون بأيديهم في نواحيه؛ وجلس هو متعطفًا يأكل مما يليه، قانعًا بالقليل الذي تصل إليه يده، وأحيانًا يكف يده عن الطعام فلا يأخذ منه شيئًا. وكان أبو طالب يلاحظ منه ذلك، فكان يعزل له طعامه، ويخصه بالطيبات، ويؤثره على بنيه بالملاطفة وحسن الرعاية.

قال ابن عباس: «كان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صحفهم^(١) أول البكرة^(٢)، فيجلسون وينتهبون^(٣)، ويكف رسول الله يده فلا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه

(١) الصحيفة: ما يقدم فيه الطعام كالطبق ونحوه.

(٢) البكرة: أول النهار.

(٣) ينتهبون: يخطفون.

على حدة. وكان أبناء أبي طالب يُصَبِّحون عُمًّا رُمًّا^(١)،
ويُصبح رسول الله ﷺ، صَقِيلًا كَحِيلًا^(٢).

وقالت أم أيمن: «ما رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم،
شكا - صغيرًا ولا كبيرًا - جوعًا ولا عطشًا. كان يغدو فيشرب
من زمزم، فأعرض عليه الغداء فيقول: «لا أريده. أنا
شبعان.»»

وقال، صلى الله عليه وسلم، يوما لأصحابه، وقد أرادوا أن
يواصلوا الصيام كما يواصل: «إني لست كهيتكم، إني أبيت
عند ربي يُطعمني ويسقيني.»

راهب بصرى

وحين بلغ، صلى الله عليه وسلم، الثانية عشرة، سافر عمه
أبو طالب إلى الشام في تجارة، فتعلق به رسول الله، ﷺ فأخذه
معه، فلما وصلوا في طريقهم إلى «بُصْرَى» من أرض الشام،
دعاهم راهب هذه القرية إلى طعام عنده في صومعته^(٣).

وكان عند ذلك الراهب علم من الكتاب، وكان يقرأ في
التوراة والإنجيل أن نبيًا سيبعث في بلاد العرب، وأن هذا النبي

(١) عيونهم ملوثة بالمعص.

(٢) كحيلًا: نظيف العينين.

(٣) الصومعة: بيت من بيوت النصارى للعبادة.

قد آن أوانه. وكان مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل صفة هذا النبي وعلاماته، حتى إنهم ليعرفونه كما يعرفون أبناءهم. ويقولون: إنه حين رأى رسول الله ﷺ جعل يتفرس فيه ويتأمله، ثم سأله عن أشياء من حالات نومه ويقظته، فوجدها كما عنده في الكتاب. ثم نظر في ظهره فرأى شامة سوداء بين كتفيه كأنها الخاتم؛ فعرف أنها علامة النبوة، وأيقن أنه هو النبي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، والذي بشر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

رعى الغنم

الحس الدقيق

كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دقيق الحس مرهف الشعور، وكان على صغر سنه يدرك ثقل الحمل على عمه أبي طالب، ويدرك ما هو عليه من قلة المال وكثرة العيال، فكان من أجل ذلك دائم التفكير في الوسيلة التي يستطيع بها أن يخفف هذا الحمل عن عمه.

كان يود أن يقوم بنصيب في حمل هذا العبء. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وهو لا يزال صبياً صغير السن، غرضاً طرئ العود، لا يقوى على ما يقوى عليه الرجال من مشاق الكفاح في سبيل العيش، ولا سيما في هذا البلد القفر الذي يعتمد جُلُّ أهله في حياتهم على التجارة؛ والتجارة في مثل هذا البلد عمل شاق عسير، يتطلب السفر البعيد الشاق في متاهات الصحراء ودروبها الوعرة، ويتطلب فوق ذلك الذرية الطويلة والمرونة الواسعة، في البيع والشراء والأخذ والعطاء، كما يتطلب أن

يكون المرء على شيء من المكر وسعة الحيلة، حتى لا يقع في أحابيل المكرّة من التجار وما أكثرهم.

وليست مكة كذلك بلدًا زراعيًا، فيستطيع أن يزاول مهنة الفلاحة بالأجر عند الناس، أو في أرض عمه إن كان له أرض. . لو كان في يثرب لاستطاع أن يشتغل فلاحاً في الأرض، أو أباراً^(١) للنخل، أو بستانياً في أحد بساتينها الكثيرة، أو صانعاً في إحدى صناعاتها التي يتخذها أهلها من النخيل والأعناب؛ ولكنه في مكة، ومكة بلد قفر بواد غير ذى زرع، تحيط به الجبال من جميع نواحيه. وهي جبال صخرية جرداء، لا ينبت فيها شجر ولا نبات؛ إلا بعض أعشاب ضئيلة ذاوية، وشجيرات قليلة شائكة، تنبت متفرقة هنا وهناك في بعض أوديتها البعيدة، فيخرج إليها أهل مكة يُسيمون^(٢) فيها جمالهم، ويرعون أغنامهم. على أنها مع ذلك شيء قليل لا يُسمن ولا يغني من جوع.

فلم يكن بُدُّ إذن لمن يريد أن يعمل من صبيان مكة، إلا أن يكون راعياً يرعى الغنم، أو يُسيم الجمال والأنعام؛ لأن هذا هو العمل السهل الذى يلائم أسنان الصبيان، ويناسب جهودهم وقدرتهم.

(١) الأبار: الذى يقوم بشئون النخل من تقليم وتلقيح وتذنية وغير ذلك.

(٢) يسيمون: يرعون.

رعى الغنم

من أجل ذلك عمل رسول الله ﷺ أولَ ما عمل في رعى الغنم، رغبةً منه في معاونة عمه أبي طالب، فكان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، وكان يرعى غنم أهله بأجياد. و«أجياد» واد من وديان مكة مما يلي الصفا، لعله كان كثير المرعى، ولعله كان أول واد ذهب إليه رسول الله ﷺ يرعى فيه غنم أهله لقربه من عمران مكة، أو لعله كان أكثر المراعى عُلوًّا بنفسه، لكثرة تردده عليه والمجذابه إليه.

ولله الحكمة البالغة إذ جعل هذه المهنة - مهنة رعى الأغنام - هي مهنة الأنبياء، يبدءون حياتهم برعى الأغنام، ثم يخدمونها برعاية الخلائق.

حدّث جابرُ بن عبد الله قال: «كنا مع النبي، ﷺ، نجنى الكَبَاث^(١)، فقال: "عليكم بالأسود منهم فإنه أطيبه فإن كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم". قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: "نعم، وما من نبي إلا وقد رعاها".»

وأخبر أبو إسحاق أنه كان بين أصحاب الغنم وأصحاب

(١) الكبّاث: مانسج من ثمر الأراك. والأراك هو الشجر الذي يؤخذ منه السواك.

الإبل تنازع، فاستطال عليهم أصحاب الإبل. قال: قبلنا - والله أعلم - أن النبي، ﷺ، قال: «بُعِثَ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثَ دَاوُدُ، عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثَ وَأَنَا أَرَعِي غَنَمَ أَهْلِ بَاجِيَادٍ».

رعيان مكة

ولاشك أنه، عليه الصلاة والسلام، لم يكن يرعى الغنم وحده، بل كان له أصحاب يرافقونه ويرعون معه، منهم من يرعى غنم أهله، ومنهم من يرعى غنم سادته، ومنهم من يرعى أجيراً عند أصحابها من أغنياء مكة. وكانوا يحكم المهنة رفقاء، يتصاقفون أحياناً ويتخاصمون أحياناً، ويمجنون أحياناً ويلعبون أحياناً، وربما دفعهم الخصام إلى التناذب بالألقاب، أو التناول بالشم والسباب، أو التضارب بالأيدي والعصى؛ وربما دفعهم اللهو إلى بعض عادات الجاهلية، وإلى الإسفاف والتدق من الإثم.. إلّا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد شب يكلؤه^(١) الله ويحوطه، ويحفظه من أمور الجاهلية ومعايها، فما رُئِيَ قَطُّ منازعاً ولا مخاصماً، ولا حقوداً ولا حسوداً؛ بل نشأ أحسن قومه خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأفضلهم جواراً وأرغبهم في الجد

(١) يكلؤه: يحفظه ويصونه.

وأزهدهم في اللهو، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال.

كان الله يحفظه

وكان صلى الله عليه وسلم، يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأيام جاهليته، فيقول: «لقد رأيتني في غلمان من قریش ننقل الحجارة لبعض مايلعب الصبيان، كلنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة؛ فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكنى لاكم ماأراه لكمة وجيعة، ثم قال: شدُّ عليك إزارك..! (قال): فأخذته فشددته علىّ، ثم جعلت أهل الحجارة على رقبتي وإزاري علىّ من بين أصحابي».

وحدث علىّ بن أبي طالب قال: «سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهْمون به؛ إلا ليلتين كتأهما عصمى الله عز وجل، فيها: قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن رِعَاءٌ في غنم أهلها: أبصِرْ لى غنمى حتى أدخل مكة أسمرُ فيها كما يسمرُ الفتيان. فقال بلى. (قال): فدخلت حتى أتيت أول دار من دور مكة، فسمعت عَزْفًا بالغرابيب والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة؛ فجلست أنظر.. وضرب الله على أذنى، فوالله ما أيقظنى

إلا مس الشمس؛ فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟
فقلت: ما فعلت شيئاً؛ ثم أخبرته بالذي رأيت.. ثم قلت له
ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر؛ ففعل، فدخلت؛ فلما
جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة؛ فسألت،
ف قيل: نَكَح^(١) فلان فلانة؛ فجلست أنظر.. وضرب الله على
أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي
فقال: ما فعلت؟ فقلت: لاشيء؛ ثم أخبرته الخبر.. فوالله
ما هممت ولا أعدت بعدهما لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله عز
وجل بنبوته^(٢).

(١) نكح: تزوج.

محمد في قومه

كان مثالا للكمال الإنساني

نشأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين قومه في مكة، يعيش فيها كما يعيش الناس؛ يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويلبس كما يلبسون، ويخضع لأحكام البيئة وتقاليدها في الأخذ والعطاء، والبيع والشراء، والسفر والإقامة؛ ويشارك القوم في أفراحهم وأتراحهم، وفي شغلهم وفراغهم، وفي كل ما تمليه ظروف الحياة عندهم من حرب وسلم، وبناء وهدم، وصلح وخصام.

غير أن رسول الله ﷺ كان يمتاز على كل من يعيشون في بيئته بطابع خاص لا يشاركه فيه غيره، هو طابع الكمال في كل شيء؛ ذلك أن الله جلت قدرته تولاه منذ طفولته بالحفظ والصيانة، فعصمه من عبث الجاهلية وفسادها، وطهره من أدناسها وخبائثها، فكان صورة ماثلة للكمال الإنساني، ونموذجاً حياً للفضيلة في كل ما يأتي وما يدع.

كان شاباً فيه حماسة الشباب ودوافعه وتزعزعاته، ولكنه لم يكن يتنزل إلى ما يتنزل إليه الشباب من عبث وهوى، ولم يكن يرضى لنفسه أن يهبط إلى المستوى الذى يدنس الرجولة أو ينافى الكرامة.. كان فى مكة بيوت كثيرة للهوى، فيها الخمر والميسر، وفيها الغناء والسمر، وفيها العبث والمجون، وفيها كل ما يُرضى مُجوح الشباب من لذة ومتاع.. وكان للشباب فى تلك البيوت مآربٌ شتى، تهفو إليها نفوسهم، وتسعى لها أرجلهم؛ إلا محمد ابن عبد الله، فقد عَزَفَ بطبعه عن كل ذلك، وتعالى بنفسه عن مواطن الريبة ومواضع الخسة؛ فا رُئى يوماً قط لاهياً ولا عابثاً، ولا آثماً ولا فاحشاً، ولا معاقراً خمرًا ولا قَمَرًا^(١)، ولا متدنسًا فى نَزْوَةٍ من نَزَوَاتِ الشباب الجاحمة، بل كان سمته^(٢) الجد والعفاف، وطابعه الوقار والكمال، مع سماحة فى الطبع، وطلاقة فى الوجه، وحلاوة فى اللسان، جعلته محببًا إلى كل من يعاشره أو يجادته أو يلقاه.

سموه «الأمين»

وعرف له أهل مكة هذا السَّمْتِ الوَقُورِ، وهذا الخلق الرضى، فأحبوه وأكبروه، ووصفوه بأحسن ما يمكن أن يوصف

(١) الفمر: لعب القمار.

(٢) السم: الهيئة التى يكون عليها الشخص ويتميز بها من غيره.

به إنسان من صفات الكمال، فلقبوه «بالأمين»؛ وأصبح هذا اللقب وصفًا مميزًا له دون غيره، حتى صار علمًا عليه لا ينأى ولا يُذكر إلا به. فقد عرفوه منذ نشأ فيهم، وهو الصادق الذى لا يكذب، والوفى الذى لا يغدر، والناصح الذى لا يُغش، والأمين الذى لا يخون؛ كما عرفوه طاهر النفس، واسع الحلم، رحيم القلب، جَمّ التواضع، وعرفوا فيه كرم العشرة، وحسن الجوار، ورجاحة العقل، وعلوَّ الهمة، والزهد فيما يتكالب الناس عليه من متاع الدنيا، والبعد عن كل ما يحبط من أقدار الرجال؛ ولسوا فيه من صفات الخير ما لم يألفوه فى أحد من أقرانه ولا من أهل بيئته.

نعم، رأوه شيئًا آخر غير ما يرون فى بيئتهم؛ فقد كانوا قومًا غلاظ الأكباد غُلّفَ القلوب، يتهاكون على اللذات، ويتجاهرون بالمنكرات، ويستبيحون المحرمات؛ قد فشا فيهم الربا والخمر والميسر، وشاع بينهم السلب والنهب وحب الانتقام. ولم يكن لهم وازع من خلق ولا دين يكبح جماحهم، ويردهم عما يرتعون فيه من غى وضلال. بل كانوا يعبدون الأصنام، ويؤمنون بالخرافات والأوهام، ويقدمون العادات والتقاليد، مهما تنافت مع العقل أو تعارضت مع الفضيلة.

عصمة الله

وقد عصم الله رسوله ﷺ من هذه الموبقات، وطهره من هذه الأرجاس، فلم يسجد قط لصنم من الأصنام، ولم يعبد قط وثناً من الأوثان، ولم يشارك القوم قط فيما كانوا يقومون به لهذه الألهة الكاذبة، من تقديم القرابين، وإقامة الصلوات، وإحياء المواسم والحفلات، ولم ينحرف قط في شيء مما كانوا ينحرفون فيه عن سنن الحق والعدل.

عن ابن عباس قال: «حدثتني أم أيمن قالت: كان «بُؤَابَةُ» صنماً تحضره قريش تعظمه؛ تنسك له النساء^(١)، ويحلقون رءوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل - وذلك يوماً في السنة - وكان أبو طالب يحضره مع قومه؛ وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذلك؛ حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا..! وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً..! (قالت): فلم يزلوا به حتى ذهب؛

(١) النساءك: مظاهر العبادة والتفديس.

فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوبًا فزعًا؛ فقلن له
 عماته: ما دهاك؟ قال: «إن أخشى أن يكون بي كم^(١)». فقلن:
 ما كان الله لِيَبْتَلِيكَ بالشیطان وفیک من خصال الخیر
 ما فیک؛ فما الذی رأیت؟ قال: «إن کلما دنوت من صنم
 منها، تمثل لی رجل أبيض طویل یصیح بی: وراءک یا محمد،
 لا تمسه..!» (قالت): فما عاد إلى عید لهم حتی تنبأ^(٢).

وعن زید بن حارثة، رضی الله عنه. قال: «کان صنم من
 تُحاس یقال له «أسافٌ ونائلة» یتمسح به المشركون إذا طافوا
 بالكعبة؛ فطاف رسول الله یومًا وطففت معه. فلما مررت بالصنم
 مسحت به؛ فقال، صلی الله علیه وسلم،: «لا تمسه..!»
 (قال زید): ثم طفنا فقلت فی نفسی: لأمسنه حتى أنظر ماذا
 یكون. فمسحته، فقال رسول الله، صلی الله علیه وسلم: «الم
 تنه؟» (قال زید): فوالذی أكرمه وأنزل علیه الكتاب،
 ما استلم صنما قط، حتی أكرمه الله تعالی بالذی أكرمه وأنزل
 علیه!

(١) لم: مس من الجن.

(٢) تنبأ: حتى صار نبيا.

كان يشارك في معالي الأمور

ومع أن رسول الله ﷺ كان يخالف قومه في كثير من عاداتهم وأخلاقهم، فإنه كان يعيش بينهم كواحد منهم، يالفهم وبالفونه، ويحبهم ويحبونه، ولم تكن أخلاقهم تلك الجافية، ولا عاداتهم المردولة، تجعله يشذ في معاملتهم، أو يتأفف من معاشرتهم؛ ولم تكن مخالفته لهم في الطبع تمنعه أن يشاركهم فيما لا ينافي الفضيلة من أعمالهم وتقاليدهم.

شارك في حرب الفجار

فقد حضر مع قومه «حرب الفجار»، وهى حرب قامت بين قريش وهوازن؛ وكان سببها أن رجلا من قريش غدر برجل من هوازن، فقتله فى الأشهر الحرم، وهى الأشهر التى حُرِّم فيها القتال. وكان العرب يقصدونها ويمتنعون فيها عن القتال. وقد ساهم فيها رسول الله ﷺ مع قومه، وهو بين الخامسة عشرة والعشرين؛ فكان أحيانا يجمع السهام التى يرمى بها الأعداء، ويردها على أعمامه ليصيبوا بها أعداءهم، وأحيانا كان يرمى السهام معهم كما يرمون. وقد دامت هذه الحرب أربع سنين، فلم تنته إلا بعد أن تصالحت قريش وهوازن على أن يعدوا

القتلى من كلا الفريقين، ثم يدفع الفريق الأقل عددًا في القتلى دية العدد الذى يزيد على قتلاه.

وقد حدثت، صلى الله عليه وسلم، أصحابه عن حرب الفجار. فقال: «قد حضرته مع أعمامى، ورميت فيه بسهم، وما أحبُّ أنى لم أكن فعلت». . . وفي رواية أخرى يقول: «كنت أُبَلِّ على أعمامى»؛ أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

وشارك في حلف الفضول

وشهد رسول الله «حَلَفَ الْفُضُولِ» وهو فى سن العشرين. وهو حلف تداعت فيه قريش إلى نُصرة المظلوم؛ فاجتمع رجال بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى أسد وبنى زهرة وبنى تميم، فى دار رجل من أشرافهم يقال له عبد الله بن جُدعان، فتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا إلا نصروه وكانوا معه، حتى يُرد إليه حقه؛ فكان هذا الحلف أكرم حلف وأشرفه سُمع به فى العرب وقد حدثت، صلى الله عليه وسلم، أصحابه عن ذلك الحلف فقال: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحبُّ أن لى به مُحَرَّم النَّعَم^(١)، ولو دُعيت به فى الإسلام لأجبت».

(١) حمر النعم: نوع من الإبل ممتاز، كان يضرب به المثل فى الجودة والقيمة، كأنه أحسن شئ. يقتنى عند العرب.

وشارك في بناء الكعبة

وشارك رسول الله ﷺ قومه في بناء الكعبة، وهو في الخامسة والثلاثين. وكانوا أرادوا أن يجددوا بناءها، حين أصابها السيل فصدع جوانبها وهدم أركانها، فاشترك في ذلك رجالهم ونساؤهم، فكان، صلى الله عليه وسلم، يزامل عمه العباس في نقل الحجارة.. فلما بلغوا موضع الركن - وهو الحجر الأسود - أرادوا أن يضعوه في مكانه، فاختلفوا: أيهم ينال ذلك الشرف العظيم؟ وكان للحجر الأسود في نفوسهم منزلة من الإجلال والتقدير لا تدانيها منزلة؛ واشتد بينهم الخلاف حتى هموا أن يتحاربوا، لولا أن رجلاً حازماً منهم دعاهم إلى أن يحكموا بينهم في هذا الأمر، أول من يدخل عليهم من باب المسجد؛ فارتضوا ذلك الرأي واتفقوا عليه، ووقفوا ينظرون أول داخل عليهم من ذلك الباب، فكان هو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ففرحوا جميعاً واستراحوا لرؤيته، وقالوا: «هذا الأمين.. رضينا»..!

وكان، صلى الله عليه وسلم، قد عرف بينهم بسداد الرأي وصواب الحكم، فقصوا عليه قصتهم وأخبروه بما كان من أمرهم فقال صلى الله عليه وسلم: «هَلُمُّوا إِلَى ثَوْبِي»^(١). فجاءوه

(١) هلموا: احضروا لي ثوباً.

بالثوب، فأخذ الثوب فبسطه على الأرض، ثم أخذ الحجر فوضعه في وسط الثوب، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً».. فوضعه بيده في مكانه ثم بنى عليه.

حدّث ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت.. قال: «... وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال تنقل الحجارة، والنساء تنقل الشيد^(١)». (قال): فكنت أنا وابن أخي، وكنا نحمل على رقابنا وأزُرنا تحت الحجارة، فإذا غَشِينَا النَّاسُ اثْتَرْنَا، فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي، خَرَّ وانبطح على وجهه، فجئت أسعى وألقيت حجري، وهو ينظر إلى السماء. فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره وقال: «إني نُهِيت أن أمشي عرياناً». (قال العباس): وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا: مجنون».

وشارك في أعمال التجارة

وكان، صلى الله عليه وسلم، يشارك قومه في غير ذلك من الشئون، ويعمل كواحد منهم في كل ما تمليه ظروف الحياة وطبيعة البيئة.

(١) الشيد : المونة.

وكانت التجارة مهنة شائعة في مكة، يشتغل بها كثير من أهلها؛ فاشتغل رسول الله ﷺ بالتجارة، كما يشتغل غيره من الأحرار، وكان له فيها شريك يسمى السائب بن أبي السائب. وكان صلى الله عليه وسلم، يستريح إليه ويُثنى على أخلاقه، ويضربه لأصحابه مثلًا للرفيق الصالح والشريك السمح، فيقول: «نعم الشريك السائب، لا يُشارى ولا يمارى!»..

وجاءه السائب يوم فتح مكة، فأكرمه وأحسن استقباله، وعرف له مكانته، وتلقاه فرحًا به وهو يقول: «مرحبًا بأخي وشريكي! كان لا يدارى ولا يمارى»^(١).

وما زال، صلى الله عليه وسلم، يشتغل بالتجارة وغيرها من شئون الحياة، حتى أكرمه الله بكرامته، واختاره من بين قومه ليرسله إلى الناس شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

(١) لا يمارى: لا يجادل ولا يناصم.

خديجة

مكانة خديجة

كان محمد مثلاً عالياً بين أهل مكة، ترونو إليه عيونهم، وتنفو إليه قلوبهم، ويقع منهم جميعاً موقع الإكبار والإعجاب والحب؛ فقد عرف بين شباب مكة بالرزانة والجد والاستقامة، وعرف بين رجالها بالحزم وعلو الهمة وسداد الرأي؛ وكان فوق ذلك جَمَّ التواضع، لطيف العشرة، حلو الحديث؛ يحادث الصغار ويتودد إليهم، ويجالس الكبار ويتواضع لهم، ويخالط المساكين ويعطف عليهم؛ فلم يكن أحد في مكة، إلا ويُكبر محمداً ويحبه ويُعجب به.

وكانت خديجة بنت خُوَيْلِدٍ مثلاً بين نساء مكة، في الجمال والشرف وطهارة النفس؛ وكانت كثيرة المال وافرة الثراء، لها تجارة واسعة ترسلها إلى الأسواق مع ما ترسله قريش من قوافلها؛ وكانت قافلتها أحياناً تُعَدِّلُ قوافل قريش بأجمعها. وكانت تستأجر الرجال من أهل مكة ليتجروا لها، فتختار لذلك

من تثق به وتطمئن إليه، على نصيب معين من الأجر تدفعه لهم.

رغبتها في محمد

وكانت خديجة تعرف محمداً وتلاحظه منذ نشأته، لأنه من بنى عمومتها، يلتقى نسبها معاً في قُصَى بن كلاب؛ وكان قلبها يهفو إليه، وعينها تتبعه كلما مر غادياً أو رائحاً؛ وكان يروقها منه خلقه القوي، وطبعه الرضوي، وسَمته المعجِب. فلما اكتمل شبابه واستوى عوده، رغبت إليه في أن يخرج في مالها تاجراً، فقبل منها ذلك، وأخذ يتجر لها في أسواق مكة وما حوالها، وكان يشاركه في ذلك رجل آخر - لعله هو السائب بن أبي السائب - وكانت خديجة تكرمهما وتبرهما، وتُحفهما بالطفافها كلما حضرا إليها.

روى مَعْمَرُ عن الزُّهْرِيِّ قال: «لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغ أشُدَّهُ، وليس له كثير مال، استأجرته خديجة إلى سوق حُباشة - وهو سوق بِنهامة - واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش... قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم،: "ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة.. ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها مُحفَّةً من طعام تُحِبُّه لنا"».

وروى حزام بن حكيم أنه رأى رسول الله ﷺ وهو يتجر في سوق حُباشة، واشترى منه بَرًّا^(١) من بَرِّتهامة.

كانت تجزل له العطاء

ولا شك أن خديجة ارتاحت إلى رسول الله ﷺ، ولمست فيه ما كان يبلغها عنه من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم خلقه؛ فنزل من نفسها منزلة الإعجاب والرضا، ورغبت في أن تدوم بينه وبينها هذه العلاقة، فجعلت تُجزل له الأجر وتضعفه، إبقاءً على مودته وحسن صحبته. وكان، صلى الله عليه وسلم، قانعاً، متجملاً بالحياء والرضا على كل حال، ولكنه مع ذلك كان يسره إرضاء عمه أبي طالب. وكانت خديجة يسرها كذلك أن ترضيه.

روى عن عبد الله بن محمد عن عُقَيْل: «أن أبا طالب قال لرسول الله يوماً: يا ابن أخي، قد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً ببيكرين^(٢)، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن نكلمها؟ قال: «ما أحببت». فخرج إليها أبو طالب فقال: قد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببيكرين، ولسنا

(١) البر: نوع من الثياب.

(٢) البكر: الفقى من الإبل، والأنثى بكرة.

نرضى لمحمد دون أربع أبنكار. (قال) فقالت خديجة : لو سألت ذلك لبغيض بعيد فعَلْنَا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب؟.. (قالوا) فرجع أبو طالب راضياً يقول لابن أخيه : هذا رزق ساقه الله إليك».

السفر إلى الشام

وحين بلغ، صلى الله عليه وسلم، خمساً وعشرين سنة، رغبت خديجة في أن يكون هو الذى يسافر بتجارتها إلى الشام؛ ولكنها كانت تعلم أن عمه أبا طالب حريص أشد الحرص على ألا يبعد به كثيراً عن نطاق مكة، ضنين به على كل سفر يُطَوِّح به فى البعد عن هذا البلد الأمين.

فأخذت تتلطف وتحتال، حتى أقنعت أبا طالب بأن يأذن لابن أخيه فى الرحلة إلى الشام، مع غلامها ميسرة؛ على أن تعطيه ضعف ما تعطى رجلاً من قومه. وكانت سنون مجدبة، وأزمة شديدة، فلم يلبث أبو طالب أن استجاب، وعرض على ابن أخيه أن يذهب فى تجارة خديجة إلى الشام؛ فقبل صلى الله عليه وسلم، ما عرضه عليه عمه، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة، وأعمامه يوصون به وبالبغون فى التوصية. وانطلقت القافلة تسير فى الصحراء المترامية، وتمعن فى

دروها الوغرة، والشمس ترسل أشعتها شواطئاً من نار، يَشوى
الوجوه ويُلهب الأجسام، وكلما أعيهاها السير وأجهدتها الحر نزلت
منزلاً لتستريح؛ حتى إذا كانت في أحد المنازل مرة، نزل، صلى
الله عليه وسلم، في ظل شجرة، قريباً من ضومعة راهب، فاطَّلَعَ
الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه
الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.
فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

وحين وصلت القافلة إلى الشام باع، صلى الله عليه وسلم،
سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل
قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة. فلما قدم على خديجة باعت ما جاء
به، فربحت ضعف ما كانت تبيع، وأضعفت لرسول الله ضعفَ
ما سَمَّت له.

إرهاصات النبوة

وحدَّث ميسرة سيده بما رأى من إرهاصات النبوة،
وبما رأى من محمد أثناء رحلته من كرم الخلق، وصدق الوفاء،
وحسن الصحبة، وعظم الأمانة، وبما لم ير مثله من صاحب قط
في أثناء رحلته.

وكانت خديجة امرأة شريفة لبيبة، حازمة جَلْدَةً^(١)، تحسن
تصريف الأمور في إحكام وروية وصبر؛ وكانت أوسط قریش
نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً؛ وكان أشرف قومها
يحرصون على زواجها، ويبذلون في ذلك الأموال، ويعتدون
الوعود، ويؤمنون الأمان؛ ولكن خديجة كانت تردهم جميعاً، وتأبى
عليهم ما يريدون من ذلك.

وكان الله، سبحانه قد كتب لها الكرامة وأراد بها الخير،
فألقى في نفسها أمنية كريمة، وبعث في قلبها عاطفة شريفة،
أحست بها نحو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أخبرها
ميسرة بما أخبرها به ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، تسأله
فيما أخبرها به ميسرة. وكان ورقة بن نوفل قد قرأ كتب
النصرانية، وعلم مما قرأ فيها أن نبياً سيظهر في أرض العرب قد
آن أوأته، وأن إرهابات النبوة^(٢) توشك أن تظهر بين يدي^(٣)
هذا النبي. وأدرك ورقة أن ما عليه محمد من سمو الصفات،
وما يبدو فيه من جلال الآيات، جدير بأن يجعله أهلاً لهذه
النبوة؛ فأوحى إلى خديجة بأن محمداً يوشك أن يكون هو هذا

(١) الجلد: القوى الذي لا يضعف أمام الشدائد.

(٢) إرهابات: مقدماتها وبيادرها.

(٣) قبيل ظهوره.

النبي، فزاده ذلك في نفسها مكانة إلى مكانته، وتحدث قلبها برغبة مُلحة في أن تكون زوجًا له.

قالت نُفَيْسَةَ بنت مُنِيَةَ: «فأرسلتني دسيئًا إلى محمد بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت: يا محمد، ما يمنعك من أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به». فقلت: فإن كُفَيْتَ ذلك، ودُعِيتَ إلى الجمال والمال والشرف والسكفاء، ألا تحيب؟ قال: «من هي؟» قلت: خديجة. قال: «ومن لي بذلك؟» قلت: عليّ: قال: «فأنا أفعل». فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ات ساعة كذا وكذا».

وقد روى أنه ذهب إليها، فقالت له: «يا ابن العم، لقد رغبت فيك لقربانتك وسِطْنِكَ^(١) في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك». ثم عرضت نفسها عليه. فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ سرَّ به، وذكره لأعمامه فسروا به كذلك. وأرسلت خديجة إلى عمها عَمْرٍو بن أسد ليزوجها، فحضر، ودخل رسول الله ﷺ في عمومته، فزوجه أحدهم.

وقيل: إن الذي زوجه عمه أبو طالب، وإنه خطب في ذلك خطبة فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم

(١) سطنك: مكانتك.

وزرع إسماعيل..! وجعلنا حَصَنَةً بيته وسُوَاسَ حرمه^(١)، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس. ثم إن ابن أخى هذا، محمد بن عبد الله، لا يُوزَنُ به رجلٌ شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترَدَّة^(٢). وهو - والله - بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل! وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصَّدَاق^(٣) كذا وكذا».

فأجابه عمرو بن أسد بقوله: «هذا البُضْعُ لا يُجَدُّ أنفه». ومعناها في اصطلاح العرب، أن عمداً قطعة منهم وليس غربياً عنهم، وأنه كفاء كريم لا يمكن أن يُرَدَّ أو يهان.

زوجان سعيدان

وتزوجها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصدقها عشرين بَكْرَةً، فولدت له القاسم - وبه كان يُكَنَّى أبا القاسم - ثم ولدت له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم - وكان ذلك قبل النبوة - ثم ولدت له في الإسلام عبد الله، فسُمي الطيب والطاهر.

(١) سواس الحرم: سدة البيت وخدام الحرم.

(٢) يعني أن المال لا يبق على حال، بل ينتقل من شخص إلى آخر.

(٣) الصَّدَق: المهر.

وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة؛ وكان عمرها أربعين، وقيل خمساً وثلاثين، وقيل خمساً وعشرين؛ وروى عن ابن عباس أنها كانت في الثامنة والعشرين ولم تتجاوزها.

ومهما يكن من شيء فقد كان زواجاً موفقاً سعيداً، كان فيه محمد نعم الزوج، وكانت خديجة نعمت الزوجة، وعاشا معاً زوجين هائنين؛ حتى إذا أكرم الله محمدًا برسالته، كانت خديجة له رِدْءًا وعونًا، وحصناً يعتصم به من عوادي الدهر؛ يستلهم منها الأمن عند الخوف، ويستمد منها القوة عند الضعف، ويجد فيها السكينة عند القلق والاضطراب.. صدّفته حين كذبه الناس، وأمنت به حين كفر الناس، وأغتنه بما لها، وغمرت به بإخلاصها، وملأت نفسه عزمًا وقوة، وملأت قلبه طمأنينة ورضًا، وملأت حياته هدوءاً وسكينة؛ فاندفع في طريقه الوعر^(١)، يقاوم أعداء الحق، ويجاهد أنصار الباطل، ويكشف ظلمات الكفر والطغيان، حتى ظهر نور الحق، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

(١) الوعر: الشاق.

صدق الوفاء

من أجل ذلك كان، صلى الله عليه وسلم، بعد وفاة خديجة، دائم الذكر لها والحنين إليها، يترحم عليها، ويتحدث بأيامها، وَيَبْرُ صَوَاحِبَهَا^(١)، ويتهلل لمن يراه من أهلها؛ حتى إن عائشة، رضى الله عنها، كانت تغار منها بعد وفاتها، وتغضب حين يذكرها النبي أو يُثنى عليها.

روى مسلم عن عائشة قالت: «ما غرت على نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا على خديجة، وإن لم أدركها. (قالت): وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا ذبح الشاة... فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة». (قالت): فأغضبت يوماً فقلت: خديجة!.. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إنى رزقت حبا"».

وكذلك روى البخارى عنها قالت: «ما غرت على أحد من نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، وما رأيتها. ولكن النبي، صلى الله عليه وسلم، يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها إلى صديق خديجة؛ فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة!...

(١) يبر: يعطى أصدقاءها ويصلهم.

فيقول: «إنها كانت... وكانت.. وكان لي منها ولد!»
وروى البخارى ومسلم عن عائشة، قالت: «استأذنتُ هالة بنت خويلد - أخت خديجة - على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فعرف استئذانَ خديجة، فارتاع - أوفارتاح - لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد...!» فغرت؛ فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين^(١)، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها؟»

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: «كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء. (قالت): فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها..! حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها..! قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وآستني بماها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء..!»»

* * *

لقد تركت خديجة في حياة النبي، صلى الله عليه وسلم، أعظم الأثر؛ فلم يكن عجباً أن يمتلئ بحبها هذا الامتلاء، وأن يني لذكرها هذا الوفاء، وأن تفيض عواطفه كلما ذكرها بالحمد

(١) حمراء الشدقين: كناية عن سقوط أسنانها.

والثناء. ولقد عرف الله، عز وجل، لخديجة قدرها، فحيّاها من فوق سبع سماواته، وبشرها على لسان جبريل بيت من لؤلؤ في الجنة، يسوده الهدوء والسكينة، وتغشاه السعادة والطمأنينة، جزاء ما أسبغت على حياة رسوله ﷺ من راحة ونعيم، وما أمدته به من أسباب العزم والقوة، حتى استطاع أن يبلغ الرسالة، ويؤدى الأمانة، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: «أتى جبريل النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام - أو طعام أو شراب - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها بيت في الجنة من قصب^(١)، لا صَحْبَ فيه ولا نَصَبَ».

(١) من قصب: من لؤلؤ.

بشائر النبوة

الرسول الخاتم

أشارت الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله وأنبيائه؛ إلى رسول يكون آخر الرسل وخاتم الأنبياء، يرسله الله إلى الناس كافة، ليجمعهم على دين واحد وشرعة واحدة، إذ أن كل رسول قبله كان يرسل إلى قومه خاصة، ليعالج ما فسد من أمورهم، بالطريقة التي تلائم حالها، وتناسب استعدادهم.

فقد بُعث نوح إلى قومه خاصة، وبعث إبراهيم إلى قومه خاصة، وبعث لوط إلى قومه خاصة، وبعث هود إلى عاد، وبعث صالح إلى ثمود، وبعث شعيب إلى أصحاب الأيكة^(١)؛ وكلما فسدت أحوال قوم وضلوا عن طريق الحق، أرسل الله إليهم رسولا منهم يهديهم إلى الطريق، فإذا لجأوا في الضلال، وتعادوا في العصيان، أرسل إليهم رسولا بعد رسول، كما صنع

(١) الأيكة : المكان الذي يكثر فيه الشجر.

مع بنى إسرائيل، إذ أرسل إليهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى والياس.

فلما نضج العقل البشرى، وارتقى العلم بالشعوب، وارتبطت الأمم بعضها ببعض.. أراد -سبحانه- أن يرسل إلى الناس كافة رسولا يختم به رسله، ويكمل به دينه، ويُتم به نعمته على عباده؛ ليكون الناس في جميع الأمم والشعوب، وفي جميع الأمكنة والأزمنة، أمة واحدة، يدينون بدين واحد، ويسرون على منهاج واحد، ويعيشون في ظل هذه الوحدة إخواناً متآلفين، يسودهم الأمن والسلام، ويجمعهم الحب والتراحم.

وكان الأنبياء والمرسلون جميعاً، يعلمون بأمر هذا الرسول، ويبشرون به قومهم، ويأخذون العهود والمواثيق عليهم، أن يؤمنوا به وينصروه إذا أدركهم زمانه. ويقول بعض المفسرين: إن الله، سبحانه وتعالى، قد أشار إلى هذا الرسول في قوله، عز وجل، من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي^(١)؟ قَالُوا: أَقْرَرْنَا؛ قَالَ: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ^(٢)﴾.

(١) الإصر: العهد والثقل، وهو هنا بمعنى العهد.

(٢) سورة آل عمران الآية ٨١.

صفته في الكتب السماوية

وقد جاء في التوراة التي أنزلت على موسى، وفي الإنجيل الذي أنزل على عيسى، ووصف هذا النبي ووصف أصحابه، ووصف المبادئ السامية التي جاء بها؛ وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم، حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ^(١) وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ؛ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ؛ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢).

وحيث يقول، سبحانه، في سورة الفتح: ﴿مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ

(١) ما أنقلهم من التكاليف.

(٢) سورة الأعراف آيتا ١٥٧، ١٥٨.

أثر السُّجود ذلك مثلهم في التَّوَارِثِ ومثلهم في الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَاةً فَآزَرَهُ^(١)، فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(٢).

هو محمد بن عبد الله

وكانت هناك دلائل كثيرة، تدل على أن هذا الرسول الكريم، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن قُصَيٍّ... الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام.

فقد دعا به إبراهيم، عليه السلام، لأهل مكة، إذ قال وهو يرفع القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣). وبشر به عيسى بن مريم وعينيه بالاسم إذ قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوَارِثِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٤).

(١) الشطه: ما يخرجه الزرع من أولاده وفراخه لينقوى بها ويتكاثر.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٩.

(٤) سورة الصف الآية ٦.

وكان من أسمائه، صلى الله عليه وسلم، محمد وأحمد فقد سماه جده «محمدًا» وكانت أمه تدعوه «أحمد». وفي ذلك يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبَشَرُ بَنِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ.. أنا محمد وأحمد، أنا رسول الرحمة.. وأنا الماحي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيْ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي».

وقد وصفت التوراة والإنجيل بلادَ العرب بأنها أرض النبي المنتظر؛ ولعل هذا كان من الأسباب التي دعت اليهود والنصارى إلى أن يستوطنوا أرض الجزيرة العربية.

وكانت هناك إرهاباتٌ ومقدّمات تدل على قرب زمانه. وقد استفاضت بذلك الأخبار، حتى إن بعض الحنفاء^(١) الذين صَفَتْ أرواحهم واستنارت بصائرهم، طَمَعُ في أن يكون هو هذا النبي، وحتى إن بعض العرب سمى ولده «محمدًا»، طمعًا في أن يكون هو النبي المنتظر؛ وطائفة لاحت قلوبهم للإيمان بالحق، فانطلقوا سائحين في الأرض، يبحثون عن هذا النبي ويتلمّسون مكانه.

(١) الحنفاء: هم الذين كانوا يبحثون عن الخليفة دين إبراهيم.

أحاديث الأحبار والرهبان عنه

وكان الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى، يتحدثون بأمر رسول الله قُبِيلَ مَبْعَثِهِ، لما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه؛ حتى إن يهود المدينة - وهي يثرب - كانوا يعتقدون أنه منهم، ويتوعدون به أهلها من العرب، لما كان بينهم وبينهم من حَزَازَاتٍ^(١) ومنافسات.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عُمر بن قَتَادَةَ الأنصاري، عن رجال من قومه قالوا: «إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهده لنا - أن كنا نسمع من يهود؛ وكنا أهل شِرْكٍ وأوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: "إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرمٍ". فكننا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلما بُعِثَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فأمننا به وكفروا به.. ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ

(١) حَزَازَاتٍ : ضغائن.

عِنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ .

وروى كذلك عن ابن عباس : أن يهود كانوا يستفتحون^(٢) على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه؛ فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه..

وذكر أبو بكر الخرائطي عن أبي سَوِيَّةٍ عن أبيه خليفة، قال : سألت محمد بن ربيعة بن سواة بن خُثَيم بن سعد، فقلت : كيف سُمِّيتَ أبوك «محمدًا»؟ فقال : سألت أبي عما سألتني عنه، فقال : خرجت رابعَ أربعة من بني تميم، أنا منهم، وسفيان بن مجاشع بن دارم، وأسامة بن مالك بن جُنْدُب بن العقيد، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن، ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان. فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجيرات، فتحدثنا فسمع كلامنا راهب، فأشرف علينا فقال : إن هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد. فقلنا : نعم، نحن قوم من مُضَرَ. فقال : من أي المضريين؟ قلنا : من خِنْدِفِ.

(١) سورة البقرة الآية ٨٩.

(٢) يستفتحون : يستصرون به عليهم.

قال : أما إنه سَيَّبَعْتُ وشيكا^(١) نبي خاتم النبيين، فسارعوا إليه
 وخذوا بمحظكم منه تَرشُدوا فقلنا له : ما اسمه ؟ قال : «محمد» .
 (قال) : فرجعنا من عند ابن جفنة، فوُلِدَ لكل منا ابن، فسماه
 «محمدًا» .. يعني أن كل واحد منهم طمع في أن يكون هذا
 النبي المبشر به ولده.

قصة سلمان الفارسي

وذكر ابن إسحاق قصة إسلام «سَلْمَانَ الفارسي» رضى الله
 عنه، فقال : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن
 محمود بن لبيد، عن عبد الله بن عباس قال :
 «حدثني سلمان الفارسي من فيه قال : كنت رجلاً فارسياً
 من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها «جَيَّ» وكان أبى
 دِهْقَانَ قريته^(٢)، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يَزَلْ حبه إيسى
 حتى حبسنى في بيته كما تحبس الجارية. واجتهدت في المحوسية
 حتى كنت قَطْنَ النار^(٣) الذى يوقدها لا يتركها تحبو ساعة.
 (قال) : وكانت لأبى ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يوماً

(١) وشيكا : قريباً.

(٢) دهقان القرية : رئيسها وحاكمها.

(٣) قطن النار : خاتمها. والمحوسية : دين المحوس؛ وكانوا يعبدون النار.

فقال لى : يا بنى، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتى، فاذهب إليها فاطَّلِعْهَا، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لى : ولا تحتبس^(١) عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلى من ضيعتى، وشغلتني على كل شيء من أمرى.

(قال) : فخرجت أريد ضيعتي التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون؛ وكنت لا أدري ما أمرُ الناس، لحبس أبي إياي في بيته. فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ! فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها. ثم قلت لهم : أين أهل هذا الدين؟ قالوا : بالشام. فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله. فلما جئت قال : أى بنى، أين كنت؟ ألم أعهد إليك ما عهدته؟ قلت : يا أبه، مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال : أى بنى، ليس في ذلك الدين خير؛ دينك ودين آبائك خير منه. قلت : كلا، والله إنه

(١) لا تحتبس : لا تتأخر ولا تنف.

لخير من ديننا! فخافني^(١)، فجعل في رجلي قيّدًا، ثم حبسني في بيته.

(قال) : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. فقدم عليهم ركب من الشام، فجاءني النصارى فأخبروني بهم، فقلت : إذا قضا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذّنوني^(٢)، فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم؛ فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلما قدمتها قلت : مَنْ أفضلُ أهل هذا الدين علمًا؟ قالوا : الأسقفُ في الكنيسة. فجئته فقلت له : إنى رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك فأصلي معك. قال : ادخل : فدخلت معه.. فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئًا كثره لنفسه ولم يعطه المساكين؛ حتى جمع سبع قلال^(٣) من ذهب وورق^(٤).

(١) أي : أخاف أن أمرب.

(٢) أذّنوني : أخبروني.

(٣) جمع قلة، وهي الجرّة.

(٤) الورق : الدراهم الضرورية من الفضة.

(قال) : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع .. ثم مات، واجتمعت له النصارى ليدفنوه؛ فقلت لهم : إن هذا كان رجلاً سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً، فقالوا : وما علمك بذلك؟ فقلت لهم : أنا أدلكم على كنزه. قالوا : فلدنا. فأریتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً؛ فلما رأوها قالوا : لا ندفنه أبداً! فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر.. (قال سلمان) : فما رأيت رجلاً لا يصلى الخمس^(١) أرى أنه كان أفضل منه، ولا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، ولا أداب ليلاً ونهاراً منه؛ فأحبيته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله. فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له : إني قد كنت معك، وأحبيتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى؛ فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرن؟ قال : أى بنى، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه! لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه. إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به.

(١) أى : من غير المسلمين الذين يؤمنون برسالة محمد.

(قال) : فلما مات وغيَّب^(١) لحقت بصاحب الموصل، فقلت : يا فلان، إن فلاناً أوصاني قبل موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. فقال لي : أقم عندي. فأقت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه.. فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان : إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى. فإلى من توصى بي؟ وبم تأمرني؟ قال : يا بني، والله ما أعلم رجلاً على ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين^(٢) وهو فلان، فالحق به. فلما مات وغيَّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي، فقال : أقم عندي. فأقت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقت مع خير رجل.. فوالله ما لبثت أن نزل به الموت. فلما حضر^(٣) قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصى بي؟ وبم تأمرني؟ قال : والله يا بني ما أعلمه بقى أحد على أمرنا أن تأتيه إلا رجل بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحب، فإن أحببت

(١) غيب : دفن في قبره.

(٢) الموصل ونصيبين : مدينتان من مدن العراق، تقع الأولى على طرف نهر دجلة. وتقع الأخرى على طريق القوافل إلى الشام، وبينها وبين الموصل ستة أيام سير الإبل.

(٣) حضر : حضره الموت.

فائته فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري.
فقال: أقم عندي. فأقمت على خير رجل على هدى أصحابه
وأمرهم.. (قال) واكتسبت حتى صارت لي بقرات وغنيمة^(١)..
ثم نزل به أمر الله. فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت
مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم
أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من
توصى بي؟ وبم تأمرني؟ قال: والله ما أعلمه اليوم أصبح أحد
على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك أن تأتيه؛ ولكنه قد
أظلم^(٢) زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب،
مهاجره أرض بين حرتين^(٣) بينهما نخل؛ به علامات لا تخفى:
يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة.. فإن
استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. (قال): ثم مات
وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث..

ثم مر بي نفر من بني كلب تجار، فقلت لهم: احملوني إلى
أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم،

(١) غنيمة: قليل من الغنم.

(٢) أظلم: قرب.

(٣) الحرة: أي مكان هجرته أرض بين جبلين أسودين، يعني المدينة.

فأعطيتهموها وحملون معهم، حتى إذا بلغوا «وادي القرى»^(١) ظلموني، فباعوني من رجل يهودى عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي^(٢).. فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتُها بصفة صاحبي لها؛ فأقت بها.

وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ، مَا أَقَامَ وَلَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرِهِ، مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرَّقِّ. ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَوَاللَّهِ إِنِّي لِنِي رَأْسِ عَذْقٍ^(٣) لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تَحْتِي، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمِّ لِي حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، قَاتِلِ اللَّهَ بْنَ قَيْلَةَ^(٤)! وَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمُجْتَمِعُونَ الْآنَ فِي «قُبَاءٍ»^(٥)، عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعَمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

(قال سليمان): فلما سمعتها أخذتني الرعدة، حتى ظننت أني

(١) واد بين المدينة والشام كثير القرى.

(٢) أى: لم استيقن من أنه هو.

(٣) عذق: نخلة.

(٤) بنو قيلة: هم العرب الأنصار من الأوس والخزرج.

(٥) قباء: موضع على فرسخين من المدينة في ناحية الجنوب، وهي من ضواحيها.

ساقط على سیدی. فنزلت من النخلة فجعلت أقول لابن عمه :
ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سیدی، فلكنی لكمة شديدة؛
ثم قال : مالك وهذا؟ أقبل على عملك ! فقلت : لا شيء..
إنما أردت أن أستبته عما قال..

(قال) : وقد كان عندي شيء قد جمعته^(١). فلما أمسيت
أخذه ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقاء، فدخلت عليه
فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب
لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم
أحق من غيركم. (قال) : فقرته إليه. فقال، صلى الله عليه
وسلم لأصحابه : «كلوا».. وأمسك بيده فلم يأكل؛ فقلت في
نفسی : هذه واحدة. ثم انصرفت فجمعت شيئاً، وتحول رسول
الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئت فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل
الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. (قال) : فأكل، ﷺ، منها،
وأمر أصحابه فاكلوا معه. فقلت في نفسی : هاتان ثنتان.
(قال) : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببيع الغرقد^(٢)، قد تتبع
جنازة رجل من أصحابه، وعليه ثعلتان وهو جالس في
أصحابه؛ فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره : هل أرى

(١) أى : شيء من الطعام.

(٢) بيع الغرقد : جنازة أهل المدينة.

الخاتم الذى وصف لى صاحبي؟ فلما رآنى، ﷺ، استدبرته، عرف أنى أستثبت فى شىء وُصف لى؛ فآلق رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته؛ فأكببت عليه أقبله وأبكى.. فقال لى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «تحول».. فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان بالرق حتى فاته مع رسول الله «بَدْر» و«أحد». (قال سلمان): ثم قال لى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «كاتب^(١) يا سلمان». فكاتبت صاحبي على ثلثمائة نخلة أحببها له بالفقير^(٢)، وأربعين أوقية. فقال صلى الله عليه وسلم، لأصحابه: «أعينوا أحاكم»؛ فأعانون فى النخيل.. الرجل بثلاثين ودية^(٣)، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشرة، يُعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لى ثلثمائة ودية؛ فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب يا سلمان ففقر لها؛ فإذا فرغت أكن أنا أضعها بيدى»

(١) المكاتب: أن يتفق العبد مع سيده على أن يشتري حريته منه بمبلغ من المال يدفعه إليه.

(٢) الفقير: الحفر فى الأرض.

(٣) الودية: النخلة حين تغرس وهى صغيرة.

(قال): ففقرت وأعاني أصحابي؛ حتى إذا فرغت جثته فأخبرته. فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرّب إليها الودّي، ويضعه، صلى الله عليه وسلم، بيده؛ حتى إذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة! فأديت النخل وبقى المال .. فأق رسول الله بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن. فقال: «ما فعل الفارسي المكاتب؟».

(قال): فدُعيت له. فقال: «خذ هذه فأدّها مما عليك يا سلمان». قلت: وأين تقع هذه مما علىّ يا رسول الله؟ قال: «خذها، فإن الله سيؤدى بها عنك». قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها - والذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعُتق سلمان..! فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًا، ثم لم يفتني مشهد».

أحاديث الكهان

ولم يكن العلم بمبعث هذا الرسول مقصودًا على الأحرار والرهبان من اليهود والنصارى، بل كان الكهان من العرب يعرفون كذلك شيئًا منه؛ إذ كان أتباعهم من شياطين الجن يذهبون إلى السماء، فيتخذون منها مقاعد للسمع، يسمعون إلى

الملا الأعلى، فيعرفون بعض أخبار السماء، ثم يعودون بها إلى أوليائهم من الكهان؛ فيشعوذون بها على الناس، ويخلطون الحق بالباطل. فلما ولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حُجبت الشياطين عن السمع، وملئت السماء بالشهب، فلم يكن شيطان يستطيع بعد ذلك أن يقترب منها.

وفي ذلك يقول ابن إسحاق: «وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منها ذكر بعض أموره، ﷺ، ولا يُلقى العرب لذلك بالأ، حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون، فعرفوها. فلما تقارب زمان مبعثه ﷺ، حُجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لها لاستراق السمع فيها، فرموا بالنجوم، فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عز وجل. (قال): وفي ذلك أنزل الله على رسوله سورة الجن..»

وفي هذه السورة يقول الله، عز وجل، على لسانهم: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَرْنَا شَدِيدًا وَشُهْبًا * وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا

* وأنا لا نَدْرِ أَشْرُ أَرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبِّهِمْ
رَشْدًا^(١).

* * *

وأود أن أختِمَ هذا الفصل بخبر طريق ذكرته كتب السيرة،
لأنه فوق ما فيه من الطرافة لا يتعارض مع الحقائق التي
سجلها القرآن الكريم، ولأنه من جهة أخرى يصور ناحية من
نواحي العقيدة العربية كان لها في حياة العرب أثر عظيم، حين
كان العرب غارقين في ظلمات الجاهلية الأولى، وقبل أن يسطع
عليهم نور الإسلام فيكشف عنهم هذه الظلمات..

قصة سواد بن قارب

روى الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن محمد بن كعب القرظي
قال: «بينما عمر بن الخطاب ذات يوم جالس، إذ مر به رجل،
فقيل: يا أمير المؤمنين، أتعرف هذا المار؟ قال: ومن هذا؟
قالوا: هذا سواد بن قارب، الذي أتاه ربي^(٢) بظهور رسول
الله، صلى الله عليه وسلم. (قال): فأرسل عمر إليه فقال له:
أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم. قال: فأنت على ما كنت

(١) سورة الجن الآية ٨ - ١٠.

(٢) ربه: تابعه من الجن. أي شيطانه الذي يتاجيه بأخبار الغيب.

عليه من كهانتك؟ فغضب وقال: ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين! فقال عمر: يا سبحان الله! ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك. فأخبرني ما أنباك ربُّك بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: نعم يا أمير المؤمنين..

بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان، إذ أتاني ربِّي فضربني برجله وقال: قم يا سوادُ بن قارب، واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل.. إنه قد بُعث رسول من لؤي ابن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته. ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلجَنِّ وَتَطْلَإِهَا وَشَدَّهَا العِيسَ بِأَقْتَابِهَا^(١)
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى مَا صَادِقُ الجَنِّ كَكُذَّابِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ لَيْسَ قُدَامَاهَا كَأَذْنَابِهَا^(٢)
قلت: دعني أنام، فإن أمسيت ناعسًا...

فلما كنت في الليلة الثانية، أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل.. إنه

(١) تطلايا: اجتهدا في البحث عن الحق، وأقتابها: إعدادهما الإبل للرحيل.

(٢) يعني رسول الله. ويجمل المعنى في هذا الشعر أن الخبيرين من الجن يبحثون عن الدين الحق، ويتلمسونه كما يتلمسه الخيرون من الإنس، يشدون الرحال إلى مكة من أجل ذلك، وأن هذا الدين قد جاء به رسول من صفوة بني هاشم. فاذهب إليه.

قد بعث رسول من لؤى بن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته.
ثم أنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتجارها وشدها العيسَ بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روابها وأحجارها

قلت : دعنى أنام، فإن أمسيت ناعساً..

فلما كانت الليلة الثالثة، أتاني فضربني برجله وقال : قم
يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل.. ثم
أنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتَحساسِها وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما خير الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم واسمُ بعينيك إلى رأسها

(قال) : ففقت فقلت : قد امتحن الله قلبي . فرحلت^(١)

ناقتي ثم أتيت المدينة - يعنى مكة - فإذا رسول الله، صلى الله
عليه وسلم، فى أصحابه. فدنوت فقلت : اسمع مقالتي يا رسول
الله، قال : «هات». فأنشأت أقول :

(١) فرحلت : أعدتها للرحيل.

أَتَانِي نَجِيٌّ بَعْدَ هَذِهِ وَرَقْدَةٍ^(١) ولم أكَ فَمَا قَدْ تَلَوْتُ بِكَاذِبٍ
ثَلَاثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ : أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لَوْيَ بْنِ غَالِبٍ
فَشَمَّرْتُ عَنْ ذَيْلِي الْإِزَارَ وَوَسَّطْتُ فِي الدُّعْلُبِ الْوَجْنَاءُ عَبْرَ السَّبَابِيبِ^(٢)
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَارَبٌّ غَيْرُهُ وَأَنْكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ^(٣)
فُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مَرْسَلٍ وَإِنْ كَانَ فَمَا جَنَّتْ شَيْبُ الذَّوَائِبِ^(٤)
وَكَنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو قَرَابَةِ بُمُغْنِي فَتَيْلًا عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ

(قال) : ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقاتلي فرحاً شديداً،
حتى رآني الفرح في وجوههم. (قال) : فوثب إليه عمر
ابن الخطاب فالترمه^(٥)، وقال : قد كنت أشتى أن أسمع هذا
الحديث منك؛ فهل يأتيك رأيك اليوم؟ قال : أما منذ قرأت
القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله من الجن! ...» .

(١) يعني أن شيطانه آتاه وهو متأهب للنوم.

(٢) يعني أنه أخذ أمته للسفر، وركب ناقته وأخذ يقطع بها الصحراء، محتملاً كل

مشقاتها.

(٣) أشهد أنك صادق فيما تأتي به من أخبار السوء.

(٤) مهياً كان فيه من مشقة وهول.

(٥) الترمه : احتضنه.

قبل البعثة

ظهر الفساد في البر والبحر

كانت حالة الناس قبل مبعث النبي محمد ﷺ قد وصلت من الفساد إلى النهاية، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط، وغشّت العالم كله ظلمات كثيفة من الكفر والجهل والفجور، وغير الناس وبدّلوا في الدين، وحرفوا كثيرًا مما أنزل الله على رسله من الكتب، وعبدوا من دون الله آلهة شتى.. فالبُوذيون كانوا يعبدون بُوذاً، والهندوس كانوا يعبدون البقر، والمجوس كانوا يعبدون النار؛ وكانت أمم تعبد الملائكة والجن، وأمم تعبد الصور والتماثيل، وأمم تعبد أرواح الموتى وآثارهم؛ وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقديسها، منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الكواكب والنجوم، ومنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الحجارة. ﴿وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله﴾^(١)؛ وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيعة،

(١) سورة التوبة الآية ٣٠.

واشتد بينهم الخلاف والجدل، حتى غدا الدين الواحد خليطاً من المذاهب المتناقضة.. وسادت الخرافات والأهام، وشاعت الإباحية والفوضى، وارتكبت الفواحش باسم الدين، وظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون^(١).

كان العرب أسوأ الناس حالاً

وكان العرب أسوأ الناس حالاً، وأشدّهم إمعاناً في الجهالة والضلالة؛ فقد أشركوا بالله ما لم يُنزل به سلطاناً، وعبدوا كل ما هبّ ودبّ من الأصنام والأوثان، والأنصاب والتماثيل، والأشجار وكُتبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجن، واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر، والكواكب والنجوم والحجارة، تتصرف في أمورهم وفي مستقبل حياتهم. وكان إيمانهم بالله إيماناً مشوّشاً مضطرباً؛ يعتقدون أنه الإله الأكبر، الذي يخلق ويرزق ويحيى ويميت، ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى تتخلّى لها، سبحانه، عن بعض التصرفات: كشفاء المرضى، ومنح الدّرية، وإنزال الغيث، وتصريف الرياح، وإبعاد المجاعة، وكشف الضر، وجلب الخير؛ وأن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم وبين الله، يتوسلون بهم

(١) سورة الروم الآية ٤١.

إليه في طلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم ويستشفعون بهم لديه في التجاوز عن ذنوبهم والعفو عنهم.

أغرقوا في عبادة الأصنام

وبالغوا في عبادة الأصنام حتى ملثوا بها الكعبة - البيت الحرام - وهي أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله وحده، فكان في الكعبة ستون وثلاثمائة صنم، وكان «هَبْلُ» و «اللَّاتُ» و «العُزَّى» رؤساء هذه الآلهة؛ هذا عدا ما هنالك من الأصنام المتفرقة في القبائل، إذ كان لكل قبيلة صنم خاص بها، ولكل بيت صنم خاص بأهله؛ بل كان الرجل منهم إذا سافر، حمل معه صنماً يتبرك به ويستبشر بصحبته. وكانوا يقدسون هذه الأصنام ويعبدونها، ويقربون لها القرابين ويذبحون الذبائح، ويستخبرونها في أمور دنياهم، ويجعلون لها نصيباً من أنعامهم وثمارهم.

ذكر ابن هشام أن الهذلي والذبائح كانت تذبح عند صنمَيْ «أساف» و «نائلة» قرب الكعبة، وأن العرب كانوا إذا أرادوا أن يَحْتَنُوا غلاماً أو يعقدوا زواجاً، أو شكوا في نسب أحدهم، أو أرادوا سفراً أو تجارة، أو استخارة في نازلة أو خلاف

أو مقصد.. ذهبوا إلى هُبَل - وكان صنماً في جوف الكعبة - فأعطوا صاحب القِداح مائة درهم وجرزوراً^(١)، وطلبوا منه أن يضرب لهم بالقِداح على الأمر الذي أرادوا أو اختلفوا فيه؛ وكان على القِداح كلمات أمر ونهى و «نعم» و «لا».

استقسموا بالأزلام

وذكر الخازن عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾^(٢) أنه كان لهم سبعة قِداح، مكتوب على أحدها: «أمرن ري»، وعلى ثانيها: «نهان ري»، وعلى ثالثها: «منكم»، وعلى رابعها: «من غيركم»، وعلى خامسها: «مُلصَق»، وعلى سادسها: «العقل»^(٣)، وسابعها: غُفْل لا كتابة عليه. فكانوا إذا أرادوا سفرًا أو تجارة، أو اختلفوا في نسب أو قتل أو حمل دية أو نحو ذلك، جاءوا إلى هبل - وكان أعظم أصنام قريش - وأعطوا مائة درهم إلى صاحب القِداح، فأجالها - أي خلطها - ثم استخرج واحدًا منها؛ فإن خرج «أمرن ري» فعلوا الأمر الذي استخاروا فيه، وإن خرج «نهان ري» لم يفعلوه؛ وإن كانت الاستخارة في نسب وخرج

(١) جزورًا: ناقة أو جملا.

(٢) سورة المائدة الآية ٣.

(٣) العقل هنا بمعنى الدية التي تدفع عوضًا عن القتل.

«منكم» ألحقوه بهم، وإن خرج «من غيركم» أخرجوه منهم،
وإن خرج «ملصق» كان النسب المدعى به افتراءً؛ وإن كانت
الاستخارة في الدية وخرج «العقل» تحمّله.

وذكر ابن كثير في تفسيره أنها عبارة عن قدام ثلاثة، على
أحدها مكتوب «افعل»، وعلى الآخر: «لا تفعل» والثالث
غُفْل ليس عليه شيء... فإذا أجالها بطلع سهم الأمر فعله، أو
النهى تركه، وإن طلع الفارغ أعاده.

ولعل ما كتبه المستشرق الفرنسي إميل درمنغم في كتابه
«حياة محمد»^(١) يعطى عن الأزلام وطريقة استعمالها فكرة أكثر
وضوحاً وتفصيلاً، وذلك حيث يقول: «وعند هبل كان يُستقسم
بالأزلام، أى يُضرب بالقداح السبعة المكتوب على كل واحد منها
واحدة من الكلمات: «أمرى رى. نهان رى. منكم. من
غيركم. ملصق. العقل. غُفْل». فإذا أرادوا الوقوف على الأمر
الذى تصدّوا له، ومعرفة عاقبته أخير هو أم شر، استقسم لهم
أمين القداح بقُدْحى الأمر والنهى؛ فإن خرج قِدْح الأمر اثتمروا،
وباشروا ما تصدّوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان
أو بناء، أو نحو ذلك مما يتفق لهم؛ وإن خرج قِدْح النهى أخروا

(١) ترجمة الأستاذ عادل زعيتر.

ذلك العمل إلى سنة، فإذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى.. وإذا وقعت منازعة في نسب أحد منهم، استقسم لهم أمين القداح بالأزلام الموسومة «منكم. ومن غيركم. وملصق»؛ فإن ظهر «منكم» أعزوا ذلك الذي اشتبهوا في نسبه، وإن ظهر «من غيركم» نفروا منه وتجنبوه، وإن ظهر «ملصق» بقى مجهول النسب عندهم على ما كان عليه من قبل.. وإذا تنازعوا في العقل - وهى دية المقتول - بأن اشتبه عليهم القاتل، أحضروا من اتهموا بالقتل واستقسم لهم الأمين بالقدحين الموسومين «بالعقل والغفل»، فمن خرج عليه العقل تحمل الدية، وإن خرج الغفل أجالوا ثانيًا حتى يخرج المكتوب عليه».

ومهما يكن من اختلاف الروايات فقد كانت «الأزلام» هى وسيلتهم التى يستخدمونها فى استخارة أصنامهم، يطلبون بها بيان ما قُسم لهم فى ضمير الغيب، وما يكون فيه البركة والخير لهم، وحين تظهر النتيجة يعتبرونها حكم الآلهة، فلا يجيدون عنه ولا يخرجون عليه. ومن هنا كانت الأزلام شديدة التأثير فى حياتهم، فلا يُرمون أمرًا ولا يَنْقُضونه إلا بوحى منها، لأن حكمها - فى زعمهم - إنما هو حكم الآلهة. فالبرىء عندهم متهم إذا هى حكمت باتهامه، والمتهم برىء إذا هى حكمت ببراءته؛ والصواب خطأ إذا هى حكمت بخطئه، والخطأ صواب

إذا حكمت بإصابته. وهكذا كانت أحكامهم في كثير من شئونهم قائمة على الظن والتخمين، لا على الحق واليقين.

أشركوا الأصنام في حرثهم وأنعامهم

وكانوا يجعلون من زرعهم وأنعامهم نصيباً لله ونصيباً لأهنتهم؛ فيصرفون ما يجعلونه لله على الضيوف والفقراء، وينفقون ما يجعلونه للآلهة على الأوثان وخدمتها؛ فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إن الله غني عنه، وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إليه وقالوا إنها في حاجة إليه؛ وإذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك شيء مما جعلوه للأوثان عوضوه مما جعلوه لله؛ وإذا رأوا ما جعلوه لله نامياً زاكياً جعلوه للأوثان، وبادلوا بينه وبين ما كان لله. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا ذَرَأُوا مِنَ الْحَرْثِ (١) وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا، فَقَالُوا: هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ - وَهَذَا لَشُرْكَائِنَا، فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!﴾ (٢).

(١) ذرا: خلق.

(٢) الحرث: الزرع.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٣٦.

جعلوا الملائكة بنات الله

وكانوا يؤمنون بأن الملائكة بنات الله، وأنه - سبحانه - أصهر إلى الجن، أى تزوج منهم، فأنجب منهم الملائكة؛ فكانوا يعبدون الملائكة على أنهم بنات الله، ويعبدون الجن على أنهم أصهاره. وكانوا يخافون الجن خوفاً شديداً، ويعتقدون أنهم أرواح شريرة، لا عمل لها إلا الشر والأذى، فكانوا يتقون أذاها بالتعاون والرُّقى والتمايم؛ وإذا نزل الواحد منهم بوادٍ موحش ظن أنه مسكن الجن، فيقول: «أعوذ بسيد هذا الوادى»! معتقداً أنه متى استعاذ بسيد الجن من شرهم فلن يضره بشيء. وكانوا يعتقدون أن الجنون من مس الجن، وأن لكل كاهن رتياً من الجن يمدّه بأخبار الغيب، وأن لكل شاعر شيطاناً يمدّه بما يقول من الشعر.

آمنوا بالخرافة

وكانوا يؤمنون بالفأل والطيرة، وبالكهانة والعرافة؛ فإذا خرجوا إلى سفر أو عزموا على أمر، ثم مر بهم طائر عن يمينهم، تفاءلوا واستبشروا وأتموا سفرهم أو عزمهم وإذا مر عن شمالهم تشاءموا وتطيروا وعدلوا عما عزموا عليه، وإذا أهمهم

أمر أو اختلفوا فيه ذهبوا إلى كاهن أو عَرُاف، فعرضوا عليه أمرهم، واستمعوا لحكمه مهما كان خطأ أو صواباً. وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تتقمص جسم طائر يسمى «الهامة»، وتظل حول قبره تنادى: «اسقون...! اسقون...!» حتى يأخذ أهله بثأره؛ فإذا أخذوا بثأره سكتت الهامة وانصرفت.

وكانت لهم فوق ذلك خرافات عجيبة في أنعامهم وزروعهم، يحرمون منها ما يشاءون، ويحللون ما يشاءون.. يقولون: هذا الجمل لا يُركب ظهره ولا يُجَزَّ وبره؛ وهذه الناقة لا تُركب ولا تُحلب ولا تُمنع من كلاً ولا ماء؛ وهذه الشاة لا تذبح ولا تحبس؛ وهذا الزرع وقف على الأصنام فلا يطعمونه ولا يأخذون منه؛ وهذا حلال لذكورنا حرام على إناثنا؛ وهذا لا يُذكر اسم الله عليه لأنه نذر للآلهة.. وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿وقالوا: هذه أنعامٌ وحُرَّتْ حِجْرٌ﴾ لا يَطْعَمُهَا إلا من نشأ - بزعمهم - وأنعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وأنعامٌ لا يذكر اسم الله عليها أفترأ عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا

(١) حجر: أى معجزة وعجزة.

وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهَم فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ
وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾.

قامت حياتهم على الظلم

أما نظام حياتهم فكان قائماً على ظلم القوى للضعيف،
وتحكم القادر في العاجز، وكان اعتمادهم في انتزاع الحق على
القوة وحدها، فكانت الإغارة والسلب والنهب، والأخذ بالثأر
وحب الانتقام، هي العلاقة التي تربط بين القبائل بعضها
وبعض، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم المعتادة؛
وكانت مناقشة تافهة تكفي لإشعال حرب طاحنة، وثوراتٍ
يتوارثها الخلف عن السلف؛ وكان القتال إذا اشتعلت ناره دام
عدة سنين، وقد يدوم عدة أجيال، حتى غدا تاريخهم في
الجاهلية سلسلة من الحروب الداخلية لا تكاد تنتهي. ولم يكن
لهم نظام جامع ولا حكومة موحدة، بل كانوا قبائل متفرقة، كل
قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها، مستقلة في نظامها وتقاليدها
وأحكامها.

(١) سورة الأنعام آيتا ١٣٨، ١٣٩.

جعلوا المرأة نوعًا من المتاع

ومن مظاهر الظلم في حياتهم أن المرأة كانت في نظرهم نوعًا من المتاع، فلم يكن لها نصيب من الميراث، بل كانت هي نفسها تورث مع التركة؛ وكان للوارث فيها مطلق التصرف، فإن شاء تزوجها، وإن شاء زوجها من غيره. ولم يكن للزواج عندهم حدود ولا للطلاق قيود؛ فللرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء، وله أن يطلق المرأة متى شاء ويراجعها متى شاء، دون أن يكون لها في ذلك رأى؛ وله أن يعلّقها بين الزوج والطلاق، فلا هي زوجة لها ما للزوجة من حقوق، ولا هي مطلقة تملك أمرها وحرمتها... إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد والإذلال. وبعض الجوارى كن يُرغمُن على كسب المال بأعراضهن إرضاءً لساتهن.

وكانت الأنثى على العموم مجلبة الحزن ومظنة العار، فكان العربي يحن أشد الحزن إذا ولدت له أنثى، وبعضهم كان يثد البنات^(١) مخافة العار والفقر؛ وكان الاتفاق يجري عند عقد العقد أحيانًا على قتل السلالة من البنات. وفي ذلك يقول الله تعالى :

(١) يثد: يدفنن أحياء.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ *
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ
يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

كانت الدنيا همهم

وكان الربا والخمر والميسر من ضرورات حياتهم؛ وكان
السكر والعريضة وانتهاك الأعراض من المفاخر التي يتغنون بها في
أشعارهم ومجالسهم؛ وكانت اللذة والمتاع أسمى ما تصبو إليه
نفوسهم. فكان همهم الطعام والشراب وانتهاج الملذات قبل أن
يدركهم الموت؛ أما ما وراء الموت فلم يكن في حبانهم قط، إذ
كانوا يعتقدون أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية
الأبدية، أما البعث بعد الموت فكانوا يظنونهم أمراً مستحيلاً،
﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ *
أَبَاؤُنَا الْأُولُونَ﴾^(٢). فليس من الممكن - في زعمهم - أن يحيى
الإنسان مرة أخرى، بعد أن يموت ويبلى وبصير تراباً؛ بل كانوا
يعدّون الكلام في ذلك ضرباً من الجنون، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا:
هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مَزِقٍ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ
يَخْلَقِ

(١) سورة النحل آيتا ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة الواقعة آيتا ٤٧، ٤٨.

جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنة * بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد^(١).

العنصر العربي

«نعم، كان في العرب فضائلُ عنصرية وطباع كريمة، وسجايا ذات وزن كبير في مقياس الرقي الإنساني، من ذكاء ونبل وشجاعة ووفاء وصدق وجود.. إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة المشهورة في الأمة العربية؛ ولكن لم تكن كل مزاياها المعروفة لتمنع من أن تكون حياتها حياةً جاهلية صمّاء، وخاصة في عقليتها ودينها وعاداتها؛ لأن تلك المواهب العنصرية الكامنة فيها لم تكن موجهة توجيهها صالحاً، بل لم يكن لها موجه أصلاً يسيطر على قوتها وفاعليتها، ويبني بها الحياة الصالحة، ويخرج منها أطيب الثمرات»^(٢).

وكثيراً ما كانت الهمجية تسيطر على تلك الشيم فتفسدها، وتخرجها من جوّ الفضيلة إلى جو الرذيلة. على أنها مع ذلك كانت فضائل شخصية، وصنائع فردية لا أثر لها في بناء المجتمع؛ فكانت الأمة العربية بذلك أشبه بالأرض الطيبة التي

(١) سورة سبا آيتا ٧، ٨.

(٢) من مقال للأستاذ مصطفي الزرقا في السنة الأولى من مجلة لسواء الإسلام -

بتصرف.

أهملت زراعتها، فامتلات بالحشائش والنبات الشطاني، مما قد يكون منه بعض الزهر والثمر، ولكنه شيء لا يسمن ولا يغني من جوع.

لذلك لم تغن عنهم شيئاً هذه الصفات الجميلة، ولم تحل بينهم وبين ما كانوا يفعلون من المنكرات، فغطت رذائلهم، فضائلهم، ومحت سيئاتهم حسناتهم.

أين دين الحق؟

هذا الجهل الذى أفسد دينهم وزلزل عقائدهم، وهذه الخرافة التى سيطرت على عقولهم وقلوبهم، وهذه الفوضى التى سادت نُظْمَهُم وتقاليدهم، وهذه البهيمة التى صبغت حياتهم، وهذه العداوة التى مزقت وحدتهم، وهذه الحروب التى أنهكت قواهم... هذه الجهالة الجاهلاء والضلالة العمياء، التى جعلت نفراً من حكماهم يفكرون فى أمر دينهم، ويتساءلون فيما بينهم: أهذا هو الدين الذى يرضاه الله لعباده؟ أهذه هى الحياة التى تليق بالإنسان؟ ألم يُخلق الإنسان إلا لياكل ويشرب ويقضى مآربه وشهوته؟ ما الفرق بينه إذن وبين الحيوان الأعجم؟... وجعلوا يتلفتون حولهم لينظروا أى دين هو أهدى إلى الصواب وأقرب إلى الحق!... أهو دين النصارى؟ أم هو دين

اليهود؟ أم هو دين المجوس؟... أما المجوس فهم والعرب سواء في الضلال، وأما اليهود والنصارى فقد غيروا وبدلوا وتفرقوا واختلفوا، ﴿وقالت اليهود: لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وقالت النصارى: لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾^(١)، و﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢)، وسارعوا كما يسارع غيرهم في الإثم والعدوان وأكل الحرام وإفتراء الكذب... فليس اليهود والنصارى إذن على شيء وليس الدين الذي يدينون به على ما أنزل الله... فأين الدين الذي يرضاه الله لعباده؟.

العقلاء يبحثون عن دين إبراهيم

كانت هذه الحيرة تشغل بال المفكرين من حكماء العرب وعقلائهم، فداروا يبحثون عن الخنيفية السُّمَّحة: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)... فإبراهيم أبو العرب، وهو الذي بنى أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله وحده، فهم أولى الناس بأن يدينوا بدينه ويتبعوا ملته؛ فليس في غير ملة إبراهيم مخرج من هذا الضلال.

(١) سورة البقرة الآية ١١٣.

(٢) سورة التوبة الآية ٣١.

(٣) سورة النحل الآية ١٢٣.

وهكذا جعلوا يتلمسون ملة إبراهيم في كل دين، فمنهم من حسبها في اليهودية فتهوّد، ومنهم من حسبها في النصرانية فتنصّر، ومنهم من دار يبحث عنها في نواحي الأرض، ومنهم من توهّمها توهّمًا وظنّها ظنًّا، فجعل يعبد الله على نحو ما هداه وهمه وظنه.

ذكر ابن إسحاق أن قريشًا اجتمعت يومًا في عيد لهم، عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه، وينحرون له ويطوفون به؛ فخلّص منهم أربعة نفرٍ يتناجّون، وهم: ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو ابن نفيل... فقال بعضهم لبعض: «اعلموا - والله - ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم!... ما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟.. يا قوم، اتمسوا لأنفسكم دينًا غير هذا الدين، فإنكم - والله - ما أنتم على شيء!...» ففرقوا في البلدان يلتمسون الخيفية دين إبراهيم. فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية^(١) واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علمًا من أهل الكتاب؛ وأما عبد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، فلما قدّمها تنصّر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيًّا؛ وأما عثمان

(١) استحکم: توغل فيها وأمن.

ابن الخويرث فقدم على «قيصر» ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده؛ وأما زيد بن عمرو بن نفيل فطوّف في الشام والعراق ثم عاد، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميثة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة وقال: «عبدُ رب إبراهيم؛ ونادى قومه بعيب ما هم عليه.

قالت أسماء بنت أبي بكر، رضى الله عنها: لقد رأيت زيد ابن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً، مُسنّداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: «يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى!» ثم يقول: «اللهم لو أنى أعلم أتى الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكنى لا أعلمه!» ثم يسجد على راحته.

ويقال: إن له في ذلك شعراً يقول منه:

أرئنا واحداً أم ألف رب أدين^(١)، إذا تقسمت الأمور
عزّلت^(٢) اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد^(٣) الصبور
ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الربُّ الغفور

(١) أدين: أعبد.

(٢) عزّلت: هجرت.

(٣) الجلد: الحازم العاقل.

وكان من هؤلاء الذين سئموا دين الجاهلية وعبادة الأوثان؛ أبو قيس بن الأسلت في المدينة؛ فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن ابن إسحاق، وسعيد بن يحيى الأموى في مغازيه، قالوا: إن أبا قيس هذا كان قد ترهب في الجاهلية وليس المسوح وفارق الأوثان... وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً، لا يدخل عليه فيه حائض ولا جُنُب، وقال: أعبد إله إبراهيم. حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم فحسّن إسلامه.

* * *

وهكذا كانت حالة العرب، وكانت حالة العالم كله، في أشد الحاجة إلى رسول من عند الله، ينقذ الناس من هذا الضلال، ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾^(١).

(١) سورة المائدة الآية ١٦.

ليلة القدر

هموم العظيم

غَنِيَ رسول الله ﷺ بعد زواجه بالسيدة خديجة، وتوفرت له أسباب الراحة والغنى وطمأنينة النفس؛ فقد كفاه الله مئونة السعي الممض^(١) في سبيل العيش، وأغناه عن الأجر القليل الذي كان يتقاضاه من رعاية الغنم لأهل مكة، بما أفاض عليه من الخير في تجارة زوجه خديجة. وأسلمت له خديجة زمامها إسلام الوثائق المطمئن، وفوضت إليه الأمر في تجارتها، يتصرف فيها تصرف المالك، ويتقل بها بين البلاد في نشاط وأمانة وحذق: يذهب أحياناً إلى الشمال وأحياناً إلى الجنوب، وأحياناً إلى الشرق وأحياناً إلى الغرب.

وبارك الله لهما في تجارتها فأدرت عليهما المال الوفير والخير الكثير، وأتم عليها نعمة الوفاق والإخلاص والحب، فعاشا زوجين هانئين. وفي ظل هذه السعادة السابغة أنجبت خديجة

(١) الممض: المجهد الشاق.

البنين والبنات، فامتلاً البيت بهجة، وفاض جوه بالأنس والمرح،
وبات محمد في مكة مثلاً يُضْرَبُ للرجل السعيد.. حب ووفاق،
ومال وبنون، وخُلُقٌ وجمال، وحسب ونسب، وثقة وطمأنينة،
وهدوء بال وسعادة حال!.. ماذا يَنْشُدُ المرء بعد ذلك مَنْ
أسباب السعادة؟

لكن محمداً برغم ذلك كله كان دائم التفكير كثير الصمت،
ميالاً إلى العزلة والانقباض عن الناس، كأنما يحمل فوق ظهره
حملاً ثقيلاً من الهم، لا يستطيع النهوض به ولا الفكاك منه.
ماذا كان يَحْزَنُه؟ لم يكن في بيته سبب من أسباب الحزن حتى
يجزن ويكتئب، اللهم إلا أن طفلاً أو طفلين من أولاده ماتا؛
ولكن هذا ليس بالشئ الذى يرهق الرجل العظيم ويثُوده^(١)،
فالأولاد كثيراً ما يموتون، فيحزن الآباء والأمهات لموتهم حيناً من
الدهر، ثم تمر الأيام فتُنسى من أمرهم كل شئ، وتعود الحياة
إلى ما كانت عليه من النشاط والبهجة.

ماذا كان يجزن هذا الرجل العظيم إذن؟ وما الذى كان
يباعد بينه وبين الناس، ويحبب إليه الخلوة والانفراد؟ وفيم كان
تفكيره الدائم وصمته الطويل؟ لا شك أنه شئ عظيم ذلك

(١) يثوده: يشق عليه أحباله.

الذى كَانَ يشغل باله ويقلق راحته؛ فقد عُرف، صلى الله عليه وسلم، بالجدِّ والتطلع دائماً إلى معالى الأمور.

كان يحزنه حال قومه .

نعم، كان يحزنه حال قومه العرب، إذ كانوا على حال من الفساد تزعج كل ذى ضمير حَيٍّ؛ فقد فسدت عقائدهم وسيطرت عليهم الخرافات والأوهام، وانحدروا مع شهواتهم انحدر البهائم، وتناحروا فيما بينهم تناحر الوحوش، حتى غدوا أحط الأمم شأنًا وأشدّها فوضى، وطمع فيهم عدوهم من الفرس والروم والأبشاش فانتقصوا بلادهم من أطرافها، وهم في غفلة ساهون عن مصيرهم، ﴿يَتَمَتَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾^(١)، ويتفاخرون بالأباء والأجداد، ويتكاثرون بالأموال والأولاد.

كان، صلى الله عليه وسلم، ينظر في أحوالهم، فيُوله ما هم عليه من الجهل والفساد، ويحزنه ما هم فيه من الغفلة والضلال، ويقلقه مصيرهم الذى يصيرون إليه؛ فيفكر وبطيل التفكير في أمرهم، ويتمنى أن لو صلَح حالهم، والنكشفت عن أبصارهم هذه الغشاوة، فأبصروا الطريق وساروا على الجادة. ولكن كيف السبيل إلى صلاحهم وقد جمدت عقولهم وعميت

(١) سورة عمء الآية ١٢.

بصائرهم، وتحكمت فيهم التقاليد والعادات تحكما لا أمل في الخلاص منه.

أين الطريق؟

من أجل هذا كان، صلى الله عليه وسلم، كثير الهم والتفكير، دائم التأمل والصمت، يقلب وجوه الرأى فيما يرى من سوء الحال في قومه، ويلتمس الوسيلة للخلاص منه... يرى إمعانهم في الضلال وإغراقهم في الجهالة، فيسوءه ذلك غاية الإساءة، ويحزنه غاية الحزن، ويلتمس وجه الصواب في هدايتهم إلى الطريق فلا يعرف أين الطريق...! بمن يستعين في هذه الحيرة؟ وبمن يسترشد في هذا الضلال؟ وبأى دين تصلح هذه النفوس الجامدة، وتحيا هذه القلوب الخاملة؟

ها هم أولاء أهل الدين من اليهود والنصارى، لا يقلون في أحوالهم فسادًا عن العرب؛ فهناك شوب من الشرك يشوب عقائدهم، وكثير من السيئات تدنس أعمالهم، ﴿وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعُدوان وأكلهم السُّحت، لبس ما كانوا يعملون * لولا ينهأهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبس ما كانوا يصنعون﴾^(١) بل ﴿إن كثيرا

(١) المائدة آيتا ٦٢، ٦٣.

من الأبحار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١﴾ ...

ليس هؤلاء - إذن - بأرشد من أولئك، فكيف السبيل إلى إصلاح هؤلاء وهؤلاء؟ وما العمل لتقويم هذه العقائد الباطلة، وإيقاظ هذه القلوب الغافلة؟ ما أشدها حيرةً على الصديقين!.. وما أعظمها ظلمةً تغشى طريق السالكين المخلصين!.. وما أثقله حملاً تنوء به الجبال، وتعيأ به همم الرجال!...

كان هذا الهم الثقيل هو الذى شغل به رسول الله ﷺ باله، وأقلق من أجله راحته؛ وكانت هذه الحيرة الشديدة هى التى يضيق بها صدره، وتنقبض لها نفسه، فكان يفرّ بهمّ إلى الخلوات ويأوى إلى الجبال والغيان^(١)؛ وهنالك يخلو إلى نفسه فى عزلة من الناس، يتفكر ويتأمل، ويتوجه بقلبه وجوارحه إلى الله بارئى السموات والأرض، أن يشرح له صدره بنور الحق، وأن يخرج من هذه الحيرة، ويهديه سواء السبيل.

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

(٢) الغيان: الكهوف.

غار حراء

واختار، صلى الله عليه وسلم، «غار حراء» فاتخذه مكاناً لخلوته؛ وهو كهف صغير بأعلى جبل حراء، في الشمال الشرقي من مكة، على نحو ثلاثة أميال، في مكان منقطع عن العمران، خال من النبات والزرع؛ يمشي السائر إليه نحو ساعتين ويصعد نحو ساعة، حتى إذا وصل إليه وجده كهفًا موحشًا رهيبًا، يزيد في وحشته ظلامه الشديد، ويُعده النائي، وعزلته عن الناس، ووعورة الطريق إليه، إذ هو يقع على مقربة من القِمة، خلف صخرتين عظيمتين تقومان عند مدخله، لا يخلُص الداخل منها - مهما كان نحيفًا - إلا بعد مشقة وجهد، لشدة ما بينها من تقارب واتصال، فإذا تخطَّاهما وجد الغار من ورائهما داخلًا في الجبل، محجوبًا عن كل ما حوله بالصخور الضخمة، ووجده أشد من كل ما في الجبل عزلة ورهبة؛ يسوده الظلام الحالك، ولا يتسع لأكثر من شخص واحد، ينام فيه نومًا جافيًا خشنًا.

فكان، صلى الله عليه وسلم، يأوى إلى هذا الغار، فيعتكف فيه أيامًا وليالي، يتعبد ويتحنف^(١) على نحو ما كانت قريش تفعل

(١) التحنف: من الحنيفة دين إبراهيم، وهي عبادة الله وحده. وقد كان بعض رجال قريش يفعلون ذلك.

في الجاهلية، ويتزوّد لذلك بما يكفيه من الطعام والشراب. ويقول الرواة: إنه، صلى الله عليه وسلم، كان يجاور في ذلك الغار شهرًا من كل سنة، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به أن يقصد إلى الكعبة، فيطوف بها ما شاء الله أن يطوف، ثم يرجع إلى بيته.

على أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن في ذلك مقلدًا لغيره ممن عاصروه أو سبقوه من حنفاء العرب، بل كان ذلك إلهامًا من الله، وتهيئة لإشراق نور النبوة على نفسه الطاهرة الزكية؛ فقد «حُببَ إليه الخلاء» كما قالت عائشة، رضى الله عنها، وأولعت به نفسه ولعًا شديدًا، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده، وأن ينفرد بنفسه في ذلك المكان النائي، بعيدًا عن الناس وعن ضوضاء الحياة؛ يقلب بصره فيما حوله من مظاهر الكون، ويُجيب بصيرته فيما شاء الله من ملكوت السموات والأرض، ويقضى نهاره صائمًا وليله قائمًا، متطلعًا إلى مشارق النور الإلهي الذي تهبأت له نفسه، واستشعرته بصيرته، واستشرف له فؤاده، وتفتحت له روحه. فكانت الرؤيا الصادقة أول ما أشرق عليه من نور النبوة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح؛ وكان إذا خلا وحده رأى ضوءًا وسمع صوتًا، حتى خشي على نفسه أن يكون قد أصابه ضرٌّ؛ فكان يفضي إلى

زوجه خديجة بمخاوفه. ويقول لها: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد خشيت - والله - أن يكون لهذا أمر!..» فتطمئنه خديجة وتقول له: «معاذ الله! ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدى الأمانة، وتصل الرحم وتصدق الحديث».

ليلة القدر

وما زالت إشراقات النور الإلهي تتوالى عليه وهو في خلواته تلك، حتى كانت تلك الليلة المباركة، «ليلة القدر» التي هي خير من ألف شهر، إذ تفتحت فيها بركات السماء على الأرض، وظهرت فيها بشائر رحمة الله لعباده، فنزل فيها الروح الأمين «جبريل» بوحي الله سبحانه، على رسوله محمد، ﷺ.

فكانت فاتحة عهد جديد، وبدء مرحلة حاسمة في تاريخ الناس كافة، تغير بها وجه التاريخ كله، وتطورت حياة العرب تطوراً عجيّباً، واتجهت البشرية في عقائدها وعباداتها وأخلاقها نحو الصواب؛ وكان ما أنزل الله من الوحي على رسوله فتحاً ميبناً في حياته، صلى الله عليه وسلم، شرح الله به صدره، ورفع له ذكره. وبدل عسره يسراً، ووضع عنه ما أنقض ظهره من أوزار

القلق والحيرة^(١)، وهداه إلى الدين الذي ينقذ قومه من الهلاك،
ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

اقرأ باسم ربك

كان ذلك في شهر رمضان سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح،
عليه السلام، وكان رسول الله ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره؛
وكان قد خرج في ذلك الشهر إلى جواره في غار حراء، كما
كان يخرج في كل سنة؛ وكان الوقت ليلاً، والسكون شاملاً،
ورسول الله ﷺ قد فرغ من عبادته واستسلم للنوم؛ وبينما هو نائم
جاءه جبريل بأمر الله تعالى..

وفي ذلك يقول، صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عبيد بن
عمير: «فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج^(٢) فيه كتاب، فقال:
اقرأ.. قلت: ما اقرأ.. (قال): فغتنى حتى ظننت أنه الموت،
ثم أرسلني، فقال: اقرأ.. قلت: ما اقرأ.. (قال): فغتنى^(٣)
حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني^(٤) فقال: اقرأ!.. قلت:
ما اقرأ!.. (قال): فغتنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني،

(١) انقضى ظهره: أثقله. والأوزار: الأحمال.

(٢) الديباج: الحرير.

(٣) غتنى (بالتاء والطاء): ضغطني وعصرني.

(٤) أرسلني: تركني.

فقال : اقرأ!.. قلت : ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(١).. (قال) : فقرأتها.. ثم انتهى فانصرف عني، وهَيَّيت من نسومي فكأنما كُتبت في قلبي كتابًا..

قال : فخرجت، حتى إذا كنت في وسط الجبل، سمعت صوتًا من السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍ قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. (قال) : فوقفت أنظر إليه لما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية إلا رأيتَه كذلك. فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكان ذلك.. ثم انصرف عني، وانصرفت راجعًا إلى أهلي.

(١) سورة العلق الايات ١ - ٥ .

خديجة تبشر الرسول وتثبته

ورجع، صلى الله عليه وسلم، يَرْجُفُ فؤاده من الروع^(١)؛ فلما انتهى إلى زوجه خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه فأفزعتها ذلك، فقامت إليه فجعلت تمسح عن وجهه وتقول: «لعلك لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم!..» فقال: «يا خديجة، أرايت الذى كنت أرى فى المنام، والصوت الذى كنت أسمع فى اليقظة وأهال منه^(٢)؟.. فإنه جبريل قد استعلن لى وكلمنى، وأقرانى كلامًا فزعت منه، ثم عاد فأخبرنى أنى نبى هذه الأمة!..» قالت خديجة: «أبشر يا بن عمّ واثبت!.. فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة!..»

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل.. فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع. فقال ورقة: «قدوس! قدوس!.. والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس^(٣) الأكبر، الذى

(١) الروع: الفزع.

(٢) أهال: أربعب.

(٣) الناموس: الوحى.

كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة.. فقول له :
فليُثبت!.. « فرجعت خديجة إلى رسول الله، صلى الله عليه
وسلم، فأخبرته بقول ورقة بن نوفل.

ثم التقى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة بسورقة بن
نوفل، فقال له : يا بن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت. فأخبره
رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال ورقة : «والذي نفسي
بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي
جاء موسى، ولئن أدركني يومك لأنصرن الله نصرًا يعلمه!..
ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك!.. « فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : «أو مخرجي هم؟.. « قال : «نعم، لم يأت أحد
بمثل ما أتيت به إلا عُودى!.. « ثم لم يلبث ورقة أن تُوفى،
وفتر الوحي عن رسول الله ﷺ، وانقطع عنه جبريل فلم يعد
يوصله بوحي السماء كما كان يتوقع، واستمر على ذلك مدة.

فترة الوحي

لم يكن رسول الله ﷺ يتوقع أن يفتر عنه الوحي، بعد
الذي سمعه من جبريل، وبعد الذي سمعه من ورقة بن نوفل،
فلما فتر عنه الوحي حزن حزنًا شديدًا، وذهبت به الظنون

مذاهب شتى، وجعل يتردد على غار حراء فيعتكف فيه كما كان يعتكف، ويخرج إلى رءوس الجبال فيتطلع منها في نواحي السماء، لعله يرى جبريل أو يسمعه، ولكن جبريل لم يظهر له ولم يخاطبه بشيء.

وكان أخشى ما يخشاه أن يكون ما سمعه في الغار ليس بوحي، وما رآه في الأفق ليس بملك، وأنه قد خيل له ما يُخيل للكهان من شياطينهم؛ فكان إذا مرّ بذهنه هذا الخاطر انقبض له صدره، وضأقت به نفسه، وذهب إلى خديجة يُقضى إليها همه وحزنه، ويشكو لها ما يخامره من هذه الهواجس، ويقول لها: «يا خديجة، والله ما أبغضت بُغض هذه الأصنام شيئاً قط، ولا الكهان!.. وإنى لأخشى أن أكون كاهناً!..» فتطمئنه خديجة وتزيل عنه مخاوفه، وتقول فيما تقول: «كلا، والله لا يخزيك الله أبداً!.. إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف^(١)، وتحمل الكل^(٢)، وتكسب المعدوم^(٣)، وتُعين على نوائب الحق^(٤)، وإن فيك من صفات الخير ما لا يجعل للشيطان سبيلاً إلى نفسك!..»

(١) تقري الضيف: تكرمه.

(٢) تحمل الكل: تنهض بالأمر المهم وتحمل العبء العظيم.

(٣) تكسب المعدوم: تعطي الفقير والمحتاج.

(٤) تُعين: تسعى في الخير وتعين عليه.

لكن فترة الوحي طالت واسترسلت، حتى ظن رسول الله ﷺ أن ربه قد تركه وقلاه^(١)، وكره منه ما بدا عليه من الرعب عند رؤية الملك أول مرة، وأنه لم يُعُدْ أهلاً لأن يتحمل تبعه الوحي وأثقاله. واشتد به الحزن حتى كاد يقضى عليه، وكثر تردده على الجبال وتطلعه إلى السماء تلهفًا على عودة الوحي، وتشوقًا إلى رؤية جبريل عليه السلام، لعله يعود إليه فيُسمعه من هذه الآيات البينات ما يعيد إلى نفسه الطمأنينة والثقة.

يا لها من فترة شديدة شاقة، كانت تمر أوقاتها بطيئة ثقيلة مرهقة، تكاد اللحظة فيها تكون شهرًا، وتكاد الساعة تكون دهرًا!.. ألا قَبَسَ من ذلك النور الإلهي الذي أضاءت له جوانب نفسه، يحو عنه ظلمة اليأس التي كادت تودي به فتهلكه؟!..

وحين أوشك اليأس أن يحطم قلبه، أدركه الله برحمته، فأرسل إليه أمينه جبريل، يحيى في نفسه ما فقدته من الأمل، ويعيد إليها الثقة والطمأنينة والحياة!.. فهذا جبريل، عليه السلام، قد ظهر له مرة أخرى، وتراءى له في أفق السماء، يناديه بصوته العظيم: «يا محمد، أنت رسول الله حقًا، وأنا جبريل»!.. ولكن رسول الله يُرْعَبُ منه كما رُعب في أول

(١) قلاه: أبغضه.

مرة، فهوى إلى الأرض من شدة الهول!.. ثم يذهب إلى أهله مقروراً^(١) يقول: «زملون..! زملون..!». .

رحمة الله برسوله

والحق أن وطأة الوحي شيء فوق طاقة البشر العادى أن يحتمله؛ ومع أن رسول الله ﷺ قد أمد بالقوة الكافية، وأعد لاحتمال هذه الوطأة الشديدة، فإنه «كان يعانى من التنزيل شدة، وكان إذا نزل عليه الوحي كُرب له وتربد وجهه^(٢)، وتحدر منه العرق فى اليوم الشديد البرد»*. وقد كانت الهزة الأولى من هزات الوحي عنيفة قاسية، وكانت رؤية الملك لأول مرة قد تركت فى كيانه أثراً شديداً؛ فكان من رحمة الله برسوله ﷺ أن يفتر عنه الوحي فترة، حتى يستجمع شئبات نفسه الشائرة، وجسمه المضطرب، وقلبه الواجف، ويستعد لما وراء ذلك من أثقال الوحي وتبعاته الجسام.

كانت فترة الوحي إذن شيئاً ضرورياً، وكانت رحمة من الله برسوله، ونعمة من نعمه الكثيرة التى أنعم بها عليه. والتأمل فى «سورة الضحى» التى نزلت فى أعقاب هذه الفترة، يرى

(١) مقروراً: مرتعد الأوصال كمن به حمى.

(٢) تربد: تغير لونه.

* من أحاديث عائشة، رضى الله عنها..

هذا المعنى واضحاً كل الوضوح؛ إذ يقسم له ربه فيها بأنه ما هجره ولا تركه، ولا قطع عنه الوحي كُرْهاً ولا قِلْيَ!.. وكيف وقد تولاه بالرعاية منذ نشأ، ولم يتخل عنه لحظة من لحظات حياته؟.. فأواه وهو يتيم قد فقد أباه وأمه، وأغناه وهو فقير يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وهداه وهو ضالٌّ حائر لا يدري كيف يصلح قومه، واصطفاه من دون قومه ليكون رسوله إليهم وإلى الناس كافة..! فهذه النعم الجليلة المترادفة دليل على أنه لم يتخل عنه، وأنه سيظل يرعاه ويحوطه، وسوف يعطيه ثم يعطيه من فيض رحمته، حتى يطمئن ويرضى، وحتى تكون أخراه خيرًا له من أولاه..!.

كانت فترة الوحي - إذن - نعمة من أنعم الله على رسوله، أراد بها تثبيته، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه من الوحي، حتى تتم به حكمة الله تعالى في إرساله إلى الخلق. وحين استجم، صلى الله عليه وسلم، وأخذ جسمه كفايته من الراحة، وأخذت نفسه حظها من الهدوء، أرسل الله تعالى إليه جبريل، يباديه بالوحي مرة أخرى، ثم يواليه بعد ذلك بما شاء الله منه، حتى أتم الله نعمته على خلقه، وأكمل لهم دينهم، ورضى لهم الإسلام ديناً.

ويحدث رسول الله ﷺ عن فترة الوحي - فيما يرويه جابر

ابن عبد الله - فيقول: « .. فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجثت فرقاً منه حتى هويت إلى الأرض؛ فجثت أهلى فقلت: زملون! .. زملون! .. فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾^(١) .. ثم حمى الوحي وتتابع؛ فقررت بذلك عينه، وربط جاشه، واطمان قلبه، وأيقن أنه رسول الله حقاً. ومنذ لك الحين بدأت مرحلة جديدة في حياته، صلى الله عليه وسلم، هي اضطلاعُه بعبء الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة.

(١) سورة المدثر الآيات ١ - ٧.

مطلع الفجر

المهمة الثقيلة

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿والضحى﴾ * والليل إذا
سجى * ما ودّعك ربك وما قلى * ولأخرة خير لك من
الأولى * ولستوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً
فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى *
فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة
ربك فحدث﴾.

كان نزول الوحي بعد فترته، بسورة «الضحى» برداً وسلاماً
على نفس النبي ﷺ، بعد أن عراه ما عراه من الهم والقلق
طوال هذه الفترة، وبعد أن داخله ما داخله خلالها من
الهاجس والظنون. وكان ما تضمنته آياتها من معاني الثبوت
والتأييد، بلساناً شافياً لكل ما مادّت به نفسه من نوازع اليأس
والخوف؛ فانجابت بها مخاوفه، وأشرقت نفسه من جديد، وشعر
بروح الأمل يسرى في كيانه، وأخذ كل شيء فيه يسترد نشاطه،

ويستعد بكل ما فيه من أسباب القوة، لاحتمال العبء العظيم الذى ألقى على عاتقه.

لقد جاءه الحق الذى كان يتلمسه ويبحث عنه، وتحقق له الأمل الذى كان يَنشُدُه ويتطلع إليه، وألقى عليه الوحي أنقل مهمة تُلقَى على بشر، وأهاب به أن يقوم لينذر الناس، ويدعوهم إلى عبادة الله العلى الأكبر، وهجر ما هم عليه من عبادة الأوثان، ومن ارتكاب الإثم والعدوان؛ وأمره أن يكون قدوة صالحة للناس فى ظاهر أمره وباطنه، وأن يُخلص وجهه ونفسه لله، وأن يصبر على ما يلاقيه فى سبيل دعوته إلى الله من مشقة وأذى.

كيف يدعو قريشًا إلى الحق؟

فكيف يدعو قريشًا إلى الحق، وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم؟ وأى طريق يسلك لإقناعهم بأن ما هم فيه هو الباطل، وأن ما جاءهم به هو الحق؟ وكيف وهذا الحق يُبطل عقائدهم، ويهدم تقاليدهم، ويهدد كل ما يتناولون به على الناس من جاه وسلطان، وما يستمتعون به فى الحياة من لذة ومتاع؟

لا شك أنهم ضلوا السبيل وبعُدوا عن الحق، فتركوا الآله الأكبر الذى يَخْلُقُ ويرزُقُ ويحيى ويميت، وإليه المرجع والمصير،

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾^(١)، وأيقنوا أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، وأن هذه الفترة القصيرة من العمر، هي الفرصة التي ليس وراءها فرصة لانتهاج اللذائذ والمتع؛ فأطلقوا العنان لشهواتهم، واستمتعوا بكل ما يشتهون من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، وفرحوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، ولم يُدر بخلداهم قط أن هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، وأنها حياة أَدْوَم وأبقى، فيها النعيم المقيم لمن أحسن في حياته الأولى، وفيها العذاب الأليم لمن أسأ فيها.

ولكن الحق الذي يدعو إليه، لا يمكن أن يقوم إلا على تقويض هذه العقائد الباطلة التي يعتقدونها، وهدم هذه الحياة التافهة التي يحيونها، والاعتقاد بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن ما يعبدون من دونه من هذه الأوثان، إنما هي آلهة زائفة، لا تغني عنهم من الله شيئاً، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً؛ وأن وراء الموت بعثاً وحساباً، وحياة أخرى يجازى الناس فيها على ما عملوا في الحياة الدنيا، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

(١) سورة الفرقان الآية ٣.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١).
 فهل يمكن أن تقتنع قريش بأن آلهتها من الأصنام لا تنفع
 ولا تضر؟ وكيف وقد نشأوا يعبدونها كما يعبدها آباؤهم،
 ويعتمدون عليها في معاشهم؟ فهم أهل الحرم وسدنة البيت
 وخدام الآلهة، والعرب من أجل ذلك يدينون لهم بالسيادة،
 ويعترفون لهم بالفضل، ويمدونهم بمدد عظيم من الأموال والأنعام
 والأرزاق، حين يَقْتَمُونَ عليهم في مواسم الحج، وحين يقدمون
 في غير هذه المواسم للتجارة في أسواق مكة، أو لزيارة البيت
 الحرام، أو لاستخارة الآلهة في أمورهم ومشاكلهم، وهى أمور
 ومشاكل لا تكاد تنتهى.. فكيف يمكن أن يتركوا هذه الأصنام
 وهى التى تجلب لهم كل هذا الخير، وتمنع عنهم كثيرا من أذى
 الأعراب الذين يسكنون فى البادية، ويقطعون الطريق على
 القوافل الغادية والرائحة، إلا قوافل قريش، فهى تغدو وتروح
 آمنة لأنها قوافل أهل الحرم؟ وكيف يمكن أن يضحوا بهذا المدد
 الذى لا ينقطع من الأموال والأرزاق، وبهذه المنزلة التى وضعتهم
 فوق هامات العرب، وجعلت لهم السيادة والسلطان على قلوبهم
 وأرواحهم؟ إنهم سدنة البيت وخدام الآلهة..! فهل بعد هذه
 منزلة يطمح إليها طامح فى العرب جميعا؟.

(١) سورة الزلزلة آيتا ٧، ٨.

وهل يمكن أن تصدق قريش بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى، فيها الحساب وفيها الجزاء على ما قدم الإنسان في الحياة الدنيا؟ وما عسى أن تكون هذه الحياة؟ وكيف يمكن أن تكون بعد الموت، وهم يروون الأجسام تَبَلَّى وتأكَلها القبور، فلا يبقى من آثارها إلا العظام النَّخِرَة، والتراب الذى تَذروه الريح، فيذهب بَدَدًا في نواحي الأرض؟ فهل يمكن إقناعهم بأن تلك الحياة شىء ممكن، وأنها شىء على الله يسير، وأنها هى الحياة الحقة التى ينبغى أن يُعَدِّوا لها أنفسهم، وأن الحياة الدنيا إذا قيست إليها، إنما هى لعب ولهو ومتاع قليل وعَرَض زائل؛ وأن السعادة فيها ليست بما يتكاثر به الناس من مال وبنين، ولا بما يطاولون به من جاه وسلطان، ولكن بمقدار ما تنطوى نفوسهم من معاني الرحمة والعدل والإحسان والحب والإيثار؛ وأن هذه المعاني الكريمة هى التى خُلِقَ من أجلها الإنسان، وهى التى تليق بشرف منزلته علو مكانته، وهى التى تميزه عن الحيوان الأعجم، وتؤهله لأن يكون خليفة الله فى الأرض، ينشر فيها مبادئ الحق والخير والسلام، ويقاوم روح الشر والإثم والعدوان؟..

كيف يمكن إقناعهم بهذه المبادئ السامية، وإعدادهم لإدراك هذه المعاني الكبيرة؟.. إنها لمعضلة صعبة ومشكلة معقدة، وإنها

لتحتاج إلى مدد من القوة والعون الإلهي.. ولكن ما دام الله القوي هو الذى أوحى إليه أن ينهض لهذا الأمر العظيم، فلينهض، وليتوكل على الله فهو حسبه، وهو نعم المولى ونعم النصير..!

البدء بالدعوة

وجعل، صلى الله عليه وسلم، يفكر ويقلب وجوه الرأى، ليجد المدخل السهل الذى يدخل منه إلى قلوب هؤلاء السادرين فى ضلالهم، الجامدين على تقاليدهم وأوهامهم؛ فأخذ يتلمس أصحاب القلوب اللينة، والنفوس المستعدة للهداية وقبول الحق؛ وبدأ من هؤلاء بمخلطائه وصحبه عن يثق بهم ويطمئن إليهم، فجعل يدعوهم إلى الإسلام سراً، إذ كان يحرص كل الحرص على ألا ينكشف أمر الدعوة فى بدايتها للسادة من قريش، مخافة أن يهبطوا للقضاء عليها وهى لا تزال فى المهد. فقد كان يعلم أن قريشاً لا تحارب أحداً كما تحارب من ينحرف عن دينها، ولا تقاوم شيئاً كما تقاوم الخروج على تقاليدها وعاداتها؛ وكان أظنّ شىء يهيجها ويثير حميتها أن تُمسَّ سيادتها وسلطانها على الناس أى مساس، إذ كانت سيادتها وسلطانها مصدر رفاهيتها ونعمتها. وكانت المبادئ التى تضمنتها دعوة الإسلام، من الإيمان بالله

واحد، ومن الإيمان بالبعث بعد الموت، وبالدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، وبأن الناس جميعاً إخوة سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن للفقير حقاً معلوماً في مال الغنى.. هذه المبادئ وأمثالها مما تضمنته الدعوة كانت أشد المبادئ خطراً على دين قريش؛ ودين قريش هو مصدر سيادتها وسلطانها على العرب، ومصدر ما تستمتع به من رزق واسع وثراء عريض. فكان من الحكمة أن تتسرب هذه المبادئ إلى قريش في هدوء، وألا يستعلن أمرها إلا بعد رسوخها في قلوب الذين يتقبلونها ويستجيبون لها؛ حتى إذا آمنوا بها واستيقنتها أنفسهم، كانوا هم القواعد التي يقوم عليها البناء، والبذور التي توضع في الأرض لتؤتي ثمرها بإذن الله.

الرعيّل الأول

من أجل ذلك أخذ رسول الله ﷺ يعمل في تكتم وحزم ويدعو إلى دينه سرّاً كل من يثق به ويطمئن إليه من أهله ومن خلصائه؛ فأمنت به خديجة، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، فكانت له نعم المعين، تثبتته وتشدت من عزيمته، وتخفف عنه كل ما يلم به من هم، وتهون عليه أمر الناس وما يلقاه من ردهم وتكذيبهم؛ ففرج الله بها عنه وشد من أزره.

وآمن به علي بن أبي طالب، وكانت سِنُهُ إذ ذاك حول العاشرة؛ وكان يعيش مع النبي في بيته، إذ كان أبوه أبو طالب كثير العيال، وكان قد مرت به أزمة شديدة، فأراد رسول الله ﷺ أن يخفف عنه، فأخذ منه «عليًا»، وأخذ عمه العباس «جعفرًا»؛ فنشأ علي في بيت رسول الله ﷺ كأنه ولده. فلما بُعث، صلى الله عليه وسلم، بدين الإسلام دخل عليه علي وهو يصلي مع خديجة، فوقف ينظر إليهما حتى أتتا صلاتهما؛ ثم سأل رسول الله عن هذا الذي رآه، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «هذا دين الله الذي اصطفى لنفسه وتبعث به رسله؛ فادعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم؛ فلست بقاض أمرًا حتى أحدث به أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يُفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يا علي، إذا لم تُسلم فاكم علي هذا الأمر ولا تحدث به أحدًا!..» فكث علي تلك الليلة يفكر فيما رأى وما سمع من رسول الله، فأوقع الله في قلبه الإسلام، فأصبح غاديًا على رسول الله حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد

والشركاء». ففعل علىٰ كما علمه رسول ﷺ وكم إسلامه فلم يظهره. ومكث يأتي رسول الله على خوف من أبي طالب.

وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبي طالب مستخفياً من أبيه ومن جميع قومه، فيصليان في تلك الشعاب حتى إذا أمسيا رجعا؛ فكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا. ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان؛ فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟» قال: «يا عمّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين آبينا إبراهيم، بعثنى الله به رسولا إلى العباد. وأنت - ياعم - أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجباني إليه وأعانني عليه!» - فقال أبو طالب: «يا بن أخي، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه؛ ولكن، والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت...» ثم قال لعلى: «أى بنى، إنه لم يدعك إلا إلى الخير، فالزمه...»

وكما آمنت خديجة وعلى من بيت النبي، صلى الله عليه وسلم، آمن غلامه وخادمه زيد بن حارثة.

وكان أبو بكر، رضى الله عنه، رجلا محبباً في قريش، يألّف الناس ويألفونه، ويجمعون عنده فيستمعون إلى حديثه

ومجلسه، وكان عالماً بأنساب قريش وأيامها، مُلماً بأخبار الناس وحوادث الدهر، وكان رجلاً تاجراً يطوف بتجارته في الأفاق، فزادته التجارة والسياسة في البلدان علماً وتجربة، ومعرفة بأحوال القبائل وعادات الأمم، فكان مجلسه مجلس أنس وعلم وتسلية؛ وكان إلى كل ذلك لطيف المعشر حلو الحديث رضى الخلق، وكان ذا جاه ومنزلة وثروة في قريش. وكان يجب رسول الله حياً شديداً، وكانت تجمع به جامعة قوية من الثقة والإخلاص وصدق الصحبة. فما كاد رسول الله يعرض عليه الإسلام حتى أسلم؛ وكان إسلامه إسلام الواثق المطمئن إلى صدق ما جاء به صاحبه، فجعل يدعو إلى الإسلام سراً من كان يثق به من أصدقائه وأحبائه؛ فأمن بدعوته عثمان بن عفان والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن الزبير. فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصدقوا بالله ورسوله.

وكان هؤلاء نفر أول السابقين إلى الإيمان بالله ورسوله، فكانوا هم اللبنة الأولى في بناء الإسلام، وهم الأساس الذي قام عليه صرحه الشامخ، والدعائم التي استحکم عليها بناؤه، حتى تم تمامه ورسخت قواعدة بإذن الله.

سادة قريش

المجتمع المكي

كان المجتمع المكيّ ثلاث طبقات متميزة، يختلف بعضها عن بعض في المكانة والمنزلة، ويختلف تبعاً لذلك ما تتركه كل طبقة منها من أثر في ذلك المجتمع : طبقة السادة من الأغنياء والزعماء؛ وطبقة الرقيق من العبيد والإماء ومَن في حُكمهم من الدُّمَاءِ والعامة؛ وطبقة الأحلاف من العرب وغير العرب ممن كانوا يعيشون في مكة وليسوا من أهلها، ولكن تربطهم بالسادة من أغنيائها وزعمائها روابط الحلف والجوار. وذلك أن العرب كان في طبيعتهم نزعة التعصب للجار والحليف وحمايته من كل ما يسوء، كما يتعصبون في ذلك لأهلهم وعشيرتهم، فكان الغُرباء والدُّخلاء - ممن يفدون على مكة من العرب والعجم ويريدون أن يقيموا بها - يتحالفون مع بعض ساداتها على أن يعيشوا في حمايتهم؛ فيأمن الحليف بذلك كل اعتداء عليه، ويصبح كواحد من أسرة السيد الذي حالفه، يحارب من حاربهم

ويسالم من سالمهم، وله فيما عدا ذلك أن يكون حرًا في شئونه الخاصة، وأن يتخذ من أسباب الرزق ما يكفل له ولاهله العيش السعيد.

سيادة قريش على العرب

وكانت قريش على اختلاف بطونها وعشائرها، هم - في اعتقاد العرب - أهل الحرم، وكان للحرم مكانته في نفوس العرب جميعًا؛ ومن أجل ذلك كان العرب يعظمون قريشًا، ويدينون لهم بالسيادة عليهم، ويعتقدون أنهم أولو الأمر وأصحاب الحل والعقد في كل ما يتصل بشئون الدين. وكانت قريش تستفيد من ذلك أيما فائدة؛ فكانتهم مكانة مرموقة، وسيادتهم سيادة مطلقة، وحياتهم في ظل هذه العقيدة حياة آمنة مطمئنة؛ قد أمنوا فيها على أموالهم وأنفسهم، واستمتعوا فيها بحرية واسعة وجاه عريض؛ والعرب مع ذلك يسعون إليهم في كل موسم من مواسم الحج، بما يحملون من الأموال والمتاع، وبما يقدمون إلى البيت من أنواع الهدى، وبما يحملون فوق ذلك إلى الأصنام من نذور وقرابين. وكان هنالك نوع آخر من هذا الدخل المستمر، يتمثل في شكل ضرائب يضربونها على الداخلين في أرض الحرم؛ والعرب يتقبلونها منهم بحكم العقيدة الدينية، غير باخلين بها ولا متأفين منها.

العييد والإماء

وكان الرقيق من العبيد والإماء كذلك مَوْرِدًا آخر من موارد الرزق، وسببًا من أسباب النعمة التي يستمتع بها السادة من قريش، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من السادة في جميع الأمم والشعوب؛ إذ كان الرق نظامًا سائدًا في تلك العهود، وكان الرقيق يباعون ويُشْتَرَوْنَ كما تباع الأنعام وتشتري، ويُستخدَمون كما تستخدم الأنعام أيضًا، يعملون لسادتهم ما يريدونهم عليه من الأعمال، دون أن يتقاضوا على ذلك أجرًا، ودون أن يكون لهم شيء من الحرية فيما يأخذون وما يتركون، ودون أن يكون لهم رأى بعد رأى سادتهم في شأن من الشؤون؛ فهم يعملون كآلات مسخرة، تنتج الزرع والضرع والخير الكثير، وتنتج فوق ذلك ما شاء الله من البنين والبنات، فيصبحون بحكم هذا الرق عبيدًا وإماءً لسادتهم، يعملون - كما يعمل أبائهم وأمهاتهم - مسخرين بلا أجر ولا جزاء، اللهم إلا رضاه سادتهم عنهم إذا هم أحسنوا العمل، أو غضبهم عليهم إذا هم أساءوا، فإذا ما رضى عنهم السادة فقد يجازونهم ببسمة كبرياء عابرة يرسمونها على شفاههم، أو كلمة عطفٍ ساخرة يستنزفون بها جهودهم ويستنهضون بها قواهم. وقد يبالغون في الرضا عنهم، فيبيعون

لهم حرّيتهم بما يفترضون عليهم من الثمن، وربما منّوا بها منّا عليهم، فيخرجون بذلك من ضيق العبودية إلى فرج الحرية؛ ولكنهم يظلّون على كل حال أسرى الولاء لسادتهم حتى يموتوا. أما إذا غضب عليهم السادة، فالويل كل الويل لهم مما يلاقون من ضروب الإيذاء واللوان العذاب.

كان هؤلاء الرقيق باباً آخر من أبواب الثروة التي ينعم بها السادة من قریش، لا يقل في أهميته عما ينعمون به من الأموال والأنعام والثمار وعروض التجارة، بل ربما كان عندهم أكثرها أهمية، لأن الرقيق هم الأيدي العاملة التي تعمل تنتج في كل ناحية من نواحي الإنتاج، وهم فوق ذلك مظهر من مظاهر الأبهة والسلطان، يحرص عليه السادة كل الحرص، ويتنافسون فيه أشد التنافس.



قضت مكة دهرًا طويلًا وهي تعيش في ظل هذا النظام، حتى أصبح عقيدة راسخة في أهلها أن السادة لهم السيادة المطلقة، وأن العبيد لهم العبودية المطلقة، وأن الأحلاف لهم الأمن والحماية ما داموا حلفاء للسادة، فإذا ما تقطعت بهم أسباب هذا الحلف فهم معرضون للأذى في أموالهم وأنفسهم وأهليهم. وقد اصطبغت هذه العقيدة بصغة الدين، حتى أصبح

لها ما للدين من قداسة واحترام؛ ذلك أنها تتصل في بعض أوضاعها بالبيت الذي يحجون إليه، وبالآلهة التي يعبدونها ويقدمونها.

المساواة في الإسلام

وكانت مبادئ الإسلام التي جاء بها محمد بن عبد الله تأبى هذا النظام وتعارضه كل المعارضة؛ فقد جاء الإسلام يسوّى بين السيد والعبد، وبين القوى والضعيف، وبين الغنى والفقير وجعل الإيمان والعمل الصالح مقياس التفاضل بين الناس؛ فالتناس أمام الإسلام إخوة سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ودمائهم وأموالهم وأعراضهم حرام بينهم؛ فلا يحل للمسلم دم أخيه ولا ماله ولا عرضه إلا بالحق: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. فكان هذا المبدأ - مبدأ المساواة بين السادة والعبيد - صدمة عنيفة للسادة في سيادتهم، وكان أول من أصيب بهذه الصدمة سادة قريش في مكة..

الإيمان بالآخرة

وكان الإيمان بالدار الآخرة صدمة أخرى لهؤلاء السادة، لا تقل في عنفها عن الصدمة الأولى؛ فقد كانوا يعيشون في

حرية مطلقة، لا تحدّها حدود ولا تقيدها قيود، يخضون ويلعبون، ويرتعون في الشهوات كما يشاءون، ظانين أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، وأنه لا رقيب هناك ولا حسيب. فجاء الإسلام ينقض هذه العقيدة الخاطئة، يبين لهم أن الإنسان لن يُترك سُدَى في هذه الحياة، يرتع فيها كما ترتع السائمة، بل هو مسئول عن كل ما يعمل، محاسب عليه ومجزى عنه في حياة أخرى بعد هذه الحياة؛ وما الموت إلا الانتقال من هذه الحياة الفانية إلى تلك الحياة الباقية، ليسعد في نعيمها من أحسن العمل في الحياة الأولى، وَيَشَقَّ، في جحيمها من أسماء العمل فيها: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ * خالدین فیها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، إن ربك فعال لما يريد * وأما الذين سعدوا في الجنة، خالدین فیها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، عطاءً غير مجدود﴿^(١).

عقيدة التوحيد

وكانت أعنف الصدمات، وأشدّها خطرًا عليهم عقيدة التوحيد، التي جعلها الإسلام أساسه الأول، وهي الإيمان بأن

(١) سورة هود الآيتا ١٠٦ - ١٠٨.

الله وحده هو الإله الحق، وأن كل ما عداه من الآلهة زَيْفٌ باطل، وأنه هو وحده مالك الملك، وواهب الرزق، ومقدّر الأجل، وإليه المرجع والمصير؛ وأن ما يدْعُونَ من دونه من الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(١)... فقد هدمت هذه العقيدة دينهم، وقوضت عقائدهم وكشفت لهم عن حقيقة هذه الأوثان التي يعبدونها، والتي يعيشون في ظلها سادة على العرب؛ فإذا هي وهمٌ من الأوهام لا قيمة له ولا غناء فيه.

خطر الإسلام على سيادة قريش

إذَنْ فهذا الدين خطرٌ عظيم يهدد سيادتهم، ويُقلق أمنهم وراحتهم، ويُقلب الأوضاع التي تعارفوا عليها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل.. إن هذا الدين يسوّى بين العبيد والسادة، فكيف يكونون هم وعبيدهم بمنزلة سواء؟ وكيف يمكن أن يكون العبيد إخوة للسادة، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؟ وكيف يمكن تسخير هؤلاء العبيد إذا ما أحسّوا بأنهم أكفأ لسادتهم في منازل الشرف والكرامة؟ ومن يدري، فلعلهم أن يكونوا أكرم عند الله من سادتهم!.. وكيف تستقيم أمورهم

(١) سورة سبأ الآية ٢٢.

بعد ذلك في تجارتهم وزراعتهم، وفي رعاية أنعامهم وخدمة بيوتهم، وفي كل ما يسخر له هؤلاء العبيد من شؤون حياتهم؟ إنه الفوضى والاضطراب إذن!.. بل هو الفساد الشامل يدعو إليه محمد وينشره بين الرقيق والدمماء، فيغريهم بسادتهم ويفسدهم عليهم!..

وإنه كذلك ينذرهم عذاب الآخرة، ويخوفهم عاقبة هذه الحرية الواسعة التي يستمتعون بها؛ وذلك كَبْتُ للشعور، وتضييق للحرية، ومبالغة في حرمان، وانحدار بهم إلى منزلة العبيد؛ وإلا فإذا يكون الفرق بينهم وبين عبيدهم، إذا هم حوسبوا على الصغيرة والكبيرة كما يحاسب العبيد؟..

ثم هو فوق هذا وذاك يدعوهم إلى إله واحد، فيقضى بذلك على مكانة هذه الأوثان التي كانوا يسُودون بها على العرب. فبأى شيء يسودون إذا زالت عن الآلهة قداستها وانحطت مكانتها، وأدرك العرب أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنهم من الله شيئاً؟..

ماذا بق لهم بعد ذلك من أسباب السيادة والمجد إن نجحت هذه الدعوة؟.. لا شيء!.. فكان لا بد لهم أن يقاوموها، وأن يُحولوا بينها وبين الظهور والانتشار، وأن يُقبروها قبل أن

يتفاقم خطرهما ويتطير شررها، فيأتى على كل ما يستعزؤون به من عزة ونعيم.

وهكذا عقدوا العزم على مقاومتها، محاولين بذلك أن يصرفوا الناس عنها، ويحولوا بينهم وبين الإيمان بمبادئها الخطيرة..
﴿يريدون أن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِّمَّ نُوْرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

(١) سورة التوبة الآية ٣٢.

الجهر بالدعوة

الحذر من قريش

استمر رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام سرًا، وأصحابه من حوله يدعون بدعوته، فيستجيب لهذه الدعوة من أراد الله له الهداية من رجال مكة ونسائها، فيزداد عدد المؤمنين بها يومًا بعد يوم. ولكنها كانت زيادة ضئيلة متباطئة، تطرد في تعثر وتمشى على استحياء؛ إذ كان الناس في مكة يخشون بأس قريش وسلطانها، فكان الذين يُسلمون منهم يسلمون في حذر وخوف.

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يُسرُّ إلى أصحابه تعاليمه، ويحذرهم أن يستعلنوا بصلاتهم ودعوتهم، مخافة أن تتسرب أنباؤها إلى قريش، فتقضى عليها وهي لا تزال قليلة الأنصار ضعيفة الشوكة، فكان أصحاب الرسول إذا أرادوا أن يصلوا، خرجوا إلى ظواهر مكة، وأمعنوا في شعاب الجبال، فصلوا هنالك في منعطفاتها المنعزلة، مستخفين بصلاتهم من عيون القوم خشية أن تراهم.

لكن أنباء الدعوة على رغم ذلك تسربت إلى قريش، فأخذوا يراقبون محمداً وصحبه ليعلموا علمهم، وليعرفوا حقيقة ذلك الأمر الذي يجتمعون له، ويتخافتون به، ويعتزلون القوم من أجله. فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، في شُعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد يومئذ رجلاً من المشركين بلحى^(١) بعير فشج به رأسه؛ فكان هذا أول دم أريق في الإسلام، وكانت هذه أول معركة بين المسلمين والمشركين في مكة.

دار الأرقم

وقد حرص رسول الله ﷺ على أن يتجنب مواقف الاصطدام بينه وبين قومه، فاختار له ولأصحابه مكاناً منعزلاً عن الناس، هو دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهو سيد من سادات قريش الذين سبقوا إلى الإسلام، وكانت داره تلك على مقربة من الصفا، فكان رسول الله ﷺ يجتمع فيها بأصحابه، يعظهم ويرشدهم ويصلي بهم، ويتلو عليهم ما أوحى إليه من آيات

(١) اللحى: عظم من عظام الفك.

القرآن الكريم، ويعلمهم كيف يطبقون مبادئها في حياتهم؛ فكانت تلك الدار لهم مسجداً للعبادة، ومدرسة للتعليم والتهديب، وندوة للشورى وتدبير الأمور. واستمرت الحال على ذلك نحو ثلاث سنين، وعدد المسلمين يزداد شيئاً فشيئاً، حتى بلغ من أسلموا من الرجال والنساء نحو الأربعين، أكثرهم من المستضعفين والفقراء، وأقلهم من الأشراف والسادة.

دعوة العشيرة

ثم أوحى الله إلى رسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، وأنزل عليه في ذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إني بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١). وكان فيهم عمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكان يدعى «أبا لهب»، لأن وجهه - فيما يقال - كان مشرقاً حسناً، تتلهب وجنتاه بالحمرة كما تتلهب النار. وكان سرياً من سراة قريش، كثير المال مسموع الكلمة؛ وكان شديد التعصب لدين قريش وتقاليدها، حريصاً أشد الحرص على أن يظل هذا الدين مرعى الجانب موفور الكرامة. وكانت فيه حدة وسفاهة واندفاع مع الغضب إلى غير

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٤ - ١٢٦.

حد. وكان أشد ما يسوءه أن تُمس قداسة الألهة أو تُمتن كرامة الآباء، فيثور لذلك أعظم الثورة، ولا يبالي أن يعادى في ذلك أقرب المقربين إليه.

أبو هب

وكان رسول الله ﷺ يعرف منه ذلك، ويخشى أن يفسد عليه أمره بما فيه من حق وجهالة؛ فجعل يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها أن يدعو عشيرته إلى الإسلام، بحيث يتق شر هذا العم الجهول، ويأمن أثر نفوذه القوى على بنى هاشم؛ فصنع لهم طعاماً ودعاهم إليه فحضروا، وكانوا نحو الأربعين رجلاً. فلما انتهوا من طعامهم تأهب الرسول لعرض دعوته عليهم، فبادره أبو هب بقوله: «هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك، فتكلم ودع الصباة!»^(١).. فلا تخرج على دين قومك، ولا تعرضهم لغضب العرب؛ فإن قومك لا يستطيعون مقاومة العرب قاطبة، وليس لهم بجرهم طاقة!.. وقد علم قومك بما تريد أن تُبدع في دينهم، ولم يخف عليهم أمرك وما تدعو إليه من الصباة والخروج على تقاليد الآباء!.. فاربع^(٢) على نفسك وعلى بنى أبيك، واعلم

(١) الصباة: هو الخروج على دين الآباء وتقاليدهم.

(٢) اربع: احذر واحترس.

أن العرب لن يتركوك، ولن يَشُق عليهم أن يشبوا بسك فيقتلوك!.. فارجع إلى دين آبائك وأجدادك خير لك، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك الذى أنت فيه، وحتى نحول بين العرب وبينك.. فنحن أولى بتأديبك حتى يُثوب إليك رشدك وتبراً من علتك.. فإن بنى أبيك أولى بتأديبك، وأحق من أخذك فحبسك، إن أقت على ما أنت عليه، فهذا أيسر عليك وعليهم من أن تثبَّ بك بطونُ قريش وتمدّها العرب.. فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشرَّ مما جثتهم به..!«^(١).

وكان نائراً مهتاجاً، يُلقى بالكلام فى عنف وشدة، كأنما يلقى بالقذائف والحُصم، ويشير بيديه مهدداً متوعداً، وقد جَحَظت عيناه وانتفخت أوداجه، واصطغ وجهه بحمرة قانية كأنما يتفجر بالدم، فلما سكت لم يسكت عنه الغضب، فجعل جسمه ينتفض كأنه محموم، وجعلت عيناه ترسلان الشرر فى كل ناحية، حتى لتكاد تُحرق من تقع عليه من القوم. ونظر رسول الله ﷺ فإذا القوم سكوت، وإذا الجوّ كله وجوم وكآبة؛ فعمل أن الفرصة لم تَحُنْ بعد، وأن الجوّ غير ملائم للكلام، فسكت ولم يتكلم فى ذلك المجلس.

(١) تصرفت فى هذه العبارة بمقدار ما يشرح غواضها ويوضح أغراضها فقط.

وتلَّبث رسول الله ﷺ أيامًا، ثم دعاهم إلى وليمة أخرى. وتقول الرواية التاريخية: إن بعض عمَّات الرسول أشرن عليه ألا يدعو عمه أبا لهب؛ ولعله كان راغبًا في ألا يدعو كذلك، ثم رأى أن يدعو اتقاء لشره، أو أملًا في أن يكتب الله له الهداية فيهندي. ومهما يكن من شيء فقد حضر أبو لهب هذه الدعوة، كما حضر التي قبلها.. فما إن فرغ القوم من طعامهم حتى بادروهم رسول الله قائلاً: «الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. أما بعد، فإن الرائد^(١) لا يكذب أهله، ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم.. والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة!.. وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فقال: ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾؛ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله!.. والله تموتن كما تنامون، ولتبعن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحساس إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا..! يا بني عبد المطلب، والله ما أعلم شابًا جساء قومه

(١) الرائد: الذي يرسل في طلب الكلاب. وهو الطليعة التي يستطلع للقوم فيها.

بأفضل مما جئكم .. إني جئكم بخير الدنيا والآخرة .. فمن
يبيئني إلى هذا الأمر، ويؤازرنى على القيام به؟^(١)

موقف أبي طالب

فتكلم عنه أبو طالب كلامًا لينا، واعتذر اعتذارًا لطيفًا،
فقال: «ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد
تصديقنا لحديثك! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم،
غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به، فوالله
لا أزال أحوطك وأمنعك^(٢). غير أن نفسي لا تطاوعني على
فراق دين عبد المطلب».

أما أبو لهب فقد ثار ثائرته، وانتفخ سحره، وعاد إليه حمقه
وجهله، فصاح كما يصيح الأسد الهائج: «هذا والله
السوءة^(٣)..! خذوا على يديه^(٤) قبل أن يأخذ على يده غيركم؛
فإن أسلمتموه حينئذ ذلتم، وإن منعتموه قُتِلتم».. ويقولون:
إن أخته صفية - إحدى عمات الرسول، صلى الله عليه وسلم،

(١) لامعت بين الروايات المختلفة في سرد هذه النصوص ولم أخرج بها في جملتها عن
نص كلامه صلى الله عليه وسلم، ولا عن المناسبة التي قيل فيها.

(٢) أمنعك: أحميك.

(٣) السوءة: العار.

(٤) خذوا على يده: امنعوه مما يريد.

- حاولت أن تهدي من ثورته فقالت له : «أيجسُن بك خِذْلان ابن أخيك؟. ألا يسرك أن يخرج من ضِئْضِي^(١) عبد المطلب نبي..؟» فصاح بها نائراً: «هذا - والله - الباطل والخيال، وكلام النساء في الحجال^(٢)!.. فإذا قامت بطون قريش وقامت العرب معها، فما قوتنا بهم؟.. فما نحن إلا أكلة رأس^(٣)!..» فقال أبو طالب: «والله لئمنعته ما بقينا!..».

ونظر القوم إلى أبي طالب فإذا هو مصمم يعني ما يقول؛ فأروا أن من العار أن يتخلوا عن ابن أخيه، فأنحازوا إلى أبي طالب. وخرج أبو هب خزيان مخدولاً، يُنذر ويتوعد، ويقسم باللات والعزى: لَيُذَلَّنُ دمه وماله في حرب هذه الدعوة، وليحولن بين هذا الصابئ وبين ما يريد من تبديل دين قريش!..

ومنذ ذلك اليوم دبت العداوة بين أبي هب وبين بنى هاشم؛ فوقفوا كلهم صفاً وراء رسول الله ﷺ يُحِطُونَهُ وَيَعْنُونَهُ، ووقف هو من دونهم صفاً يحارب رسول الله ﷺ.

(١) ضِئْفَى المرء: أصله.

(٢) في بعض الروايات: وكلام ريات الحجال. وهو يعني أن هذا ليس من شأن النساء، إنما شأنهن أن يتزينن بالخلاخيل وغيرها.

(٣) كناية عن قلة عددهم، يعني أن رأساً واحداً من الغنم تكفي لإشباعهم جميعاً.

وبناوئته، ويحاول جهده أن يصرف الناس عن دينه. ﴿والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾^(١).

عداوة أبي هب

واندفع أبو هب في عداوته إلى غير حد، فلم يراع في ذلك رَجْمًا وَلَا قُرْبَى، ولم يقدر أن ذلك الذى يعاديه هو أن أخيه وصِهْرُهُ وجارُهُ الأذن وأعماه الغضب والتعصب عن كل ذلك فلم يأبه بشيء، وانساق مع نزعة البغض انسياقًا عنيفًا، حتى صار أعدى عدو للنبي، صلى الله عليه وسلم، وحتى أنزل الله فيه سورة عنيفة حادة، تعينه بالاسم، وتنذره هو وزوجته بالسويل وسوء المصير في الدنيا وفي الآخرة؛ فقد كانت هي الأخرى عنيفة العداوة للرسول، وكانت ترتكب من الحماقة في عداوتها ما لا يتفق مع مكانتها في قريش، وتأتى من الأمور ما يهبط بها إلى فَرْك السفلة الأوغاد.

كان النبي، صلى الله عليه وسلم، جَارًا ملاصقًا لعمه أبي هب، وكان مع ذلك يُتِّمَّ إليه بصلة المصاهرة؛ إذ كانت ابنتاه - رُقِيَّة وأم كلثوم - زوجتين لعتبة وعُتَيْبَةَ ابني أبي هب. ولكن هذه الصلات جميعًا لم تكن لتخفف شيئًا من حدة العداوة

(١) سورة يوسف الآية ٢١.

والحقد في نفسه؛ بل كانت عداوته للرسول تزداد يوماً بعد يوم. ولعل مما كان يَشِبُّ في نارها ويزيد في استعارها، أن زوجه أم جميل بنت حرب، هي أخت أبي سفيان بن حرب زعيم بني أمية؛ ذلك الذي ظل على عداوته للإسلام ورسوله، حتى فتح الله عليه مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا؛ فدخل فيه مع الداخلين..

وامراته جمالة الخطب

لقد كانت أم جميل تحمل في صدرها من الضغن على رسول الله أضعاف ما كان يحمل زوجها؛ وكان دأبها أن تشير الفتن بينه وبين عشيرته، وأن تسعى لدى القوم بالتيمة لتفسد عليه قلوبهم؛ حتى وصفها الله أشنع وصف، فسأها ﴿جمالة الخطب﴾، وهي صفة التمام الواشية، التي تُشعل نار الفتن بين الناس، فتُحرق ما بينهم من صلوات الود والتراحم، وهبط بها إلى أسفل كرك حين صورها في صورة الخطابة، التي لا تكاد تمشي إلا و﴿في جيدها جبل من مسد﴾^(١)، تلم فيه الخطب من هنا ومن هناك، ثم تحمله إلى كوخها لتشعل به نارها.

والحق أن أم جميل كانت أشد عداوة للرسول ﷺ من

(١) سورة المد.

زوجها أبو لهب، فلم يكن يكفيها ما تثيره من الفتن بينه وبين قومه؛ بل كانت تعمل دائبة على تحقيره وامتهانه، وكانت تعيره بالفقر حيناً وبموت البنين حيناً، وحيناً تضع في طريقه الشوك والقدر، وحيناً تقرض في ذمه الشعر وتتغنى به في مجالسها. وقد بلغ من عداوتها وحقدتها على الرسول أنها لم تكن تنطق باسمه قط، ولم تكن تدعوه إلا «مُذَمِّمًا». وما أثر عنها في ذلك قولها:

«مُذَمِّمًا قَلْبِنَا»^(١) ودينه أبينا»^(٢) وأمره عصينا!»

وكان صلى الله عليه وسلم. يضحك من ذلك ويقول: «يا عباد الله، انظروا كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم...؟ يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً وأنا محمد!...». ولعل أم جميل كانت مدفوعة إلى هذه العداوة القاسية، بعاطفة العداوة القديمة بين بني هاشم رهط^(٣) رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبين رهطها بني أمية بن عبد شمس؛ فقد كان بين الرهطين نزاع دائم، وتنافس على مناصب الشرف والزعامة في قريش، منذ عهد قصي بن كلاب، وقد ظللت الأجيال

(١) قلبناه: كرهناه وأبغضناه.

(٢) أبينا: أبينا الدخول في دينه.

(٣) رهطه: قومه وعشيرته.

تتوارث هذه العداوة جيلا بعد جيل، فكان لها في الجاهلية وفي الإسلام تاريخ طويل، خُصِّبَتْ صفحاته بالدماء الغزيرة، وامتلات بالخطوب الجسام.

ولعلها كذلك كانت مدفوعة إلى هذه العداوة، بعاطفة البغض الطبيعي بين الحماة وزوجة الابن؛ فقد كانت حماة لابنتي الرسول رقية وأم كلثوم؛ فوجدت في دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام، وفي خروجه على دين قومه، فرصة للتفيس عن نفسها، والجهر بما تُكِنُّ في صدرها من الحقد والكراهية للرسول وآل بيته. وقد بلغ من حقدما وكراهتها أن أثرت عداوتها في نفس وَلَدَيْهَا عتبة وعتيبة فطلقا زوجتيهما، نكايه في رسول الله ﷺ وحقدًا عليه.

ولعل زوجها أبا لهب كان في استمرار عداوته للرسول مدفوعًا بتأثيرها أيضًا، فلم يكن يسرها أن تبدأ العداوة بينه وبين عمه؛ وكلما رأت منه جنوحًا إلى الصفاء، نفتت فيه سموم البغض فعاد إلى عداوته وضغته. فقد كانت - فيما يُظَنُّ - امرأة جريئة وقحة، سليطة اللسان، قوية التأثير فيمن حولها؛ فإن ما وصفها به القرآن من شنيع الوصف، وما توعدّها به من شديد العقاب، يدل دلالة واضحة على أنها كانت قوية التأثير فيمن يحيطون بها، الأهل والجيران والرفقاء.

ومهما يكن من شيء فقد كانت هي وزوجها أبو لهب من أشد الناس عداوة للرسول ودعوته، وكان هما الشديداً وحزنها البالغ. أن تظهر هذه الدعوة، وأن ينجح هذا الرسول في تحويل الناس عن دين قريش؛ فجعلها شغلها الشاغل أن يفسدا على الرسول أمره، وأن يصرفا الناس عن دعوته، وأن يبذلا في ذلك كل ما يستطيعان من جُهد ووقت وراحة ومال.

الجهر بالدعوة

على أن ذلك لم يمنع رسول الله ﷺ أن يجهر بدعوته وأن يبادى بها قريشاً، حين أوحى الله إليه أن يصدع بأمره، وأن يُعرض عن المشركين ولا يبالي بهم. فلم يلبث أن ذهب إلى الصفا فصعد عليه، وجعل يصيح: «يا صباحاه!.. يا صباحاه!..» - جريئاً على عادة العرب حين يتداعون لأمر مهم، وحين يستصرخون لدفع خطب مُلِم - حتى اجتمعت إليه بطون قريش؛ فلما اجتمعوا إليه قال لهم: «أرايم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مُصدّقين؟..» قالوا: نعم. أنت عندنا غير مُتهم، وما جربنا عليك كذباً قط. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!.. يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تَم، يا بني مخزوم، يا بني أسد... إن الله أمرني

أن أندر عشيرق الأقرين، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة
 ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله...
 يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، فإننى لا أغنى عنكم
 من الله شيئاً... إن مثلى ومثلكم كمثلى رجل رأى العدو
 فانطلق يريد أهله أن يسبقوه إليهم، فجعل يهتف:
 يا صباحاه!.. يا صباحاه!.. أتيتم، أتيتم^(١)!..»

فقاطعته أبو لهب بقوله: «تبا لك سائر اليوم!... لهذا
 جمعتنا...؟» وكان هو أول من رد عليه فكذبته وآذاه، وصرف
 الناس عنه؛ فأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي
 لَهَبٍ وَتَبَّ^(٢)» ما أغنى عنه ماله وما كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ
 لَهَبٍ* وامرأته تَمَالَّةُ الْحَطْبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِمنْ
 مَسَدٍ^(٣)!...»

صيحة الصفا وأثرها في قريش

على أن هذه الصيحة لم تذهب سُدى؛ فقد شاع حديث
 الدعوة في مكة منذ ذلك اليوم، وتحدث الناس به في مجالسهم

(١) أتيتم: دعتمكم العدو.

(٢) التب والتباب: الهلاك.

(٣) الجيد: العنق. والمسد: الليف.

وأنديتهم. وجعلت نفوس أهل مكة تتهياً لهذا الأمر؛ فأخذوا يتساءلون فيما بينهم: ما هذا الدين الذي يدعو إليه محمد؟... ﴿فَنَهُمُ مِنَ هَدَىٰ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾^(١).. فأما الذين كتب الله لهم السعادة، فقد جعلوا يتسللون تباغاً إلى رسول الله ﷺ، يستوضحونه أمر هذا الدين الذي يدعو إليه، فيشرحه لهم فيسلمون. وأما الذين كتب عليهم الشقاء، فقد أعرضوا عن هذه الدعوة، وعميت بصائرهم أن تستضيء بنورها، وكانوا في ذلك فريقين: فريق وقف منها موقف الوداعة والمسألة، فلم يقاومها ولم يعرض لها بسوء؛ وفريق وقف منها موقف العداوة والحاربة، فجعلوا وكدهم أن يقاوموها وأن يقضوا عليها؛ وكان جُلُّ هؤلاء، بل كلهم، من الزعماء والسادة، الذين رأوا في هذه الدعوة قضاء على سيادتهم، وخطراً على مصالحهم. وكان أشدهم عداوة وأعنفهم حرباً للرسول ودعوته، أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، وعقبة بن أبي معيط؛ وقد كان الأخيران جارين للنبي يؤذيانه أشد الأذى. وفي ذلك يقول، صلى الله عليه وسلم، فيما روت عائشة: «كنت بين شرِّ جارين: بين أبي لهب، وعقبة بن أبي معيط... إن كانا ليأتيان بالفروث^(٢)، فيطرحانها على بابي، حتى إنهم ليأتون ببعض

(١) سورة النحل الآية ٣٦.

(٢) الفروث: ما يخرج من كرش الذبيحة.

ما يطرحون من الأذى^(١)، فيطرحونه على بابي!...» فيخرج به،
صلى الله عليه وسلم، فيقول: «يا بني عبد مناف، أي جوارٍ
هذا؟...» ثم يلقيه بالطريق.

(١) المراد بالأذى هنا: كل ما يؤذي الإنسان منظره. ولعل المقصود منه هو البراز
وما يمثله من النجس.

أبو طالب وقريش

أحاديث قريش عن الدعوة

أخذ صوت الإسلام بعد صيحة الصفا يرتفع في مكة، بعد أن ظل خافتاً نحو ثلاث سنين، وأخذ المسلمون يتحدثون به جهراً بعد أن كانوا يتهامون به همساً، وأخذ الناس يتساءلون عن هذا النبا العظيم الذي جاءهم به محمد؛ حتى صار ذلك حديث الغادى والرائح في مكة، وجعل الناس يتحدثون به في مجالسهم الخاصة والعامة، في بيوتهم وأنديتهم، وفي أوقات جدِّهم وهوهم، وشغلهم وفراغهم، وسفرهم وإقامتهم.

وأخذ المستضعفون من العبيد والإماء ومن المساكين والفقراء، ومن الأتباع والموالي، يستمعون إلى أنباء هذه الدعوة، فيتسنمون منها رُوح الأمل ييبُّ عليهم، فيُطمِعهم في حياة أفضل من هذه الحياة، وفي منزلة أكرم من هذه المنزلة؛ فقد كانوا يعيشون في غمرة من الإهمال والظلم، تجعلهم أحط درجة من الحيوان الأعجم، ويقضون أيام الحياة مغمورين مطمورين،

مرغمين على أن يقبلوا عيشة الذل والبؤس حتى يموتوا. فهم
يقطعون أيامهم بلا أمل ولا رجاء، ويعيشون ويموتون نسيًا
منسيًا، كأنهم سَقَطُ المتاع^(١) في هذا الوجود.

فجاءهم الإسلام بمبادئه القويمة، لينقذهم من ذلك اليأس
القاتل، ويفتح لهم باب الأمل في حياة أخرى بعد هذه الحياة،
فيها العدالة المطلقة التي لا ظلم فيها، وفيها الجزاء الحق الذى
لا شك فيه، وفيها السعادة الدائمة التي لا انقطاع لها. وهونَ
عليهم أمر الحياة الدنيا وما يلاقون فيها من شدة العيش وقسوة
الظلم؛ فما هى إلا فترة قصيرة يستطيع المرء أن يحتمل ما يعانیه
فيها من المشقة، وأن يصبر على ما يلاقه فيها من الظلم، حتى
يصير إلى الحياة الآمنة المطمئنة، فيستمتع بما فيها من السعادة
الدائمة.. وكل ما يبذله ثمنًا لهذه السعادة، أن يعمر قلبه
بالإيمان بالله، وأن يملأ أيامه بالعمل الصالح.

أما هؤلاء الذين يظلمونهم من الأقوياء والسادة، فليس الله
غافلاً عنهم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ*
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْضَتُهُمْ
هَوَاءٌ... يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَرَزَوُا لِلَّهِ

(١) سقط المتاع: ما لا قيمة له ولا غناء فيه من الأشياء.

الوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ *
 سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ
 نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾.

إقبال المستضعفين على الإسلام

بعثت هذه المبادئ السَّمْحَةُ الْأَمَلُ فِي نَفُوسِ الْمُسْتَضْعَفِينَ،
 فَأَقْبَلُوا يَتَدَافِعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ إِقْبَالَ الطَّيِّبِ عَلَى زَلَالِ الْمَاءِ؛
 فَيَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبِرِّ وَالتَّكْرِيمِ، وَيَسْطُرُ لَهُمْ وَجْهَهُ وَقَلْبَهُ
 وَعَجَلَسَهُ، وَيَسْوَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ،
 لَا يَفْرُقُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَلَا بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ،
 وَلَا بَيْنَ الْحُرِّ وَالرَّقِيقِ؛ وَيَقِفُ مِنْهُمْ جَمِيعًا مَوْقِفَ الْأَخِ الشَّفِيقِ
 وَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ، ﴿يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ
 لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
 وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(١)، وَيَضْرِبُ لَهُمُ الْمَثَلَ الْكَامِلَ بِخُلُقِهِ
 وَدِينِهِ؛ وَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْلُدُونَهُ، وَيَتَرَسَّمُونَ خَطَاهُ فِيمَا يَقُولُ
 وَمَا يَفْعَلُ، وَيَطِيعُونَهُ طَاعَةَ الْإِكْبَارِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْحُبِّ.

(١) سورة إبراهيم الآيات ٤٢ - ٥١.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

استهانة قريش بالرسول ودعوته

ولم تكن قريش في أول الأمر تدرك ما في هذه الدعوة من خطر على سيادتها ودينها، فكانت تنظر إلى الرسول وصحبه فلا تأبه لهم، ولا تلتق بالآل إليهم، ولا ترى فيما يفعلون شيئاً تنكره عليهم؛ وإنما هو رجل اختار لنفسه خُطة في الحياة ووافقه فيها نفر من الناس، فهو لا يعدو أن يكون واحداً من ثلاثة... إما كاهن يتوهم الحق توهُماً كما يصوره له تبيعه من الجن، ثم يصوغه كلاماً أجوف، في ألفاظ مسجوعة، وعبارات موضوعة، لها طنين ورنين، ولكن لا تغني من الحق شيئاً... وإما شاعر يهيم في أودية الخيال، ويسبح في متاهات الضلال، ويستخر الناس بمُجَلو لسانه وسحر بيانه، فيتبعه الغاؤون الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون... وإما صائب مجنون، من أولئك الذين تضطرب عقولهم فيخرجون على ذين الأباء، فينبذهم المجتمع نبذ النوى، ويضطربهم إلى الفرار منه فيقضون حياتهم في وحشة وانقباض، وعزلة وانفراد، حتى يأتيهم الموت فيريحهم ويريح منهم.

ويؤكد الله تعالى لهم أن رسوله محمداً ﷺ ليس واحداً من أولئك، ويقسم على ذلك فيقول جل شأنه: ﴿فَلَا أَقْسَمُ

بها تُبصرون * وما لا تبصرون * إنه لَقَوْل رسول كريم *
وما هو بقول شاعر، قليلا ما تُؤْمِنُونَ * ولا بقول كاهن، قليلا
ما تَذْكُرُونَ * تنزيلٌ من ربِّ العالمين ﴿١﴾... ولكنهم
لا يصدقون. وكلما رأوا رسول الله يهيم بالذِّهْماء ويخالطهم،
ويُزَلِّهم منازل الكرامة والاعتبار سخروا منه، وعابوا عليه أن
يكون رسولا ثم يبيط بنفسه إلى مستوى الذهماء، أو يرتفع بهم
إلى مستواه. ويقولون: هذا دين السيفهاء، ﴿لو كان خيرا
ما سَبَقونا إليه﴾ (٢). ويضحكون من المؤمنين كلما رأوهم،
ويتكهنون بأخبارهم ويتندرون بما يصنعون معهم. وفي ذلك يقول
الله تعالى: ﴿إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا
يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم
انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لَضَالُونَ﴾ (٣).
ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يعبأ بهم ولا يهيم
بسُخْرهم واستهزائهم، بل هو ماض في سبيله يدعو إلى الله على
بصيرة، وأتباعه من الضعفاء يكثرون ويتزايدون، وقليل من
السادة بين الحين والحين يُسلمون.

(١) سورة الحاقة الآيات ٣٨ - ٤٣.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١١.

(٣) سورة المطففين الآيات ٢٩ - ٣٢.

قريش تحس خطر الدعوة

وانتشر الإسلام في مكة وذاع نبؤه في أرجائها، ودخل الناس فيه أرسالا من الرجال والنساء؛ وبدأ رسول الله يعيب على الكفار دينهم، ويذكر آهتهم بالسوء، ويتوعدهم بما أعد لهم من العذاب في الآخرة؛ فساء الأمر بينه وبينهم، وبدأت العداوة تسرى في القلوب، وأخذوا يُحسبون خطر الإسلام عليهم وعلى دينهم، ويفكرون في القضاء عليه قبل أن يتفاقم خطره ويتعاضم ضرره؛ واجتمعوا يتبادلون الرأي فيما بينهم: كيف يقضون على هذا الدين، ويصرفون الناس عنه؟.

أما شباب قريش وفتيانها المتحمسون، فقد رأوا أن يُحسبوا الداء من أسامه، ويقطعوا الشجرة من جذورها، ولا يرون ذلك إلا بقتل محمد والخلاص منه. وأما شيوخها وحلماءؤها فقد آثروا الحكمة والأناة، ورأوا ألا يعرضوا لمحمد بسوء حتى يُعذروا فيه، وحتى يسمع منهم ويسمعوا منه؛ فلعله أن يعود إلى الرشيد فيرجع إلى دين آبائه.

وتغلبت حكمة الشيوخ على حماسة الشباب، فرأوا أن يقنعوا عمداً بالحسن؛ فاجتمع به الملأ من قريش، وحاولوا أن يعودوا به إلى دين قومه، وأن يرجعوه عن هذا الدين الذي فرّق به

شعلهم وعاب آهنتهم، وجرّاً سفهاءهم على أشرافهم. فلم يسمع رسول الله ﷺ لهم ولم يقبل منهم، وقال لهم كما علمه الله سبحانه: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين﴾^(١).

قريش تسعى إلى أبي طالب

قال ابن إسحاق: «فلما رأت قريش رسول الله لا يُعْتَبَهُمْ^(٢) من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعَيَّب آهنتهم، وراوا أن عمه أبا طالب قد حَذَب عليه وقام دونه فلم يُسَلِّمه إليهم.. مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عُبَيْة وشَيْبَة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البَخْتَرِي العاصي ابن هشام، والأسود بن المطلب، وأبو جهل بن هشام، والوليد ابن المغيرة، ونبيه ومُنبه ابنا الحجاج، والعاصي بن وائل - أو من مشى منهم - فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آهنتنا، وعاب ديننا، وسفّه أعلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن نحلى بيننا وبينه فنكفّيكه، فإنك على مثل

(١) سورة الكافرون.

(٢) لا يعتبهم: لا يرضيهم.

ما نحن عليه من خلافه!... فقال لهم أبو طالب قولا جميلا، فانصرفوا عنه؛ ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه...

ثم شَرَى^(١) الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش من ذكر رسول الله بينها فْتَدَامَرُوا^(٢) فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه.

ثم إنهم مشؤا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيئك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا - والله - لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا - ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم؛ ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ولا خذلانه.

العزيمة الصادقة

قال ابن إسحاق.. حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة ابن الأحنس: أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة،

(١) شَرَى: اشتد.

(٢) تَدَامَرُوا: اجتمعوا على كراهته وبغضه.

بعث إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن
أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا - للذى كانوا
قالوا له - فأبى على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر
ما لا أطيق. (قال): فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه
بُؤس، وأنه خاذله ومُسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام
معه. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «والله
لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك
هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه!...» ثم
استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام... فلما ولى نساداه
أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخى... فأقبل رسول الله، صلى
الله عليه وسلم، فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت،
فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً...

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب
قد أبى خذلان رسول الله وإسلامه، وإجماعه لفراقهم فى ذلك
وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له
- فيما بلغنى - : يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد
فتى فى قريش وأجمله؛ فخذّه، فلك عقله ونصره، واتخذّه ولداً
فهو لك... وأسلم لنا ابن أخيك - هذا الذى قد خالف
دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم -

فنتقله، فإنما هو رجل برجل. قال أبو طالب: والله لَبِئْسَ ما تَسْؤُمونني!.. أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونهُ؟... هذا والله لا يكون أبداً!... (قال): فَحَقِّبِ الأمر وَحَمِيَةِ الحرب، وتنابذ القوم وبأدى بعضهم بعضاً،

بنو هاشم يتعصبون للرسول

ورأى أبو طالب أن الأمر بينه وبين قريش أصبح جدًّا لا هزل فيه، وأنه غدا أمر كرامة لا بد أن تصان، وعصية لا بد أن يدافع عنها؛ فجمع بني هاشم وعرض عليهم ما دار بينه وبين قريش، وما كان من أمره وأمرهم، وتشاور معهم فيما يجب أن يُفعل؛ فاتفق رأيهم جميعاً على أن يذودوا عن شرفهم، وأن يقفوا صفًّا وراء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإن لم يكونوا على دينه.. إلا أبا لهب، فقد خرج بمفرده على إجماعهم، وآثر أن ينحاز إلى جانب العدو، وإن شذ في ذلك عن مألوف العرب وتقاليدهم؛ مدفوعاً إلى ذلك بما كان يَكُنُّ في صدره من الحقد على رسول الله ﷺ وعلى دعوته.

وهكذا وقفت قريش كلها صفًّا، ووقف بنو هاشم صفًّا وأخذت العداوة بين الفريقين تعمل عملها.. قريش تدافع عن دينها وسيادتها، وبنو هاشم يدافعون عن شرفهم وكرامتهم..

وكان للخصومة القديمة بين بني هاشم وبنى أمية أثرها في اشتداد هذه العداوة وقسوتها؛ ولكن بني هاشم صمدوا لها صمود الأبطال، ولم تسمح لهم كرامتهم، أن يتخلوا عن رسول الله، وإن كانوا قد احتملوا بسببه أذى كثيرا.

الاضطهاد والتعذيب

غيظ قريش

أثار موقف أبي طالب ثائرة السادة من قريش، ودفعهم إلى الشُّطط في محاربة الدعوة، فقد عرضوا عليه كل ما يمكن من عروض الترضية، ليتخلى لهم عن ابن أخيه، فلم يظفروا منه بطائل، ووقف من دونه كالطود يحميه ويحوطه، ومن ورائه بنو هاشم يناصرونه ويشدون أزره. واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، في دعوته، يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد القهار، ونَبَذ ما يعبدون من دونه مما لا يضرهم ولا ينفعهم؛ وتتابع نزول القرآن عليه في تحقير آلهة المشركين، وجعل رسول الله ﷺ كلما نزلت عليه آية تلاها على أصحابه، فيذيعونها في أرجاء مكة، فيشتد لذلك غضب الملأ من قريش، ويدفعهم الغضب إلى الثورة، ويحفزهم للانتقام من هذا الذي يعرض لأهتهم بالسوء.. ولكن ماذا ينالون منه وبنو هاشم من حوله يحوطونه ويمنعونونه؟..

انتقام قريش

واشدد بهم الغيظ، لم يجدوا متنفسًا لغيظهم إلا أن يشوروا بالضعفاء الذين أسلموا واتبعوا محمدًا، ممن لا سند لهم يمنعهم، ولا ظهر لهم يحميهم، فانقضت كل قبيلة على من فيها من العبيد والإماء، والمساكين والفقراء، والأتباع والموالي، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وافتنوا في ذلك أفانين، وابتدعوا ضروبًا من الشر، تدل بوحشيتها وقسوتها على ما كانت تغلى به صدورهم من الثورة والغيظ، ومن الحقد الشنيع على دعوة الإسلام، وعلى كل من يؤمن بها، أو يتعصب لها، أو يدافع عنها.

تعذيب المستضعفين

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: «فأما من كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفار إليه؛ فلما رأوا امتناع من له عشيرة، وثبت كل قبيلة على من فيها من المستضعف المسلمين فجعلوا يجسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار، ليفتنوهم عن دينهم.. فمنهم من يُقتل من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلب في دينه ويعصمه الله منهم..»

بلال

فمنهم بلال بن رباح الحبشى، وكان أبوه من سبى الحبشة وأمه حمّامة سبيّة أيضاً.. فصار بلال لأمية بن خلف الجمحى، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول: لا والله، لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى!.. فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد.. أحد!..» فرآه أبو بكر يعذب فقال لأمية بن خلف ألا تتق الله في هذا المسكين؟.. فقال: أنت أفسدته فأبعدته. فقال له أبو بكر: عندي غلام على دينك أسود أجلدُ من هذا، أعطيكه به. قال: قبلت. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالا فاعتقه فهاجر وشهد المشاهد^(١) كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

آل ياسر

ومنهم عمار بن ياسر.. أسلم هو وأبوه وأمه، وأسلم قديماً ورسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، بعد بضعة

(١) المشاهد: الغزوات.

وثلاثين رجلاً. وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم؛ فكانوا يُخرجون
 عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح^(١) إذا حميت الرمضاء، يعذبونهم بحرّ
 الرمضاء؛ فمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «صبراً
 يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة!». .. ثمات ياسرٌ في العذاب،
 وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل، فطعنها في قَبْلِها بجريرة في
 يديه ثماتت؛ وهى أول شهيدة في الإسلام. وشددوا العذاب على
 عمار، بالحرق تارة وبوضع الصخر أحمر^(٢) على صدره تارة،
 وبالتغريق تارة أخرى؛ وقالوا: لن نتركك حتى تسب محمدًا
 وتقول في اللات والعزى خيراً. ..! ففعل، فتركوه. فأتى النبي،
 صلى الله عليه وسلم، يبكى. فقال له: «ما وراءك؟» قال:
 شر يا رسول الله. .. كان الأمر كذا وكذا. قال: «فكيف تجِدُ
 قلبك؟» .. قال: أجده مطمئناً بالإيمان. قال: «يا عمار، إن
 عادوا فَعَدُّ. .. فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
 بِالْإِيمَانِ﴾^(٣). فشهد المشاهد كلها مع رسول الله، صلى الله عليه
 وسلم.

(١) الأبطح: فضاء واسع يكثر فيه الحمى.

(٢) أحمر: أى حليماً شديداً الحرارة.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٦.

خَبَاب

ومنهم خَبَاب بن الأرت.. كان أبوه سَوَادِيًّا من كسكراً؛ فسباه قوم من ربيعة وهملوه إلى مكة. فباعوه من سباع بن عبد العزى الخزاعى، حليف بنى زهرة.. وكان إسلامه قديماً - قيل: سادس ستة - قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. فأخذ الكفار وعذبه عذاباً شديداً، فكانوا يُعرونه ثم يُلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف - وهى الحجارة المحاماة بالنار - ولَووا رأسه، فلم يجيبهم إلى شيء مما أرادوا منه. وهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

صُهَيْب

ومنهم صُهَيْبُ بن سِنَان الرومى.. ولم يكن روميًّا، وإنما نسب إليهم لأنهم سَبَّوه وباعوه.. وهو من التمر بن قاسط. كناه رسول الله «أبا يحيى» قبل أن يولد له. وكان ممن يعذَّب فى الله فعذب عذاباً شديداً. ولما أراد الهجرة منعتة قريش، فافتدى نفسه منهم بماله أجمع.

عامر بن فهيرة

أما عامر بن فهيرة فهو مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي - وكان الطفيل أخا عائشة لأمها، أم رومان - أسلم قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. وكان من المستضعفين، يعذب في الله فلم يرجع عن دينه. اشتراه أبو بكر وأعتقه، فكان يرعى غنماً له. وكان يروح بغنم أبي بكر إلى النبي وإلى أبي بكر لما كانا في الغار؛ وهاجر إلى المدينة يخلمهما، وشهد بدرًا وأحداً، واستشهد يوم بئر معونة؛ ولما طعن قال: «فُزْتُ ورب الكعبة!...».

أبو فكيهة

ومنهم أبو فكيهة.. وكان عبداً لصفوات بن أمية.. أسلم مع بلال، فأخذه أمية وربط في رجله حبلاً، وأمر به فجر، ثم ألقاه في الرمضاء، ومّر به جُعَلٌ^(١) فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ قال: الله ربي وربك ورب هذا.. فخنقه خنقاً شديداً؛ ومعه أخوه ابن بن خلف، فيقول: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره. ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد

(١) الجعل: الجمران.

مات؛ ثم أفاق.. فر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه. وقيل: إن
بني عبد الدار كانوا يعذبونه - وكان مولى لهم - وكانوا يضعون
الصخرة على صدره حتى ذلَّع^(١) لسانه، فلم يرجع عن دينه،
وهاجر ومات قبل بدرًا.

لبينة

ومنهم لبينة، جارية بني مؤمل بن حبيب.. أسلمت قبل
إسلام عمر بن الخطاب؛ وكان عمر يعذبها حتى تفتن، ثم
يدعها ويقول: إني لم أدعك إلا سامة. فتقول: كذلك يفعل
الله بك إن لم تسلم فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

زنيرة

ومنهم زنيرة.. وكانت لبني عدى، وكان عمر يعذبها.
وقيل: كانت لبني مخزوم؛ وكان أبو جهل يعذبها حتى عميت.
فقال لها: إن اللات والعزى فعلا بك. فقالت: وما يُدرى
اللات والعزى من يعبدهما؟ ولكن هذا أمر السماء، وربي قادر
على رد بصرى!.. فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها.

(١) طلع: خرج.

فقال قريش : هذا من سحر محمد.. فاشتراها أبو بكر فاعتقها.

النهدية

ومنهم النهدية.. مولاة لبني نهد، فصارت لامرأة من بني عبد الدار فأسلمت. وكانت تعذبها وتقول : والله لا أقلعت عنك أو يتاعك بعض أصحاب محمد.. فابتاعها أبو بكر فاعتقها.

أم عنيس

ومنهم أم عنيس.. وهى أمة لبني زهرة، فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها.. فابتاعها أبو بكر فاعتقها.

* * *

وهكذا أسرف المشركون فى تعذيب الضعفاء من المسلمين، وأرهقوهم إرهاباً شديداً، حتى كان منهم من لا يقوى على احتمال العذاب فيموت فى أيديهم، ومنهم من تضطره قسوة التعذيب إلى مجارة المشركين، فيرضيهم بظاهر من القول وقلبه مطمئن بالإيمان.

قال ابن إسحاق : .. حدثني حكيم بن جبير عن سعيد

ابن جبیر قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب، ما يعذرون به عن ترك دينهم ؟ قال : نعم والله !.. إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضّر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة.. حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم.. حتى إن الجعل ليمرّ بهم فيقولون له : هذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم.. اقتداءً منهم مما يبلغون من جهده.

قال ابن إسحاق : وكان أبو جهل الفاسق هو الذي يُغرى بهم في رجال من قريش.. إن سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومَنعة أبه وخزاه، وقال له : تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ لَسُفَهَنَ حِلْمَكَ، وَلنَفَلَنُ رَأْيَكَ، وَلنَضَعَنَّ شَرَفَكَ !.. وإن كان تاجراً قال : لَنُكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، وَلنُهْلِكَنَّ مَالَكَ !.. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

الرسول يثبت أصحابه

وكان رسول الله ﷺ يتألم لأصحابه أشد الألم، ولكنه كان يدعوهم إلى الصبر، واحتمال ما يلقون من العذاب والأذى في

سبيل الله حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده. وكان يهون عليهم شدة العذاب بما يذكر لهم من سير المؤمنين في الأمم التي خلت، وما كان من قوة احتمالهم، ورسوخ إيمانهم، وصبرهم على ألوان من العذاب أشنع وأقسى مما يلاقون هم. ويؤكد لهم أن نصر الله آت لا ريب فيه، وأن رحمة الله قريب من المحسنين.

روى البخاري عن قيس قال: سمعت خبابًا يقول: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببردٍ وهو في ظل الكعبة - وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: «قد كان من كان قبلكم ثمشطُ بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه!.. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه!.. وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!..»

لم يقتصر التعذيب على الضعفاء

على أن كثيرًا من المسلمين الذين كانت لهم عشيرة تحميهم لم يسلموا كذلك من الأذى.. فقد عذب عثمان بن عفان وكان

من عليه القوم؛ وأوثقه عمه بجبل من مَسَد وجعل يضربه ضرباً مبرحاً. وكان الزبير بن العوام يُلَفّ في حصرير ويترك ليستشق الدخان. وشجَّ عمر بن الخطاب أخته فاطمة حتى سال منها الدم، وضرب كذلك زوجها سعيد بن زيد. وقُيِّد أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد وحبس، وعذبه أبوه عذاباً شديداً. وضرب أبو بكر حتى شجَّ رأسه وسال منه الدم وغشى عليه، وحتى خرج مهاجراً إلى الحبشة، لولا أن رده ابن الدغنة سيد الأحابيش وأجاره من أذى قريش.

ولم يسلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الأذى، على رغم ما كان يحوطه من حماية بنى هاشم؛ فقد كانوا يضعون الشوك والقذر في طريقه، وكانوا يلقون على رأسه التراب وهو سائر، ويضعون عليه سَلَى^(١) الذبيحة وهو ساجد في البيت الحرام. وخنقه عُقبة بن أبي مُعيط في رجال من قريش حتى كادت نفسه تفيض، لولا أن تداركه أبو بكر فخلصه منهم وقال: «أنتقلون رجلاً أن يقول ربى الله؟» وسبه أبو جهل سباً قبيحاً يوم أسلم عمه حمزة. وسلطت عليه ثقيف سفهاءها وصبيتها يرمونه بالحجارة حتى دَمِيَّتْ قدماءه.. وكذبوه وسفَّهوه واستهزؤا

(١) السلى: الخلاص، وهو الكيس الذى يكون فيه الجنين وهو في بطن أمه.

به وسخروا منه، وقالوا: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون،
وأسمعوه كثيرًا من فحش القول وهُجر الكلام، واتتمروا به
ليقتلوه.. ولن كل ذلك لم يَقْتِ في عضده، ولم يمنعه أن ينهض
بأمر ربه، حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وتمت كلمة ربك
صدقًا وعدلاً.

الهجرة إلى الحبشة

خاف النبي على أصحابه الفتنة

رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن كفار قريش معنونون في تعذيب أصحابه، مندفعون في وحشية قاسية إلى التنكيل بهم، انتقاماً لأهنتهم، وإبقاء على مكانتهم. ورأى أنه غير قادر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، فخشى على أصحابه أن يفتنهم طول العذاب عن دينهم، ورأى أن يختار لهم مكاناً يأمنون فيه على أنفسهم، ويتوارون فيه بعض الوقت عن وجوه أولئك الظلمة الجبابرة؛ فأشار عليهم أن يهاجروا إلى الحبشة، وقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه!». .

وكانت الحبشة تدين بالنصرانية - دين عيسى ابن مريم - صلى الله عليه وسلم؛ وكان ملكها النجاشي نصرانياً صادق النصرية، فخرج إلى الحبشة أحد عشر رجلاً وأربع نساء، فيهم

عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفيهم الزبير بن العوام ابن عم خديجة، وجعل النبي عليهم عثمان بن مظعون، فكان هذا الفوج أول من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة، وكانت هجرتهم إليها في شهر رجب من السنة الخامسة للرسالة.

فلما وصلوا إليها أكرم النجاشي مشاهمهم، وأحسن لقاءهم، ووجدوا عنده من الطمأنينة والأمن ما لم يجدوه في وطنهم وأهلهم؛ فشجعهم ذلك على أن يبعثوا في طلب إخوانهم المعذبين في مكة، فأرسلوا نفرًا منهم ليخبروا رسول الله بما هم فيه من حسن الجوار وطيب العيش في بلاد النجاشي، ويعرضوا على من شاء من إخوانهم المسلمين أن يهاجروا معهم. فهاجر معهم في هذه المرة عدد كبير من الصحابة، حتى بلغ عدد الذين هاجروا إلى الحبشة نحو الثمانين رجلاً، عدا من كان معهم من النساء والأطفال؛ فأقاموا هنالك عند النجاشي في خير مقام. فغاظ ذلك قريشاً، ودعاها إلى التفكير في أمر هذه الهجرة.

السعي بالمهاجرين عند النجاشي

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: «لما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا، وأن النجاشي قد أحسن

صحبتهم، اثتمروا بينهم؛ فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما هدية إليه وإلى أعيان أصحابه فسارا حتى وصلا إلى الحبشة؛ فحملا إلى النجاشي هديته وإلى أصحابه هداياهم، وقالوا لهم: إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم؛ وقد أرسلنا أشرف قومهم إلى الملك ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم. وخافا إن سمع النجاشي كلام المسلمين ألا يسلمهم. فوعدهما أصحاب النجاشي المساعدة على ما يريدان.

ثم إنهما حضرا عند النجاشي فأعلماه ما قد قالاه؛ فأشار عليه أصحابه بتسليم المسلمين إليهما، فغضب من ذلك وقال: «لا والله، لا أسلم قوماً جاورون ونزلوا بلادى واختاروني على من سواي.. حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان؛ فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ما يقول هذان، منعتهم وأحسنت جوارهم!».

النجاشي يأبى أن يردهم

. ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ﷺ فدعاهم فحضروا، وقد أجمعوا على صدقه فيما ساءه وسره، وكان المتكلم

عنهم جعفر بن أبي طالب. فقال لهم النجاشي: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟» فقال جعفر: «أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ونأكل القوي منا الضعيف.. حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وألا نشرك به شيئاً، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام؛ وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم؛ وأمرنا بالصلاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - (قال): فأما به وصدقناه، وحرّمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحلّ لنا؛ فتعدى علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان؛ فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك».

فقال النجاشي: «هل معك مما جاء به عن الله شيء؟» قال: «نعم». وتلا عليه صدرًا من «سورة مريم»؛ فبكى النجاشي وأسأفته، وقال النجاشي: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة!.. انطلقا؛ فوالله لا أسلمهم

إليكما أبداً!..» فقال عمرو بن العاص للنجاشي: «إن هؤلاء يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً!..» فسألهم النجاشي عن قولهم في المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: «هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: «ما عدا^(١) عيسى ما قلت هذا العود!..» وقال للمسلمين: «اذهبوا فأنتم آمنون.. ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني أذيت رجلاً منكم!..» ورد هدية قريش.. وأقام المسلمون بغير دار.

* * *

وظابت الإقامة للمسلمين بأرض الحبشة، ووجدوا من ملكها النجاشي كل رعاية وعناية، فأقاموا بها آمنين، لم يرجع منهم أحد إلى مكة إلا عثمان بن عفان، فقد رجع إليها بعد قليل هو وامراته رقية بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أما بقية المهاجرين من أصحاب رسول الله، فقد ظلوا مقيمين بالحبشة نحو أحد عشر عاماً، ولم يرجعوا حين رجعوا منها إلى مكة، بل رجعوا إلى المدينة بعد أن هاجر النبي إليها، وبعد أن تم بينه وبين قريش صلح الحديبية في السنة السابعة من الهجرة.

(١) ما عدا: يعني هو كما قلت.

ولم يعيش المسلمون في بلاد الحبشة بمعزل عن الناس، ولا بمنأى عن الحوادث التي كانت تجري هنالك، بل شاركوا الأحباش في عواطفهم، وفرحوا لفرحهم وحزنوا لحزنهم، وبذلوا لهم كل عواطف الود والمجاملة. وحين ثار على الحبشة بعض أعدائها، رأى المسلمون من واجبهم أن ينضموا إلى صفوف المجاهدين من الأحباش، حتى انطفت الثورة وانتصرت الحبشة على أعدائها؛ فضربوا بذلك مثلاً عالياً في عرفان الجميل.

النبي يبادل النجاشي عواطفه

وقد كان بين النبي ﷺ وبين النجاشي تراسل ومكاتبات، تدل على ما كان يحمل كل منهما لصاحبه من عواطف الود، فقد كتب إليه رسول الله أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ابن حرب، وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبد الله ابن جحش، فتنصر هناك ومات؛ فرأى رسول الله أن يضمها إليه لتكون في رعايته وكفئه، وأن يجزيها على ما تحملت من مشاق الهجرة في سبيل الله؛ فزوجه النجاشي إياها، وأصدقها عنه أربعمئة دينار، فقدم بذلك مكرمة تدل على صدق مودته وإخلاصه. وحين استقر أمر الدعوة بالمدينة، كتب إليه رسول الله أن يبعث إليه من بقي من أصحابه ويحملهم؛ ففعل،

وحلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحين بعث النبي ﷺ رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، كان النجاشي أول من أسلم، وأكرم وفادة أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، وأحسن الرد على كتابه، وبعث إليه وفدًا من أصحابه، وحلهم إلى رسول الله كل عواطف المودة والإخلاص.

وحين قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه؛ فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله. فقال: «إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، وإن أحب أن أكافئهم».. ويوم مات النجاشي نعاه النبي، صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، فقال لهم: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»^(١).. وخرج بهم إلى المصلى فصفا بهم وكبر أربع تكبيرات، فصلى عليه صلاة الغائب وصلى عليه المسلمون معه.

* * *

(١) أصحمة هو اسمه، وأما النجاشي فلقب لكل ملك من ملوك الحبشة.

حزن قريش لإخفاقها في سعيها

أما قريش فقد كان حزنها بالغاً حين عاد إليه الرسولان خائبين، وحين علمت بما كان من إكرام النجاشي للمسلمين الذين هاجروا إلى بلاده. فلم يكن يسرها قط أن ينال المسلمون خيراً أينما ذهبوا، وكانت تريد أن تضيق عليهم رحاب الأرض، حتى لا يجدوا مكاناً يلجأون إليه، فيعودوا إليها مرغمين فتذيقهم من ألوان العذاب ما يشق غليلها، حتى يرجعوا كفاراً إلى دينها، أو يُقضى عليهم فيموتوا، فيُقضى بموتهم على دعوة الإسلام التي أقضت مضاجعهم ولبلت أفكارهم.

كان ذلك هو ما ترمى إليه قريش، ومن أجله بذلت ما بذلت في هدايا النجاشي وأصحابه من البطارقة، وتكلفت ما تكلفت من المشقة والجهد في هذا السبيل، وحرصت أشد الحرص على ألا يسمع النجاشي من المسلمين كلاماً، وأوصت رسولها بذلك أبلغ الوصية، وبالغت في إتخاف بطارقة النجاشي بالهدايا حتى يساعدها على تحقيق هذه الرغبة فلقد كانت قريش تعلم أن دعوة الإسلام دعوة حق، وأن النجاشي حين يسمعها لن يتردد في حماية المؤمنين بها، لما عرف عنه من حب العدل ورعاية الحق، ولكن قريشاً كانت تدافع عن مصالحها قبل كل

شيء.. كانت تدافع عن سيادتها على العرب، وعن مصادر الثروة العظيمة التي تستمتع بها وتعيث في نعمائها، ومن أجل هذا أرادت أن تموه الأمر على النجاشي، وتخفى عليه حقيقة ما يدعو إليه محمد وصحبه؛ ولكن النجاشي كان أذكى من أن ينخدع بتمويه قريش. وأراد الله بالمسلمين الخير حين دفعه إلى الاستماع منهم، وأراد للكافرين الخزي والخيبة والندامة، ﴿إن الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليَصُدُّوا عن سبيل الله، فسَيَنْفِقُونَهَا ثم تكون عليهم حَسْرَةٌ ثم يُغْلَبُونَ﴾^(١).

نتائج هجرة الحبشة

على أن هجرة الحبشة لم تقف نتائجها عند هذا الحد، بل كانت لها نتائج أخرى، كانت كلها خيراً وبركة على الإسلام وأهله، فقد أشاعت في مكة جواً من الخوف يَلْبَسُ الأفكار وزلزل القلوب، وترك رجال قريش حيارى لا يدرون ماذا يفعلون.. لقد أحس الملأ من قريش أن الزمام أخذ يفلت منهم، وأن هؤلاء الذين احتموا بأرض الحبشة من المسلمين، سيكونون بلا شك دعاية حسنة لدعوة الإسلام؛ فليس يتعد أن يتأثر الأحباش بدعوتهم فيسلموا معهم، فتقوم للإسلام دولة في

(١) سورة الأنفال الآية ٣٦.

بلاد الحبش، ويعود المسلمون أقوياء بهذه الدولة، وقد يغيرون بها على قريش، فيقضون عليها وعلى دينها وسلطانها فإن لم يكن هذا، فسيجعل هؤلاء المهاجرون وكذهم^(١) أن يطعنوا في دين قريش، وأن يعيبوا آلهتها عند الأحباش كما كانوا يعيبونها في مكة، فتزعزع بذلك مكانة الأصنام في نفوس الأحباش، وفي نفوس غيرهم من الأمم التي تحيط بهم، والتي تربطها بالعرب روابط المصلحة والجوار. فإن لم يكن هذا ولا ذلك، فلا أقل من أن يحاول هؤلاء أن يززعزعو مكانة قريش في نفوس الأحباش ومن إليهم، بما يُشيعون عنها من إشاعات السوء، فتتأثر بذلك تجارتها في تلك البلاد؛ وربما أصابها من ذلك البوار والكساد.

وعلى أى حال فقد كانت هواجس الخوف تقلق بال قريش، وتزعج أمنها واستقرارها، حتى تركتها في اضطراب دائم ولبلة مستمرة، وأغلقت منافذ التفكير على ذوى الرأى فيها، وحرمتهم التوفيق فى كل ما كانوا يأتون ويدعون من الأمر؛ فكانوا يقدمون على الأمر يظنون أن فيه النيل من رسول الله والصد عن سبيله، فينقلب عملهم خيراً له وشرّاً عليهم.

(١) وكذهم؛ دأبهم ومهم.

إسلام حمزة

لقد كانت نفوسهم تغلى بالحقد على رسول الله ﷺ، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا به، وقد أحاطته بنو هاشم بسلطانها وقوتها؟ كل ما يستطيعون إذن أن يفعلوا، أن ينالوه ببعض الأذى كلما فارت بهم فورة الحقد.. وفي فورة من هذه الفورات لقي أبو جهل رسول الله ﷺ عند الصفا، فجعل يسبه ويناله بفاحش القول، حتى شفى غليل صدره، ورسول الله معرض عنه لا يرده ولا يصدده. ويشاء الله أن يعلم بذلك عمه حمزة بن عبد المطلب وهو راجع من صيده، فتأخذه الحمية لابن أخيه، فينطلق من فوره إلى أبي جهل فيجده جالساً في ندى القوم، فيجبهه^(١) بالقوس الذي في يده، فيشجبه شجة منكراً، ثم يقف أمامه كالأسد الهائج فيقول له: «أتشتمه..؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فرد على ذلك إن استطعت..!» فيقوم رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فيقول أبو جهل في استخذاء وجبن: «دعوا أبا عمارة، فإنى - والله - سببت ابن أخيه سباً قبيحاً».

ويذهب حمزة إلى رسول الله ﷺ فيعلن إليه إسلامه، فتقوى

(١) يجبهه: يضربه في جبهته.

به شوكة الإسلام، ويعز به المسلمون، وتعلم قريش أن رسول الله قد عز وامتنع، وأن عمه حمزة سيزداد له منعة، فيكفون عن بعض ما كانوا ينالون منه..

ولقد كان حمزة بطلاً يُحسب حسابه ويُحشى بأسه، وكانت غضبته على أبي جهل هذه خيراً وبركة على الإسلام، إذ انضم بسببها إلى الإسلام أسد قريش، فكانت شجاعته وبأسه وقوته كلها بعد ذلك في سبيل إعلاء كلمة الله، فسمى من أجل ذلك «أسد الله».

إسلام عمر

وكما ساد مكة بعد هذه الهجرة جو رهيب من الخوف، سادها كذلك جو كثيب من الوحشة فقد كان عدد الذين هاجروا من الكثرة بحيث ترك مكانه فراغاً هائلاً، فشعر بهذا الفراغ ذوو النفوس الحساسة والعواطف المرهفة. وكان من هؤلاء عمر بن الخطاب؛ فقد شعر بهذا الفراغ شعوراً قوياً، وعرفته من أجله حالة شديدة من القلق وانقباض الصدر، وفارقه المرح والانطلاق الذي عهد منه، فأصبح لا يغلدو ولا يروح إلا منقبضاً كثيباً، وكان عمر فتى أروع^(١) من فتیان قريش،

(١) الأروع - كالرائع - من يعجبك بشجاعته، أو يحسنه وجهارة منظره.

عنيفاً شديد البأس، يمتاز بطوله الفارع وجراته النادرة؛ وكان كثير الأذى للمسلمين، شديد البطش بهم والغلظة عليهم؛ وكان يُضمر للإسلام ورسوله عداوة لا تقل في عنفها عن عداوة خاله أبي جهل. لكنه مع كل ذلك كان رقيق القلب فوار العاطفة، يَرِقُّ حين يلين حتى يكون كالماء، وَيَعْتَفُّ حين يشتد حتى يكون كالعاصفة.

قالت أم عبد الله بنت أبي حثمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة: «إنا لنرحلُ إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عُمر وهو على شركه حتى وقف عليّ. وكنا نلقى منه البلاء أدنى وشدة. فقال: أتنتلقون يا أم عبد الله؟ قلت: نعم! والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتمونا، وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً!.. فقال: صَحِبْكُمْ اللهُ!.. ورأيت له رِقَّةً وحرزاً. (قالت): فلما عاد عامر أخبرته وقلت له: لو رأيت عمرَ ورقته وحرزته علينا؟ قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. فقال: لا يُسَلِّمُ حتى يسلم حمار الخطاب!.. لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين».

فلما هاجرت كثرة المسلمين إلى الحبشة، شعر عمر لفراقهم بوحشة وانقباض وأحس بالفراغ من حوله إحساساً قوياً، فنارت ثأثرته على محمد بن عبد الله، ذلك الذي فرق أمر قريش،

وعاب دينها، وكان سبب بلائها كله؛ فعزم على أن يقتله ليستريح الناس من شره. فخرج ذات يوم متوشحاً سيفه، يريد رسول الله، صلى الله عليه وسلم.. قال ابن إسحاق: «فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها؛ فأقتله..! فقال له نعيم: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر!.. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟.. قال: وأيّ أهل بيتي؟.. قال: خنتك^(١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمر، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد - والله - أسلمها وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما..»

(قال): فرجع عمر عامداً إلى أخته وختته، وعندهما خباب ابن الأرت معه صحيفة فيها ﴿طه﴾ يُقرئها إياها. فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خباب في مخدع لهم - أو في بعض البيت - وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها؛ وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليها. فلما دخل

(١) خنتك: صهرك. وكان زوج أخته.

قال : ما هذه الهينة^(١) التي سمعت؟ قالوا له : ما سمعت شيئاً.
قال : بلى والله!.. ولقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على
دينه!.. ويطش بختته سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أخته فاطمة
بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضرها فشحها..

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته : نعم قد أسلمنا وآمنا
بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!.. فلما رأى عمر ما بأخته
من الدم، ندم على ما صنع، فأرعى^(٢) وقال لأخته : أعطيني
هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً، أنظر ما هذا الذي
جاء به محمد.. وكان عمر كاتباً^(٣). فلما قال ذلك قالت له
أخته : إنا نخشاك عليها قال : لا تخافي. وحلف لها بألته ليردنها
إذا قرأها إليها!.. فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت
له : يا أخى، إنك نجس على شركك، وإنه لا يسها
إلا الطاهر فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها
﴿طه﴾^(٤)؛ فقرأها. فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا
الكلام وأكرمه!..

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : يا عمر، والله

(١) الهينة : الصوت الذى يسمع ولا يفهم المراد منه.

(٢) ارعى : كف وخجل.

(٣) كاتباً : يقرأ ويكتب.

(٤) في بعض الروايات : صدر سورة طه، أى أوائلها.

إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه؛ فإني سمعته
 أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحَكَم بن هشام أو
 بعمر بن الخطاب!..» فالله الله يا عمر! فقال له عمر عند
 ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم. فقال له
 خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه.
 فأخذ عمر سيفه فتوشحه^(١)؛ ثم عمد إلى رسول الله ﷺ
 وأصحابه، فضرب عليهم الباب. فلما سمعوا صوته، قام رجل
 من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنظر من خلل
 الباب، فرآه متوشحاً بالسيف. فرجع إلى رسول الله وهو فزع،
 فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب بالباب متوشحاً
 بالسيف..!

فقال حمزة بن عبد المطلب: فائذَن له، فإن كان جاء يريد
 خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه. فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم: «ائذن له». فأذن له الرجل. ونهض
 إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة؛ فأخذ بـججزته - أو
 بجمع رداءه^(٢) - ثم جبهه جبهةً شديدة وقال: «ما جاء بك

(١) توشحه: لبسه كما يلبس الوشاح.

(٢) الحجزة: هي تكة السراويل ونحوه. وجمع الرداء: ما يحيط بالعنق من الثياب
 (الطوق).

يا ابن الخطاب؟.. فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة!..» فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله.. (قال): فكبر رسول الله تكبيراً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم!.. فتفرق أصحاب رسول الله من مكائهم، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنها سيمعان رسول الله ﷺ ويتصفون بها من عدوهم».

ضربة قاصمة

وكان إسلام عمر ضربة قاصمة لقريش؛ فقد دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربه بها من قبل، وأبى إلا أن يعلن إسلامه على جمهرة الملأ من قريش؛ فاختار لذلك جميل ابن مَعْمَر - وكان جميل أكثر رجال قريش نقلاً للأحاديث وإذاعة للأخبار - فأعلن إليه إسلامه. فلم يكده جميل يسمع النبأ حتى انطلق يذيعه في قريش، ويدور به عليها في أنديتها ومجالسها وهو يصيح: «يا معشر قريش، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا..!» فيصيح من ورائه عمر: «كذب!..» ولكنى قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله..!»

وقد أصيبت قريش بالذهول من هذه المفاجأة، حتى خرج رجالها عن وعيهم؛ فاجتمعوا على عمر يقاتلونه ويقاتلهم، وهم لا يدرون فيم يقاتلونه. وما زالوا يتساورون حتى عَيَّ^(١) عمر ابن الخطاب، وقعد على الأرض مُجَهَّدًا يقول لهم: «افعلوا ما بدا لكم». فوالله لو قد كنا ثلثمائة رجل لتركناها لكم أو تركتموها لنا!..» وما زال القوم قائمين على رأس عمر حتى مر بهم أحد زعمائهم، وهو العاص بن وائل السهمي، فصرفهم عنه وهو يقول لهم: «رجل اختار لنفسه أمرًا فإذا تريدون منه؟.. أترون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا؟.. خلّوا عن الرجل!..» فانصرفوا وهم يتحرقون من الغيظ.

على أن عمر لم يكتف بذلك الإعلان عن إسلامه، بل ذهب إلى خاله أبي جهل، وهو يعلم أنه أعدى أعداء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخبره بإسلامه؛ فبهت أبو جهل لهذا النبأ، وضرب الباب في وجهه وهو يقول له: «قبحك الله وقبح ما جئت به!..»

ولم يرض عمر عن استخفاء المسلمين بصلاتهم في الشعاب، وأبى إلا أن يذهبوا إلى الكعبة فيصلوا فيها جهارًا، تحت سمع

(١) عي: تعب وضعف.

القوم وبصرهم. وكان لهذا المظهر الجريء شأن أطار أحلام
القوم، وعصف بتفكيرهم عصفًا شديدًا.

قال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: «إن إسلام عمر
كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة.
ولقد كنا وما نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر؛ فلما
أسلم عمر قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.
ومازلنا أعزّة منذ أسلم عمر بن الخطاب».

حيرة قريش

أخطاء قريش حقيقة الدعوة

لم تكن قريش تقدر أن دعوة الإسلام سيكون لها هذا الشأن الخطير، وحسبها أول الأمر نوعاً من الهوس الذي يصاب به بعض أهل الشذوذ، فيستولى على عقولهم حيناً من الدهر ثم ينتهي بهم إلى غير شيء؛ أو نوعاً من الدُّجُل السذّي يقصد صاحبه به إلى الدعاية والإعلان عن النفس، أو يرمى به إلى تحقيق مطلب يهفو إليه من مال أو جاه أو منصب أو نحو ذلك.

فاستقبلتها في بدايتها كما تستقبل نوعاً من العبث السذّي لا يؤبه له ولا يلتفت إليه؛ لأنها ألفت أن ترى شيئاً من هذا الشذوذ في أمثال ورقة بن نوفل، وعمرو بن زيد بن نُفَيْل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحُوَيْرِث، وغيرهم من شُذَّاذ العرب.

فلما رأوا رسول الله ﷺ يلتف حول نفر من الناس، جعلوا

يستَهزئون بهم ويضحكون منهم، ويتندرون بما يرون من أمورهم وما يسمعون من أخبارهم. وجعلوا كلما مر بهم رسول الله ﷺ يشيرون إليه متفكهنين: «إن غلام بنى عبد المطلب ليُكلم من السماء!..»

فلما أخذ، صلى الله عليه وسلم، يعيب دينهم، ويسفه أحلامهم. ويذكر آهتهم بالسوء، علموا أن هذا عبث خطير لا ينبغي السكوت عليه، ورأوا أن خير طريقة لتأديب هذا العايب أن يُقتل، حتى يكون عبرة لغيره ممن تحدثهم نفوسهم بأن يتناولوا على مقام الآلهة. فذهب رجالمهم إلى عمه أبي طالب يفاوضونه في أن يُسلمه إليهم ليقتلوه، وعرضوا عليه كل ما يمكن من عروض الترضية؛ فأبى عليهم ما يريدون.

فلما رأوا أن أبا طالب مصم على حماية ابن أخيه، ثارت نائرتهم، ورأوا أن يؤدبوا هؤلاء الذين يلتفون حول محمد حتى يصرفوهم عنه. فصبوا عليهم كل ما يستطيعون من أسوان العذاب، فلم يبلغوا منهم شيئاً، وجعل هؤلاء يفرون بدينهم إلى البلاد النائية، تاركين أموالهم وديارهم وأهليهم، مضحين بكل شيء في سبيل الدين الذي يدينون به.

وتحيرت في أمر محمد

حينذاك تبين لقريش أن الأمر جدّ لا هزل، وحقيقة لا عبث؛ فأخذوا يعيدون النظر من جديد، ويفكرون في شأن محمد وما يرمى إليه من هذه الثورة الجاعحة، التي يريد بها أن يقلب أوضاعهم، ويقوّض نظام حياتهم من أساسه. لقد نشأ محمد فيهم وترى بين ظَهْرَانِيهِمْ، فلم يعرفوا فيه شذوذاً قط، ولم يروا منه غير الجِدِّ والاستقامة، والحكمة والأناة، والحزم والسداد في كل ما يقول وما يفعل.. فما الذي دفعه إلى الخروج على مألوف قريش، وما عرفت من تقاليدنا عن الآباء والأجداد؟ وما الذي يبغيه من وراء ذلك؟..

أصابه مس من الشيطان، فخيّل له ما يخيّل للمجانين الذين يهرفون بما لا يعرفون؟ أم اعتراه ما يعترى الكهّان الذين يتلقون السمع عن أتباعهم من الجن ثم يلقونه إلى الناس، فيستهوون به قلوبهم ويسحرون عقولهم؟ أم هو شاعر تستهويه شياطين الشعر وتهيم به في أودية الخيال، فهو يقول ما لا يفعل ويتصور ما لا يكون؟ أم هو مريض أصابته العلة بالخرف والذهول، فهو يهذي من أجل ذلك هذياناً المريض؟ أم هو من طلاب الجاه والمال، فهو يمهد لمطلبه بهذه الثورة، ليلفت أنظار

الناس إليه فيحاولوا إرضاءه لئيسكتوه؟ أم هو يبغي شيئاً وراء ذلك؟..

أخذت تساومه لتعرف مقصده

وانتهى الرأى بهم إلى أن يرسلوا إليه واحداً منهم، ليعلم علمه ويعرف مقصده؛ فأرسلوا إليه سيّداً من ساداتهم، هو عتبة ابن ربيعة.. ويروى ابن سحاق أن عتبة بن ربيعة جلس إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له: «يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّة^(١) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم... فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل يا أبا الوليد أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا؛ وإن كنت تريد به شرفاً، سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك؛ وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك

(١) السطة : المذلة الكريمة.

علينا؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئياً^(١) تراه لا تستطيع رَدّه عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُسبِّرك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه، قال: «أأقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع منى». قال: أفعل. قال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمٌ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا: قَلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ، فَاعْمَلْ إِنَّا نَاعْمَلُونَ^(٢) * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّمَاتِكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ^(٣) * قُلْ: أُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا^(٤)؟ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ^(٥) مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا

(١) الرؤى: التابع من الجن فى اعتقادهم.

(٢) المراد أنهم لا يفهمون منه ولا يسمعون له ولا يستجيبون لدعوته.

(٣) غير ممنون: دائم غير منقطع.

(٤) أندادًا: أشياء ونظراء.

(٥) رواسى: جبالاً.

وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، قَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١١﴾

ثم انتهى رسول الله إلى موضع السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد، فأنت وذاك»^(١).

فقام عتبة إلى أصحابه؛ فقال بعضهم لبعض: نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بَوَاجِهُ غَيْرِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ!.. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟.. قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط!.. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة!.. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، واخللوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله لِيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبِيًّا عَظِيمًا؛ فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ

(١) سورة فصلت الآيات ١ - ١٤.

(٢) أنت وما تختار لنفسك.

كُفَيْتُمُوهُ بغيركم، وإن يَظْهَرُ على العربِ ثُلُكُهُ مَلِكُكُمْ وَعِزُّهُ
عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ!.. قالوا: سحرَكَ يا أبا الوليد
بلسانه؟.. قال: هذا رأى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم!..»

أدرکت قريش أن محمداً صادق في دعوته

أيقنت قريش حينذاك أن محمداً ليس دَجَّالاً ولا أفاكاً،
ولا شاعراً ولا ساحراً؛ وأنه ليس من طلاب المال والجاه،
ولا من بُغاة الملك والسلطان؛ وأن ما يدعيه من وحى السماء
ليس كذباً ولا افتراءً، ولا جنوناً ولا كهانة. ورأوا أن أمره
يتشر ويشيع؛ وأن أتباعه يكثرون ويتزايدون، وأن فريقاً من
السادة الأقباء قد أخذوا يدخلون في دينه ويؤازرونه على أمره؛
فجعلوا يفكرون فيما يستقبلون به هذا الأمر، الذي لم يكونوا قط
ينتظرونه ولا يقدرونه.

ماذا يفعلون ليدفعوا عن أنفسهم هذا الخطر الداهم، الذي
يريد أن يعصف بدينهم، وثروتهم، وبمكائنتهم بين الناس؟..
واجتمعوا يتشاورون.. فقال قائل منهم: «يا معشر قريش،
إنه - والله - قد نزل بكم أمر ما أتيت له بحيلة بعد.. فقد
كان محمد فيكم غلاماً حداثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم
حديثاً، وأعظمكم أمانة؛ حتى إذا رايم في صدغيه الشيب قلم:

ساحر.. لا والله ما هو بساحر! لقد رأينا السُّحرة ونَفَثَهُم
وَعَقَدَهُم وقلتم: كاهن.. لا والله ما هو بكاهن! قد رأينا
الكهنة^١ وتَحَاطِبُهُمْ وسمعنا سَجْعَهُمْ. وقلتم: شاعر.. لا والله
ما هو بشاعر! قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هَزَجَهُ
وَرَجَزَهُ. وقلتم: مجنون.. لا والله ما هو بمجنون! لقد رأينا
الجنون فيما هو بَحْنَقِهِ ولا وَسْوَسَتِهِ ولا تَحْلِيظِهِ.. يا معشر قريش،
فانظروا في شأنكم، فإنه - والله - قد نزل بكم أمر عظيم! «

ماذا يفعلون إذن ليصرفوا الناس عن هذا الصائب الخطر،
ويحولوا بينهم وبين أن يستمعوا إليه؟.. إنهم لحائرون في أمرهم
أشد الحيرة.

لقد حاولوا أن يتخلصوا منه فيقتلوه، فحالت بينه وبينهم
بنو هاشم وحاولوا أن يصرفوا الناس عنه فصبوا على أتباعه
ألوان العذاب، فلم يبلغوا منهم ما يريدون؛ وحاولوا أن يُغروه
بكل ما يستطيعون من وسائل الإغراء، فلم يجدوا إلى إغرائه
سيلاً.. «عرضوا عليه المال فرد عليهم المال، وعرضوا عليه
الشرف والسيادة فرد عليهم الشرف والسيادة، وعرضوا عليه
الملك والسلطان فرد عليهم الملك والسلطان، وعرضوا عليه
الطب إن كان مريضاً فرد عليهم الطب وقال: ما أنا

بمريض^(١) وها هم أولاء يرون أتباعه ينتشرون في الأرض،
ويرون زعماءهم يتابعونه ويتسللون إليه واحدًا إثر واحد، ويرون
دينه يأخذ في التمكن، وأمره يزداد في الظهور.

وأنه يدعو إلى الحق

فهل هو رسول الله حقًا؟ .. وهل هذا الذي ينزل عليه
وحي السماء؟ .. وهل هذا الذي جاء به هو دين الحق؟ ..
فإذا لم يكن هو دين الحق فأين دين الحق؟ أهو دين
قريش؟ .. أم هو دين يهود؟ .. أم هو دين النصارى؟ .. أم
هو دين المجوس؟ .. إن قريشًا لتؤمن في قرارة نفسها بأن دينها
ليس دين الحق، وإن كان هو مصدر سلطانها ونعمتها؛ وإنما
لترى في كل دين من هذه الأديان مَغْمَرًا يبعده عن الحق، وإنما
لترى دين محمد يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن
المنكر، فإذا لم يكن هو دين الحق، فلماذا يتابعه هذا العدد
الكثير من الناس؟ ولماذا يتابعه هذا النفر من عِلِيَّةِ القوم في
قريش، وفيهم من عُرف بالعقل الراجح والرأى السديد، وفيهم
من عرف بالتعصب لدين قريش والحرص على تقاليدها، وفيهم
من لا يُتَّهم بالتفريط في دينه أو التهاون في كرامته؟ .. فإذا كان

على هامش السيرة جزء ٣.

حمزة قد أسلم حَمِيَّة لابن أخيه محمد أو تعصبًا لعشيرته بنى هاشم، فلماذا أسلم أبو بكر وهو من بنى تَمِيم؟.. ولماذا أسلم عثمان وهو من بنى أمية؟.. ولماذا أسلم عمر وهو من بنى مخزوم؟.. وإن أمر عمر بن الخطاب لأشد أمورهم عجبًا.. فلقد كان عمر أشد قريش عداوة لمحمد ودينه، وأعتفها بطشًا وغِلظة على المسلمين، لما الذى بذله كذلك حتى غدا أشد قريش حماسة لهذا الدين، وأكثرها جهرًا به وحرصًا على ظهوره؟.. لا شك أن هؤلاء السادة لم يؤمنوا إلا بعد ما تبين لهم الحق في دين محمد؛ فليس من المعقول أن يؤمنوا عن جهل وعماية، كما يؤمن غيرهم من الأوغاد والسوقة.

زعماء قريش يسترقون السمع

وهكذا أخذت قريش تدرس دين محمد خفية، وتتعرف مبادئه وأحكامه، وتتسمع إليه من وراء حجاب وهو يتلو القرآن في صلاته؛ فيروعهما ما ينطوى عليه هذا القرآن من عجيب النظم، وسعة الإحاطة، ودقة المعنى، وحلاوة الأسلوب، ويروقهما ما ينطوى عليه هذا الدين من مبادئ العدل والإحسان، والخير والرحمة. ولكن، كيف يؤمنون بهذا الدين الذى يقضى على سيادتهم وسلطانهم، ويجعلهم تَبَعًا لمحمد بن عبد الله، وليس محمد أكثر القوم مالا، ولا أعلام بيتًا، ولا أشرفهم مكانًا؟..

أم كيف يؤمنون ويدعون هذا الشرف لبني عبد مناف، يتطاولون به وحدهم على الناس قاطبة؟.. لا!.. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾^(١).

روى ابن إسحاق: «أن أبا سفيان بن حرب، وأباجهـل ابن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي - حليف بني زهرة - خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وهو يصلي من الليل في بيته؛ فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه؛ فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاؤموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا.. حتى إذا كانت الليلة التالية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له؛ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة. ثم انصرفوا.. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له؛ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

(١) سورة سبأ الآية ٣١.

فلما أصبح الأخص بن شريق أخذ عصاه ثم خرج، حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخص: وأنا - والذي حلفت به - كذلك. (قال): ثم خرج حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟... فقال: ماذا سمعت!!.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا؛ حتى إذا تمأذينا على الركب وكنا كfersي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء!!.. فتى ندرك مثل هذه؟... والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه!..»

كان من موانع الإيمان بمحمد الحسد

وَعَدَّت قريش بين اثنتين: إما أن تعترف بأن محمدًا رسول الله، وإما أن تمحو ذكره وفكرته من الوجود. وكان من المستحيل أن تعترف قريش بالأولى وأن تقدر على الثانية؛ فقد كان الحسد لرسول الله ﷺ وقومه يمنعه أن تعترف له بالنبوة؛ وكان رجال من قريش يطمعون في هذه المنزلة، ويسرون أنفسهم

أحق بها من محمد بن عبد الله؛ وكان رجال يستكثرونها عليه ويقولون: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين﴾^(١) عظيم^(٢)!.. وكان رجال يَنفِسُونَهَا على عشيرته بنى عبد مناف؛ وكان رجال يعتقدون أن الرسول لا ينبغي أن يكون إلا مَلَكًا.

وحدائث السن

والواقع أن تقاليد قريش في الزعامة وعقيدها في النبوة، كان لهما أكبر الأثر في عدم اندفاعها إلى الإيمان برسالة محمد ابن عبد الله؛ فقد كان للزعامة دور خطير في المجتمع العربي، حيث كان الزعماء يتمتعون بنفوذ واسع وسلطان مطلق، يأمرون فيطاعون، ويدعون فيجابون، وينهون فلا يخالفون، وكانت لهم الكلمة الفاصلة في المشكلات والقضايا. فلما أخذ النبي يدعو بدعوته وبلغ عن ربه - ولم يكن بعدُ قد تجاوز سن الشباب بكثير، ولم يكن كذلك بارزًا في مجال الزعامة - عظم عليهم أن يكون مثله داعية يستجاب له، ومرشدًا يهتدى بهديه الناس، ورسولًا ينصوي الزعماء تحت لوائه؛ وقالوا: لو كان ما يدعو

(١) قال المفسرون: هما مكة والطائف.

(٢) سورة الزخرف الآية ٣١.

إليه محمد حقًا لكانوا هم الأحق بأن يُتَدَبَّوا لهذه الدعوة، وأن يكلفوا هذه المهمة، لأنهم هم الزعماء والناس لهم تبع^(١)

وقلة المال

وكان المال وحده هو المقياس الذى يقيسون به أقدار الناس؛ فبمقدار ما يكون لدى المرء من المال يكون له حظ من الشرف والسيادة. وقد سيطرت عليهم هذه الفكرة حتى أصبحت عندهم فى منزلة العقيدة؛ ومن أجل ذلك قال الوليد بن المغيرة: «أَيُّزَلْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَأَتَرَكَ أَنَا - كَيِّرَ قَرِيشٍ وَسَيِّدَهَا - وَيَتَرَكَ أَبُو مَسْعُودٍ عَمْرُو بْنُ عُمَيْرٍ سَيِّدَ ثَقِيفٍ، وَنَحْنُ عَظِيمًا الْقَرِيئِينَ؟».. وقد حكى الله سبحانه وتعالى قولهم هذا، ثم خطأ نظرهم إلى المال واعتباره مقياس الكرامة عند الله؛ لما المال إلا وسيلة من وسائل العيش فى الحياة الدنيا، يناله الفاضل والمفضول، والشريف والوضيع، والمؤمن والكافر؛ وليس تفاوت الناس فى الغنى والفقر إلا ضرورة اجتماعية يتم بها نظام المجتمع البشرى، ليخدم الناس بعضهم بعضًا، ويعاون بعضهم بعضًا. أما منازل الكرامة التى يمن الله بها على من يشاء من

(١) عصر النهى وبيته قبل البعثة،، للاستاذ محمد عزت دروزة.

عباده، فشيء فوق مستوى المال، وفوق مستوى الطبقات التي تعارف الناس عليها في مجتمعاتهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا^(١)﴾، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴿.

ثم يَمْضِي السِّيَاقُ فِي تَهْوِينِ شَأْنِ الْمَالِ، وَفِي تَحْطِئَةِ نَظَرَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ الَّذِي يَتَفَاوَضُونَ بِهِ وَيَعْتَبِرُونَهُ الشَّيْءَ الْأَهْمَّ فِي حَيَاتِهِمْ، وَالْمَقْيَاسَ الَّذِي يَتَجَاوِزُونَ بِهِ فِي أَقْدَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ.. هُوَ أَهْوَنُ شَيْءٍ عَلَى اللَّهِ. وَلَوْلَا مَخَافَةُ أَنْ يُقْتَنَ النَّاسُ بِالْمَالِ وَمَظَاهِرِهِ، وَأَنْ تَسْوَدَ بَيْنَهُمْ فِي شَأْنِهِ هَذِهِ النُّظْرَةُ الْخَاطِئَةُ.. لَجَعَلَ اللَّهُ الْمَالَ حِطًّا خَالِصًا لِلْكَافِرِينَ بِهِ، وَلِتَعْتَمَهُمْ بِكُلِّ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. فَمَا الْمَالُ وَالْبِنُونَ، وَمَا الْمَلِكُ وَالسُّلْطَانُ، وَمَا الزَّخْرَفُ وَالرِّيَاشُ، وَمَا كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنْ مَظَاهِرِ الثَّرْوَةِ وَالْجَاهِ.. إِلَّا مَتَاعٌ زَائِلٌ وَعَرَضٌ فَانٍ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ^(٢)﴾ *

(١) سُخْرِيًّا: لِيَسْخَرُ كُلُّ فَرِيقٍ فِي خِدْمَةِ الْآخَرِ.

(٢) يَظْهَرُونَ: مُصَاعِدٌ يَصْعَدُونَ عَلَيْهَا.

وليبوتهم أبوابًا وسُررًا عليها يَتَكُونُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ
لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾.

وأنه بشر مثلهم

كذلك كانت عقيدتهم أن الرسول إما أن يكون مَلَكًا من
الملائكة، وإما أن يكون بشرًا يستطيع أن يفعل ما لا يفعل
البشر، وإما أن يكون ذا بَسْطَة في الرزق وسعة من المال تغنيه
عن الكد والسعي في سبيل العيش. ولم يكن رسول الله صلى
الله عليه وسلم، واحدًا من هؤلاء؛ بل كانوا يرونه بشرًا يأكل
الطعام ويمشي في الأسواق، ويكلم ويكذب في سبيل الرزق،
ويجرب عليه ما يجرب على البشر من المرض والصحة، والضعف
والقوة، والفقر والغنى، والجهل بالغيب، والعجز عن جلب
المنفعة لنفسه ودفع المضرّة عنها. إلى غير ذلك مما يشارك فيه
سائر الناس. ثم هو فوق ذلك يصارحهم بهذه الحقائق، ويقول
لهم بلسان الوحي في غير تخرج: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا
وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ؛ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتُكَّرْتُ مِنْ
الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ؛ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾^(٢). . . و﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ

(١) هذه الآيات وما قبلها من سورة الزخرف الآيات ٣٣ - ٣٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨.

الغيب، ولا أقول لكم إنسى ملك إن أتبع إلا ما يوحى
إلى^(١) :

قريش تشكك في نبوة محمد

من أجل ذلك كبر عليهم أن يطيعوا بشرًا مثلهم، يأكل
مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون، وحاولوا جهدهم أن يشككوا
الناس في نبوته، واستغلوا هذه العقيدة أعظم استغلال، ﴿وقالوا
ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه
ملك فيكون معه نذيرًا * أو يلقى إليه كثر أو تكون له جنة
يأكل منها وقال الظالمون : إن تتَّبِعُونَ إلا رجلاً مسحوراً﴾^(٢) ؛
وسلطوا عليه سفهاءهم وشياطينهم من الشعراء والبلغاء، يهجونه
ويحرقون من شأنه، ويشوشون عليه مجالسه كلما جلس إلى الناس
يدعوهم إلى الإسلام، أو يتلو عليهم القرآن. وقد سجّل الله
عليهم ذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ فقال تعالى في
سورة الفرقان : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلا هُزُؤاً أَهْذَا الَّذِي
بَعَثَ اللهُ رَسُولاً * إِنَّ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا
عَلَيْهَا﴾^(٣) وقال تعالى في سورة القلم : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ

(٣) سورة الفرقان آيتا ٤١، ٤٢ .

(١) سورة الأنعام الآية ٥٠ .

(٢) سورة الفرقان آيتا ٧، ٨ .

كفروا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويقولون إنه
 لَمَجْنُونٌ ﴿١﴾ وقال تعالى في سورة فُصِّلَتْ : ﴿وقال الذين كفروا
 لا تَسْمَعُوا لهذا القرآنِ وَالغَوَا فيه لعلكم تَغْلِبُونَ﴾ (٢).

وفيا أنزل عليه من القرآن

كذلك جعلوا يُشَكِّكون فيما أنزل عليه من القرآن،
 ويقولون : إنه ليس من عند الله، إنما يستمليه محمد ممن
 يجالسهم من أهل الكتاب؛ واتخذوا من جلوس النبي إلى بعض
 نصارى الروم شاهداً على صحة ما يدعون. وقد حكى الله
 عنهم ذلك الإفك ورد عليهم بما أفحمهم وأخزاهم، فقال تعالى
 في سورة الفرقان : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه
 وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا :
 أساطيرُ الأولين أكتبتُها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً * قل أنزله
 الذى يعلمُ السرَّ فى السمواتِ والأرضِ، إنه كان غفوراً رحيمًا﴾ (٣)
 وقال تعالى في سورة النحل : ﴿ولقد نعلمُ أنهم يقولون : إنما
 يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسانُ الذى يُلْحِدُونَ إليه أَعْجَبِيْهِ وهذا لسانُ عربى
 مُّبِينٍ﴾ (٤).

(٣) الآيات ٤ - ٦

(٤) الآية ١٠٣

(١) الآية : ٥١

(٢) الآية : ٢٦

وفي الدين الذي جاء به

ولم يكتفوا بهذا... بل جعلوا يتهمون بالدين الذي جاء به، ويعرضون مبادئه عرض المستهزئ الساخر، يريدون بذلك أن يشككوا الناس فيه، ويصرفوهم عنه: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُرِّقتم كل مُرِّقٍ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ * أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾^(١)... ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون﴾^(٢)... ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن مُبشِّرِين * فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾^(٣)... ﴿وعجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم، وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب * وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يُراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أنزل عليه الذكر من بيننا﴾^(٤)...

وهكذا جعلوا وكذبهم أن يشككوا في نبوة محمد ﷺ، وفي الدين الذي جاء به، وفي القرآن الذي أنزل عليه؛ يريدون أن

(١) سورة سبأ آيتا ٧، ٨.

(٢) سورة الصافات آيتا ١٦، ١٧، وسورة الواقعة آيتا ٤٧، ٤٨.

(٣) سورة الدخان آيتا ٣٥، ٣٦.

(٤) سورة ص الآيات ٤ - ٨.

يقضوا على فكرة الرسالة، وأن يحوها من أذهان الناس. ولكن هذا السلاح لم يُجذِّ عنهم شيئاً، وظل أتباع الرسول يتكاثرون، وظل أمر الإسلام ينتشر ويظهر؛ وكان إسلام حمزة وعمر من الأسباب التي شجعت الخاطئين والمترددين، فجعل الناس يدخلون في دين الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، ومن المستضعفين والأقوياء؛ فازدادت حيرة القوم، وبدءوا يفكرون في سلاح آخر، يقضون به على هذه الدعوة الخطيرة.

المقاطعة

عجزت قريش عن مقاومة الدعوة

رأت قريش أن كل ما استعملته من وسائلها مع النبي وصحبه، من المسألة والإغراء، ومن السخرية والاستهزاء، ومن الإرهاب والتعذيب، ومن الدعاية والتهويش.. لم يُجدها نفعًا، ولم يصرف الناس عن دعوة الإسلام، ولم يُحِلْ بينها وبين الظهور والانتشار. ورأت أن دخول العناصر القوية فيها قد زادها ظهورًا وانتشارًا، فقد عزَّ المسلمون منذ أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، واستطاعوا أن يستعلنوا بصلاتهم بعد أن كانوا يُسرون بها، وأن يصلُّوا عيانًا في حرم الكعبة بعد أن كانوا يستخفون في شعاب الجبال؛ واستطاعوا كذلك أن يُجَهِّروا بالقرآن على مَسْمَعٍ من قريش بعد أن كانوا يخافتون به.

رَوَى دِحْلان في «السيرة النبوية والآثار المحمدية»: «أن أصحاب الرسول ﷺ اجتمعوا يومًا فقالوا: والله ما سمعت قريش القرآن جهراً من رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فمن

منكم يُسمعهم القرآن جهراً؟ فقال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه : أنا. فقالوا: نخشى عليك منهم؛ إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم. فقال: دعوني، فإن الله سيمنعني منهم. ثم إنه قام عند المقام وقت طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - رافعاً صوته - الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ *...﴾ واستمر فيها فقالوا: ما بال ابن أم عبد؟ فقال بعضهم: يتلو ما جاء به محمد! ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر في قراءتها، حتى قرأ غالب السورة. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أذمت قريش وجهه. فقال له أصحابه: هذا الذي خشينا عليك منه. فقال: والله ما رأيت أعداء الله أهونَ عليّ مثلَ اليوم! ولو شتّم لأتيتهم بمثلها غداً. قالوا: لا، قد أسمعتم ما يكرهون.

فلجات إلى المقاطعة

«وجدت النكير بين المسلمين والمشركين، واشتد نَعْيُ محمد على قومه وعيّه ألهمتهم، وأنزل الله من القرآن آيات وسُوراً كانت تَدْمَعُ قريشاً وتؤذى كبرياءها أشد الإيذاء»^(١) وكان لأبَدَ لقريش أن تقبل هذه الإهانات أو تردّها إن استطاعت، ولم

(١) على هامش السيرة جزء ٣ ص ٩٦

يكن في استطاعتها أن تردّها بالقول، ولا أن تدفع الحجّة بالحجة أو تدمغ البرهان بالبرهان؛ فقد كانت حجج القرآن من القوة بحيث لا تقوم لها قوة في الأرض.

المقاطعة والحصار

وحارت قريش في أمرها، وظلت تغلى وتفور أمام هذه الحجج الدامغة، والبراهين التي لا قبيل لها بها، والتي لا تستطيع لها ردًا ولا دفعًا. وكل ما كانت تستطيع أن تفعل أن تصب غضبها ونقمتها على ضعفاء المسلمين، حتى استفدت كل ما في طَوْقها من وسائل الإرهاب والتخويف، ولم تبلغ شيئًا مما كانت تريد. فلجأت إلى سلاح آخر، هو سلاح «المقاطعة»، فلعله أن يكون أمضى.

قال ابن إسحاق: «فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة ابن عبد المطلب مع رسول الله وأصحابه، وجعل الإسلام يفشوق القبائل... اجتمعوا واثمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب، على ألا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم^(١)، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يتاعوا منهم. فلما

(١) لا ينكحوهم: لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم.

اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعْبِهِ^(١) واجتمعوا إليه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب - عبد العُزَّى بن عبد المطلب - إلى قريش فظاهرهم^(٢).

آل أبي طالب في الشعب

وحُصِر بنو هاشم وبنو المطلب بنسائهم وأطفالهم في الشعب، لا يتصل بهم أحد من القوم ولا يتصلون بأحد، ولا يصل إليهم طعام ولا شراب ولا شيء. وأحكمت قريش عليهم الحصار، فنصبت عليهم العيون والأرصاد، وبالغوا في قسوتهم عليهم حتى قطعوا عنهم الأسواق، فلم يتركوا طعاماً يقدم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه بأضعاف ثمنه، كي لا يصل إلى أيديهم منه شيء. وكان أبو لهب وأبو جهل هما زعيمى هذه الحركة؛ فأما أبو لهب فكان يحرص التجار على أن يُغَالُوا عليهم في الثمن حتى يعجزوهم عن الشراء، وكان يقول

(١) الشعب: شق في الجبل يشبه الخيأ.

(٢) ظاهرهم: ناصرهم على بنى هاشم.

كلما قدمت العير مكة : « يا معشر قريش التجار، غالوا على أصحاب عمدة حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم حالى ووفاء ذمتى ! » فيزيدون عليهم فى السلعة أضعافاً مضاعفة، حتى يرجع الرجل منهم إلى أطفاله وهم يتضاعون^(١) من الجوع، وليس فى يده شىء يُعللهم به^(٢)، ثم يغدو التجار على أبى لهب فِيرْبِحهم ويُضعف لهم... وأما أبو جهل فكان دائماً اليقظة والنشاط لإحكام الحصار، حتى يزدى إلى غايته التى قدرتها قريش، وهى أن يتخلى بنو هاشم وبنو المطلب عن رسول الله ﷺ فيسلموه إليهم فيقتلوه، أو يتخلى رسول الله عن دعوته فيُقضى عليها.

أذاعت المقاطعة أمر الدعوة

واستمرت هذه المقاطعة نحواً من ثلاث سنين، وبنو هاشم وبنو المطلب محصورون فى الشَّعب، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد، حتى أكلوا الخَبْط^(٣) وورق الشجر، وُسمع صراخ أطفالهم من وراء الشعب... وذاع نبأ هذه القطيعة فى الناس،

(١) يتضاعون : يصرحون.

(٢) بعللهم : يصرهم به.

(٣) الخبْط : ورق ينفض باغباط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويمزج بماء.

تعافه الإبل، ولعله شىء يشبه الكسب الذى تعلق به الهائم الآن.

وتسامع بها العرب الذين كانوا يقدمون مكة في موسم الحج، فأخذوا يتساءلون عن خبر هذه الدعوة التي أخرجت قريشاً عن وقارها، وأجبتها إلى أن تفرض هذه العقوبة الشنيعة على بني أبيها، وأن تقسوَ عليهم هذه القسوة التي لم يُسمعَ بمثلها في العرب قط وأدرك العرب أنه لا بد أن تكون هذه الدعوة شيئاً خطيراً، فجعلوا يتسقطون أنباءها، ويتعرفون حقيقتها وأغراضها، فكان ذلك سبباً في ذبوع أمرها بين العرب. وانعكس التقدير الذي قدرته قريش، فانتشر ما أرادت أن تخفيه من أمر هذه الدعوة، وخرجت أنباؤها عن نطاق مكة، وتسامعت بها قبائل العرب البادية والحاضرة.

ورأت قريش أنها لم تصل إلى غايتها من هذه المقاطعة وأن بني هاشم وبني المطلب قد «صبروا للمحنة كراماً، واحتملوها أعزةً عُثمًا»^(١). وكأنما أحست قريش أن العرب قد استنكروا منها هذه الشناعة، واستفظعوا هذا النُكْر، فخشيت أن ينال ذلك من كرامتها وسمعتها بين العرب.

اختلاف قريش في أمر المقاطعة

وشعر رجال من قريش بسوء ما صنعت قريش، فجعلوا

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٩٦.

يتداركون الأمر سرًا، ويُمدون هؤلاء المحصورين في الشعب بما يستطيعون من الطعام. وكان من هؤلاء هشام بن عمرو العامري؛ فكان يأتي بالبعير قد أَوْقَرَهُ^(١) طعامًا، ثم يخرج به ليلا حتى يستقبل به الشعب، ثم يخلع خِطامه^(٢) ويدفعه إلى الشعب، فيدخله بما عليه من الطعام، حتى علمت به قريش، فأغلظوا له القول وهموا بقتله؛ فقال لهم أبو سفيان بن حرب؛ «دَعُوهُ..! رجل وصل أهله ورحمته.. أما إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل لكان أحسن بنا...!». «!..».

وعن كان يصلهم بالطعام أيضًا حكيم بن حزام، فلقبه أبو جهل مرة ومع حكيم غلام يحمل قمحًا، يريد به عمته خديجة زوج النبي وهي معه في الشعب. فقال له أبو جهل: «تذهب بالطعام لبني هاشم؟.. والله لا تذهب أنت ولا طعامك حتى أفضحك بمكة!»! فحضرهما أبو البَخْتَرِيِّ بن هشام فقال لأبي جهل: «مالك وماله؟ طعام كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها به؟ خل سبيل الرجل..» فأبى أبو جهل، حتى تشاقما ونال أحدهما من الآخر؛ فأخذ أبو البختري كفى^(٣) بعير فضرب به أبا جهل فشجبه، ووطئه^(٤) وطئًا شديدًا؛ فانكف عن ذلك.

(٣) كفى: عظمًا من عظام الفك.

(١) أوقره: حمّله.

(٤) وطئه: داسه بقدميه.

(٢) الخِطام: الحبل الذي يسحب به.

صحيفة المقاطعة تأكلها الأرضة

قال ابن سعد في الطبقات: «ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة^(١) قد أكلت ما فيها من جور وظلم، وبقى ما كان فيها من ذكر الله عز وجل.. فذكر ذلك رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب فذكر ذلك أبو طالب لإخوته. وخرجوا إلى المسجد، فقال أبو طالب لكفار قريش: إن ابن أخي قد أخبرني - ولم يكذبني قط - أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة، فلحست كل ما كان فيها من جور وظلم أو قطيعة رَجِمَ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله؛ فإن كان ابن أخي صادقاً نَزَعَم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه. قالوا: قد أنصفتنا. فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها، فإذا هي كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فسُقَط في أيديهم ونُكسوا على رؤوسهم^(٢). فقال أبو طالب: عَلَامَ نُجِبس ونُحصر وقد بان الأمر؟.. ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال: «اللهم انصرنا عن ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرمُ عليه منا!..» ثم انصرفوا إلى الشعب.»

(١) الأرضة: العنقة.

(٢) نكسوا: ندموا على ما سلموا به، ورجعوا فيما وافقوا عليه.

وحزّ هذا المنظر الأليم في نفوس ذوى المروءة من قريش، وعز عليهم أن يعود إخوتهم إلى الشعب مخذولين، وأن يظلوا في هذا الحصار حتى يهلكوا جوعاً. وتمثلت لهم صورة هؤلاء الإخوة وهم يقاسون عذاب الحرمان وعذاب القطيعة، وأطفالهم يتصايحون من حولهم يُنشِدون الغوث والنجدة، فلا يستطيعون لهم غوثاً، ولا يجدون منهم منجداً ولا مغيثاً. فجعلوا يتلاومون على ما صنعوا بهم، ويتأمرون على نقض هذه الصحيفة الظالمة، وإنهاء هذه القطيعة التي لا تتفق مع المروءة، ولا مع الشهامة ولا مع الشرف.

رجال يسهون في نقض الصحيفة

قال صاحب السيرة النبوية والأثار الحمديدية: «عند ذلك مشت طائفة من قريش في نقض تلك الصحيفة، وهم هشام ابن عمرو بن الحارث العامري، وزهير بن أبي أمية المخزومي، والمُطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، وأبو البَخْترى ابن هشام، وزَمعة بن الأسود؛ فشى هشام بن عمرو إلى زهير ابن أمية فقال: أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتَنكِح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ فقال: وبحك يا هشام! ماذا أصنع؟ فإنما أنا رجل واحد؛ والله لو كان معي رجل آخر

لقت في نقضها! فقال: فانا معك؛ فقال: ابغنا ثالثاً^(١). ومشيأ
 جميعاً إلى المطعم بن عدى فقالا له: أرضيت أن يهلك بطنان
 من بني عبد مناف وأنت شاهد؟ فقال: إنما أنا واحد فقالا:
 إنا معك؛ فقال: ابغنا رابعاً. فذهبوا إلى أبي البختری فقال:
 ابغنا خامساً. فذهبوا إلى زمعة بن الأسود فوافقهم على ذلك.
 ففقدوا ليلاً بأعلى مكة، وتعاقدوا وتعاهدوا على نقض تلك
 الصحيفة، وإخراج بني هاشم من الشعب، وقال لهم زهير: أنا
 أبدؤكم وأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم،
 وغدا زهير - وعليه حلة^(٢) - فطاف بالبيت، ثم أقبل على
 الناس فقال: يا أهل مكة، أأكل الطعام ونلبس الثياب، وينو
 هاشم والمطلب هلكي، لا يتعاون ولا يتباع منهم..؟ والله
 لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!! فقال له أبو
 جهل: كذبت!! والله لا تُشَقَّ..! فقال زمعة بن الأسود:
 أنت والله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كتبت! فقال أبو
 البختری: صدق زمعة. فقال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب
 من قال غير ذلك؟ نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها..! فقال

(١) ابغنا: اطلب لنا ثالثاً.

(٢) حلة: ثياب مناسبة للموقف. ولعل هذا كان من عاداتهم عند التصدي للامور

هشام بن عمرو مثل ذلك؛ فقال أبو جهل : هذا أمر قد قُضى
بليل.

واضطرب الأمر بينهم وكثر القيل والقال، فقام المطعم بن
عدى إلى الصحيفة فشقها. وفي رواية : قام هؤلاء الخمسة
ومعهم جماعة فلبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم والمطلب
فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا.

قال ابن سعد في الطبقات : فلما رأت قريش ذلك سَقط في
أيديهم، وعرفوا أنهم لن يسلموهم.. وكان خروجهم من
الشعب في السنة العاشرة.

obeikandi.com

فهرس

الصفحة

٥	تقديم
٧	إهداء
١١	تمهيد
١٦	بلاد العرب، البيت الحرام
١٩	أرض الحرم - إبراهيم وسارة
٢٠	إسماعيل وهاجر
٢١	في أرض مكة
٢٢	حيرة هاجر
٢٤	نجدة السماء
٢٧	بناء البيت - إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة
٢٨	إبراهيم يدعو إلى الحج
٣٠	الحجاج يأتون من كل فج
٣٢	سدانة البيت - كانت خدعة البيت شرقاً عظيماً
٣٣	قصي بن كلاب
٣٦	قصي يجمع أطراف الشرف
٣١١	

الصفحة

- دار الندوة - رفادة الحجاج وسقايتهم ٣٧
- كشف زمزم - كانت السقاية مهمة شاقة ٤٠
- رؤيا عبد المطلب ٤١
- حفر زمزم ٤٣
- نذر عبد المطلب ٤٥
- الاحتكام ٤٦
- فداء عبد الله - الوفاء بالنذر ٥٠
- استنباء القداح ٥١
- مكانة عبد الله ٥٢
- حكم العرافة ٥٣
- رحلة القافلة - الصهر الكريم ٥٦
- رحلة الشتاء والصيف ٥٧
- عودة القافلة ٥٩
- أين عبد الله ٦٠
- موقف عصب ٦١
- مولد الرسول - أحلام آمنة ٦٢
- بين الشك واليقين ٦٣
- نور يضيء المشرق والمغرب ٦٤

الصفحة

- ٦٦ فرحة عبد المطلب
- ٦٨ الرضاع - مراضع البادية
- ٦٩ حليلة
- ٧١ النسمة المباركة
- ٧٣ بركة في كل شيء
- ٧٥ البادية - العودة إلى البادية
- ٧٦ رعيان الغم
- ٧٧ ليالى البادية
- ٧٩ حرص حليلة على رضيعها
- ٨٠ حفظ الجميل
- ٨٣ شق الصدر - قلب حليلة
- ٨٤ الحادث الخطير - الرسول يصف الحادث
- ٨٨ مخاوف حليلة
- ٩١ وفاة أمينة - وحشة الغريب
- ٩٣ الامتزاز بالوطن
- ٩٤ إلا الأصنام
- ٩٥ محمد يزور يثرب

الصفحة

٩٧ الحوادث الأليم
١٠٠ يتيم عبد المطلب - رعاية اليتيم
١٠٢ قلب عبد المطلب
١٠٣ سمو الطفولة
١٠٦ تبادل العواطف
١٠٨ في كفالة أبي طالب - اختيار أبي طالب
١١٠ الركن الأمين
١١٤ النفس العالية
١١٥ راهب بصرى
١١٧ رعى الغنم - الحس الدقيق
١١٩ رعى الغنم
١٢٠ رعيان مكة
١٢١ كان الله يحفظه
١٢٣ محمد في قومه - كان مثلاً للكمال الإنسان
١٢٤ سمو الأمين
١٢٦ عصمة الله
١٢٨ كان يشارك في معالي الأمور - شارك في حرب الفجار ...
١٢٩ وشارك في حرب الفجار

الصفحة

١٣٠	وشارك في بناء الكعبة
١٣١	وشارك في أعمال التجارة
١٣٣	خديجة - مكانة خديجة
١٣٤	رغبتها في محمد
١٣٥	كانت تجزل له العطاء
١٣٦	السفر إلى الشام
١٣٧	إرهاصات النبوة
١٤٠	زوجان سعيدان
١٤٢	صدق الوفاء
١٤٥	بشائر النبوة - الرسول الخاتم
١٤٧	صفته في الكتب الساوية
١٤٨	هو محمد بن عبدالله
١٥٠	أحاديث الأخبار والرهبان
١٥٢	قصة سليمان الفارسي
١٦١	أحاديث الكهان
١٦٣	قصة سواد بن قارب
١٦٧	قبل البعثة - ظهر الفساد في البر والبحر
١٦٨	كان العرب أسوأ الناس حالاً

الصفحة

- ١٦٩ أغرقوا في عبادة الأصنام
- ١٧٠ استقسموا بالأزلام
- ١٧٣ أشركوا الأصنام في حرتهم وأنعامهم
- ١٧٤ جعلوا الملائكة بنات الله - آمنوا بالخرافة
- ١٧٦ قامت حياتهم على الظلم
- ١٧٧ جعلوا المرأة نوعاً من المتاع
- ١٧٨ كانت الدنيا قههم
- ١٧٩ العنصر العربي
- ١٨٠ أين دين الحق؟
- ١٨١ العقلاء يبحثون عن دين إبراهيم
- ١٨٥ ليلة القدر - هموم العظيم
- ١٨٧ كان يخرجه حال قومه
- ١٨٨ أين الطريق
- ١٩٠ غار حراء
- ١٩٢ ليلة القدر
- ١٩٣ اقرأ باسم ربك
- ١٩٥ خديجة تبشر الرسول وتثبته
- ١٩٦ فترة الوحي

الصفحة

١٩٩	رحمة الله برسوله
٢٠٢	مطلع الفجر- المهمة الثقيلة
٢٠٣	كيف يدعو قريشًا إلى الحق؟
٢٠٧	البدء بالدعوة
٢٠٨	الرعيّل الأول
٢١٢	سادة قريش- المجتمع المكي
٢١٣	سيادة قريش على العرب
٢١٤	العبيد والإماء
٢١٦	المساواة في الإسلام- الإيمان بالآخرة
٢١٧	عقيدة التوحيد
٢١٨	خطر الإسلام على سيادة قريش
٢٢١	الجهر بالدعوة- الحذر من قريش
٢٢٢	دار الأرقم
٢٢٣	دعوة العشرة
٢٢٤	أبو هب
٢٢٧	موقف أبي طالب
٢٢٩	عداوة أبي هب
٣١٧	

الصفحة

- ٢٣٠ وامراته حمالة الخطب
- ٢٣٣ الجهر بالدعوة
- ٢٣٤ صيحة الصفا وأثرها في قريش
- ٢٣٧ أبوطالب وقريش - أحاديث قريش عن الدعوة
- ٢٣٩ إقبال المستضعفين على الإسلام
- ٢٤٠ استهانة قريش بالرسول ودعوته
- ٢٤٢ قريش تحس خطر الدعوة
- ٢٤٣ قريش تسعى إلى أبي طالب
- ٢٤٤ العزيمة الصادقة
- ٢٤٦ بنو هاشم يتعصبون للرسول
- ٢٤٨ الاضطهاد والتعذيب - غيظ قريش
- ٢٤٩ انتقام قريش - تعذيب المستضعفين
- ٢٥٠ بلال - آل ياسر
- ٢٥٢ خباب - صهيب
- ٢٥٣ عامر بن فهيرة - أبو فكيهة
- ٢٥٤ لبيبة - زنيرة
- ٢٥٥ النهديّة - أم عنيس
- ٢٥٦ الرسول يشبث أصحابه

الصفحة

٢٥٧	لم يقتصر التعذيب على الضعفاء
٢٦٠	المهجرة إلى الحبشة - خاف النبي على أصحابه الفتنة
٢٦١	السعي بالمهاجرين عند النجاشي
٢٦٢	النجاشي يأبى أن يردهم
٢٦٥	النبي يبادل النجاشي عواطفه
٢٦٧	حزن قريش لإخفاقها في سعيها
٢٦٨	نتائج هجرة الحبشة
٢٧٠	إسلام حمزة
٢٧١	إسلام عمر
٢٧٦	ضربة قاصمة
٢٧٩	حيرة قريش - أخطأت قريش حقيقة الدعوة
٢٨١	وتحيرت في أمر محمد
٢٨٢	أخذت تساومه لتعرف مقصده
٢٨٥	أدركت قريش أن محمدًا صادق في دعوته
٢٨٧	وأنه يدعو إلى الحق
٢٨٨	زعماء قريش يسترقون السمع
٢٩٠	كان من موانع الإيمان بمحمد الحسد
٢٩١	وحدائة السن
٣١٩	

الصفحة

- ٢٩٢ وقلة المال
- ٢٩٤ وأنه بشر مثلهم
- ٢٩٥ قريش تشكك في نبوة محمد
- ٢٩٦ وفيما أنزل عليه من القرآن
- ٢٩٧ وفي الدين الذي جاء به
- ٢٩٩ المقاطعة - عجزت قريش عن مقاومة الدعوة
- ٣٠٠ فلجأت إلى المقاطعة
- ٣٠١ المقاطعة والحصار
- ٣٠٢ آل أبي طالب في الشعب
- ٣٠٣ أذاعت المقاطعة أمر الدعوة
- ٣٠٤ اختلاف قريش في أمر المقاطعة
- ٣٠٦ صحيفة المقاطعة تأكلها الأرضة
- ٣٠٧ رجال يسعون في نقض الصحيفة

١٩٨٧ / ٣٩٣٥	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٠٥٩-٠٠	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)